

ول وايريل ديورانت

عِصرُ الإيمان

تَرجت محمّدبَدرَان

الجز الشّاني مِنَ المَجَلِّدالْمِرْابِي







الكنائب إيثاني

الحضارة الإسلامية

1704 - 074

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية الواردة

في الكتاب الثاني

٥٧٠ – ٦٣٢ : محمد (صلى الله عليسه | ٦٩١ – ٦٩٤ : بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقاس وسلم) ٦٩٣ – ٨٦٢ : حكم المسلمين في أرمينية ٩١٠ : الوحى . ٦٩٨ : استيلاء المسلمين على ٩٢٢ : هجرة النبى إلى المديئة . قرطاجنة . ۹۳۰ : فتح مكة . ٦٣٢ - ٦٣٤ : خلافة أبي بكر . ه ٧٠ - ١١٥ : جلافة الوليد الأول . ع ٣٠ - ١٤٤ : خلافة عمر بن الخطاب. ه ٧٠ وما يعدها – بناء الحامع العظيم في ٩٣٥ : اســتيلاء المسلمين على دمشق دمشق . ٧١١ : دخول المسلمين أسيائيا ه ٧١ - ٧١٧ : خلافة سليان الأولى . ٦٣٧ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس والمدائن . ٧١٧ – ٧٢٠ : خلافة عمر بن عبد العزيز ٠ ٧٢٠ - ٢٢٤ : خلافة يزيد الثاني . ٦٤١ : فتنع بلاد الفرس ومصر ٩٤١ : إنشاء الفسطاط . ٧٢٤ - ٧٤٣ : خــلافة هشام ين ۲۶۲ : إنشاء مسجد عمرو في عبد الملك . الفسطاط ۷۳۱ : واقعة تور وارتداد ١٤٤ - ٢٥٦ : خلافة عبَّان بن عفان . المسلمين . ٣٥٦ - ٩٦٠ : خلافة عل بن أبي طالب ٣٤٧ - ١٤٤ : خلافة الوليد الثاني". ٠ ٩٨٠ - ٩٨٠ : خسلافة معاوية بن ٧٥٠ : أبو العباس السقاح **آ**بى سفيان . يؤسس الدولة العباسية ٠٦٠ - ٧٥٠ : الحالفة الأموية في . ٤ م ٧ - ٧٧٥ : خلافة المنصور واتخاذ ٠ دمشتى . بغداد عاصمة . ٦٩٢ : استعال الأرقام الهندية ه ه ٧ - ٧٨٨ : عبد الوحن الأول أمير في الشام . قرطبة . ٠٨٠ : مقتل الحسين في كريلاء ٧٥٧ – ٧٤٧ : فلاسفة المعتزلة . ٠٨٠ – ٦٨٣ : خلافة يزيد الأول . . ٧٦٠ : نشأة الطائفة الإسماعلية ٦٨٧ - ٦٨٤ : خلافة مماوية الثاني .

٩٨٥ - ٧٠٥ : خلافه عبد الملك

ابن مروان .

٥٧٧ - ٢٨٧ : خلافة المهدى .

٧٨٦ : الحامم الأرزق في قرطية

۹۳۶ - ۱۰۲۰ : الفردرسي الشاعر . ٨٠٩ - ٧٨٦ : خلافة هرون الرشيد . مهه - ۹۹۸ : أبو الوفا المالم ٧٨٩ - ٧٧٤ : قيام أسرة الأدارسة الرياضي . في فأس . ٥ ٤٥ - ١٠٥٨ : سيادة بني بويه على ٨٠٣ : نــكبة البرامكة . بغداد . ۸۰۷ وما بعدها : الكندي ١٥١ : وفاة المسعودي الفيلسوف . الحغرافي . ٨٠٨ – ٩٠٩ : بنوالأغلب في القيروان ٢٥٢ - ١٩٥٧ : أشوط الثالث : ٨٠٩ - ٨١٠ : استيلاء المسلمين على عصر أرمينية الدهبى ورسقة وسردانية . -- ۱۰۲۰ : كاجيك الأول في ٨٠٧ - ٨٠٩ : حتين بن إسحق العالم . العصور الوسطى . ٨١٣ - ٨٣٣ : خلافة المأمون . - ۹۷٦ : خلافة الحسكم في قرطبة . ٨٧٠ - ٨٧٨ ؛ يتو طاهر في فارس . ٩٦٥ - ١٠٣٩ : ابن الحيثم المالم في ٨٢٧ - ٨٥٧ : عبد الرحمن الثاني أمير الطبيمة . قرطبة . ١٠٤٩ - ١٠٤٩ : أبو سعيد الشاعر ٨٧٧ وما بعدها : استيلاه المسلمين على الصوفى . صقلية . ٩٩٩ - ١١٧١ : الأسرة الفاطميسة ٨٣٠ : إنشاء بيت الحكة في فی مصر . بغداد . ٩٧٠ : بناء الجامع الأزهر ٨٣٠ : وضعالخوارزمىعلم الجبر في القاهرة . ۸44 - ۹۲۹ : الرازى ، الطبيب . ٩٧٣ - ٨٤٨ : البيروني ، العالم . ٨٤٦ : هجوم المسلمين على - ۱۰۵۸ : المري ، الشاعر . 4 44 رومة . ۹۷۱ - ۱۰۱۰ : خسلافة هشام في قرطبة . ٠٧٠ - ٥٥٠ : الفاراني ، الفيلسوف. ٩٧٨٠ - ١٠٠٢ : المنصور الوزير في ٩٠٣ - ٨٧٣ : السفاريون في فارس. قرطبة . ٨٧٣ - ٩٣٥ : الأشعرى الفقية . ٩٨٠ - ١٠٣٧ : ابن سينا الفيلسوف ۸۷۸ : بناء مسجد ابن طولون وما بعدها : إخوان الصفا . 924 في القطائم ٩٩٠ - ١٠١٢ : يغاء جامع الحاكم ٩٠٩ وما بعدها : الحسلافة الفاطبية في في القاهرة . القيروان . ۹۹۸ - ۱۰۳۰ : السلطان مجمود ٩١٢ - ٩٦١ : عبد الرحن خليفة في الغزنوى . قرطبة . ١٠١٢ : ثورة اليربر في قرطبة ه ۹۱ و ما بعدها : الطبزى المؤرخ . ١٠١٧ – ١٠٩٢ : الوزير تظام الملك ٩١٥ - ٩٦٥ : المتنبى الشاعر .

١٠٣١ : خاتمة الحلافة في قرطبة

١١٤٨ -- ١٢٤٨ : أسرة الموحدين في ' ١٠٣٨ : الأتراك السلاجقة يغزون بلاد الشام . آسيانيا . ١٠٣٨ - ١١٢٣ : الشاعر عمر الخيام. ۱۱۲۲ – ۱۲۲۷ : چنکیز خان . ١١٧٥ - ١٢٤٩ : الأسرة الأيوبية . ١٠٤٠ - ١٠٩٥ : المتمسد الأمسير ١١٧٩ - ١٢٧٠ : ياقوت الجنراني . والشاعر . ١١٨١ وما بعدها : قصر أشبيلية . ١٠٥٨ : استيلاء السلاجقة ١١٤٨ - ١٢٩١ : السعلى ، الشاعر . على بغداد . ١١٨٧ : صلاح الدين بهزم ٨ ١٠٥ - ٢١١١ : الإمام الغزالي . الصليبين في حطين ١٠٥٩ - ١٠٦٣ : طغرل بك سلطان ويستولى على بيت في بنداد . المقدس . ١٠٦٠ : استيلاء السلاجقة ١١٨٨ : مجد النظامي الشاعر على أرمينية . ١٢٩٦ : يربح الحرادة في ١٠٦٣ - ١٠٧٣ : السياطان ألب أشبيلية . أرسلان . ١٢٠١ - ١٢٧٩ : جلال الدين الروغي ، ١٠٧١ : الأثراك مسرمون الشاعر . اليونان فيملازكرت ۱۲۱۱ - ۱۲۸۲ : ابن خلکان کاتب ١٠٩٢ - ١٠٩٢ : السلطان ملك شاه السير ١٠٧٧ – ١٣٢٧ : سلطنة الروم في ١٢١٢ : المسيحيون بهزمون آسية الصغرى . المسلمين في واقعة ١٠٨٨ وما يعدها : المستجد الجامع في العقاب عند طليطلة إصفهان . ١٢١٨ - ١٢٣٨ : الكامل ، سلطان ١٠٩٥ : قيام طائفة الحشاشين مصر ، ١٠٩٠ -- ١١٤٧ : أسرة المرابطين في ۱۲۱۹ : جنگبز خان يغزو الأندلس. ما وراء جيحوڻ . . . ه ١٧٤٥ : استيلاء المغول على ١٠٩١ -- ١١٦٢ : أبن زهر الطبيب . بيت المقدس. ١٠٩٨ : استيلاء الفاطميين ومايعدها : قصر ألحمراه . على بيت المقدس . ١٢٥٠ - ١٢٥٠ : حكم الماليك فيمصر ١١٠٠ - ١٠٩٦ : الإدريس الخنراق ١٩٠٣ وما بعدها : مجسد ابن باجة ١٢٥٢ : انحصار ملك المسلمين بالأندلس في غر ناطة الفيلسوف . ١١٠٧ - ١١٠٠ : ابن طفيل الفيلسوف ١٢٥٨ : المغول يمبون بغداد ١١١٧ - ١١١١ : سسنجر ساطان ويقضون على الحلافة السلاجقة . المباسية . ١١٢٦ - ١١٩٨ : ابن رشد الفيلسوف ١٢٦٠ : الماليك يصدون ١٢٣٠ - ١٢٣٩ : أسرة الموحدين في المغول في واقعة عين مر اکش جالوت .

١١٣٨ – ١١٩٣ : صلاح الدين الأيوبي

١٢٦٠ - ١٢٧٧ : بيبر سططان الماليك

البابلالثامين محمد (صلى الله عليه وسل_م)

777 - 04.

الفضل الأول جزيرة العرب^(*)

توفى جستنيان فى عام ٥٦٥ وهوسيد إمبر اطورية عظيمة ، وبعد خمس سنين من وفاته ولد محمد (صلعم) فى أسرة فقيرة فى إقليم ثلاثة أرباعه صحراء

⁽ع) إن إعادة كشف بلاد العرب على يد الأوربيين في العصر الحديث لمن أكبر الأدلة على سعة أفق العلماء في القرن التاسع عشر وعلى أن العلم كان في ذلك القرن يعد العالم كله وطناً له . وقد بدأ هذا الكشف في أعوام ١٧٦١ – ١٧٦٤ حين اخترق كارستن قايبهر وطناً له . وقد بدأ هذا الكشف في أعوام ١٧٦١ – ١٧٦٤ حين اخترق كارستن قايبهر ١٧٧٧ أوسع وصف لبلاد العرب حتى ذلك الوقت . وفي عام ١٨٠٧ تزيي دمنجو باديا أي ليبلتش Dominge Badis Y. Leblich الأسباني بزي المغاربة وزار مكة ثم نشر بعد رجوعه أول وصف دقيق لمناسسك الحج . وفي عام ١٨١٤ – ١٨١٥ قضى جوهان لدفيج بيركهار دت الماسك الحج . وفي عام ١٨١٤ – ١٨١٥ قضى جوهان لدفيج بيركهار دت الماسك الحج . وفي عام ١٨١٤ م وهو رجل سويسرى تزيي بزي المسلمين ، يوكهار دت الدينة وقد أيد الرحالة اللين وفدوا على جزيرة العرب من بعده ما جاء في عدة أشهر في مكة والمدينة وقد أيد الرحالة اللين وفدوا على جزيرة العرب من بعده ما جاء في بيرتن عام ١٨٥٥ زار مكة والمدينة الرحالة رتشرد بيرتن عام ١٨٥٥ زار مكة والمدينة الرحالة رتشرد بيرتن عام ١٨٥٤ زار مكة والمدينة عمين .

وفى عام ١٨٦٩ – ١٨٧٠ ارتاد ج . هليفيى J. Holvey ، وهو يهودى فرنسى ، مواضع مالك المعينيين وسبأ والحميريين الأقدمين ونقل ما وجده فى تلك المواضع من نقوش على الصخور .

و في عام ١٨٧٥ سافر تشارلس منتجيو دو تن Charles Montague Doughtou الإنجليزى من دمشق مع قافلة الحجاج ونشر ما وقع له في كتابه بلاد المرب الصحراوية . -

مجدية قليلة السكان ، أهله من قبائل البدو الرحل ، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها م لاتكاد تكفي إنشاء كنيسة أياصوفيا . ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضى قرن من الزمان حتى يكون أولتك البدو قد فتحوا لصف أملاك الدولة البيزنطية في آسية ، وجميع بلاد الفرس ، ومصر ، ومعظم شمالي أفريقية ، وساروا في طريقهم إلى أسپانيا . والحق أن ذلك الحادث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب ، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البجر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه ، لهسو أعجب الظواهر الاجماعية في العصور الوسطى

وبلاد العرب أكر أشباه الجزائر في العالم ، يبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميل وأكبر عروضها ١٢٥٠ ميلا ، وهي من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى ، وجزء من الإقليم الصحراوى الرملي الذي يمتد إلى صحراء جوبي مخترة اللاد الفرس ، ومعني و عرب ، قحل (**) . وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر ارتفاعا فجائيا إلى ١٠٠٠ قدم ، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارا سهلا في أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الحليج الفارسي . وفي وسط الجزيرة عدد من الواحات الكلئة ، والقرى ذات النخيل ، نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بحفر الآبار . وتمتد الرمال حول هذه المراكز مثات الأميال في جميع الجهات . ويسقط الثلج في تلك البلاد مرة كل أربعين عاما ، وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى ٣٠ ، أما شمس النهار فتلفح الوجوء وتغلى الدم في الغروق ، والهواء المحمل بالرمال يضطر الأهلين إلى لبس الأثواب الطوال ،

من روائع النثر الإنجليزى م (١٨٨٨) الذي يمد من روائع النثر الإنجليزى م وفيا بين ١٨٨٨ – ١٨٨٨ قام ا ـ جلازر E. Glaser انمساوى بثلاث رحلات شاقة عطرة في قلب الحزيرة نقل في خلالها ١٠٣٢ نقشا هي الآن أهم مصدر لتاريخ بلاد السرب قبل الاسلام .

⁽ج) ورد في القاموس المحيط : تمرب أقام بالبادية ولعل المؤلف أخذ من هذا قوله - إن عرب مناه قحل (المترجم) .

وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر ٥ وتكاد السهاء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم ، والهواء ويشبه النبيذ البراق » ٥ ويسقط المطر أحيانا قرب شاطئ البحر فيجعله صالحا لقيام الحضارة ، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربي في بلاد الحجاز حيث نشأت بلدتا مكة والمدينة ، وفي الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن موطن المالك العربية القديمة .

ويسجل نقش بابلي (يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٢٤٠٠ ق م) ۾ هزيمة لحقت بملك ماجان (** على يد نارام سن الحاكم البايلي · وقد كانت ماجان مده عاصمة المملكة المعينية التي كانت قائمة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب. وقد عرف خسة وعشرون من ملوكها الذين حكموها بعد هذه الهزيمة من نقوش عربية يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠ ق ﴿ م : وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى ٢٣٠٠ ق . م وإن كانوا غير واثقين من هذا . وقد ورد فى هذا النقش اسم مملكةعربية أخرىهىمملكة سبأ فى بلاد اليمن . ومن مبأ أو من مستعمر اتها في القسم الشهالي من بلاد العرب ــ لأن هذا موضع خلاف بين المؤرخين ــ « ذهبت » ملكة سبأ إلى سليمان حوالى عام ٩٥٠ ق . م . وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لهم ، وخاضوا حروب « الدفاع » المعتادة ، وأنشأوا أعمالا عظيمة للرى كسدود مأرب (التي لا تزال آثارها باقية إلى الآنْ) ، وشادوا الحصون والهياكل الضخمة ، ووهبوا كثيراً من المال للشئون الدينية .، واتخذوا الدين وسيلة للحكم(٢) . والنقوش التي خلفوها ــ والتي لا ترجع في أغلب الظن إلى ما قبل عام ٩٠٠ ق ، م ــ منحوتة نحتا جميلا بحروف هجائية . وكانت بلادهم تنتج الكندر والمر اللذين كان لها شأن أيما شأن في الشعائر الدينية الأسيوبية والمصرية ، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية بين الهند ومصر ، وعلى الطرف الجنوبي

^(*) لعل ماجان التي وردت في النقوش البابلية هي بعينها معين التي تنتسب إلى المملكة المعينية والتي اشتقت منها كلمتا معان اسم البلد ومعين بمعتى ينبوع . (المترجم) .

من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس مارا بمكة والمدينة . وحدث حولى عام ١٩٥ ق . م أن قامت مملكة صغيرة أخرى فى الجنوب الغربى من بلاد العرب هي مملكة الحميريين ، فهاجمت مملكة سبأ ، وغلبتها على أمرها ، وظلت بعد هذا الوقت تسيطر على تجارة بلاد العرب عدة قرون ، وفي عام ٢٥ ق . م غضب أغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة المتبادلة بين مصر والهند فسير خيشا بقيادة جالوس Aelius Gallus للاستيلاء على مأرب. وأضل الأدلاء العرب الفيالق الرومانية ، وأهلكهم الحر والمرض، وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها ، ولكن جيشا رومانيا آخر نجح فى الاستيلاء على عدن ، وانتقلت بدلك السيطرة على التجارة بين مصر والهند إلى يد رومة. (وقد فعل البريطانيون ذلك بعينه فى الوقت الحاضر) .

وفى القرن الثانى قبل الميلاد عبر بعض الحميريين البحر الأحمر . واستعمروا بلاد الحبشة ، ونشروا الثقافة السامية بين أهلها الزنوج ، كما أدخلوا فيهاكثيرا من الدم السامى (*) . وتلتى الأحباش من مصر وبيز نطية الدين المسيحى والصناعات اليدوية والفنون . وكانت سفهم التجارية تجوب البحار وتوغل فيها حتى تصل إلى الهند وسرنديب (٢) . وكانت سبع ممالك صغيرة تقر بالسيادة للنجاشي (**) .

^(*) يطلق اسم الساميين على الشعوب التي تنتسب إلى سام بن نوح ما هو وارد في سفر التكوين (١٠ : ١) . وليس في استطاعتنا أن نقول بالدقة ما هي هذه الشعوب السامية ، ولكنا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سكان سوريا ، وفلسطين وأرض النهرين ، وبلاد العرب ، والسكان العرب في أفريقية ساميون ، إذا فهمنا من هذا اللفظ أنهم يتكلمون لغات سامية ، كا نستطيع أن نسمى السكان الأقدمبن في آسية الصغرى وأرمينية ، وبلاد القفقاس : وأهل فارس ، وشمالى الهند ، ومعظم أوربا وجميع سكان أمريكا اللهن من أصل أوربي «هندوربيين » لأنهم يتكلمون لغات هندية جرمانية .

Decline and Fall اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها Olbbon جبن Olbbon اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ٣٦٢ . ولقد كان من Everman's Library مفاخر جبن أنه أدرك ما للإسلام من شأن عظيم في تاريخ العصور الوسطى ، وأنه كتب تاريخه السيامي كتابة تم عن علم غزير ، وكتبه بدقة وبلاغة منقطعي النظير .

هذا قى الحبشة أما فى بلاد العرب نفسها فإن كثيرين من الحميريين ساروا على سنة ملكهم ذى نواس ، واعتنقوا الدين البودى ، واندفع ذونواس فى حاسته الدينية فأخذ يضطهد المسيحيين المقيمين فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب ، فاستغاث هولاء ببنى ديهم ، واستجاب الأحباش إلى دعوتهم ، وهزموا ملوك الحميريين (٢٢٥م) ، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية . وتحالف جستنيان مع اللولة الجديدة ، ورد الفرس على هذا . بأن انحازوا إلى جانب ملوك حمير المخلوعين وطردوا الأحباش ، وأقاموا فى بلاد اليمن حكما فارسيا (٥٧٥) انهى بعد ستين عاما أو نحوها حين فتح المسلمون بلاد الفرس .

وازدهوت بعض المالك العربية الصغرى فى الجزء الشهال من شبه الجزيرة ، ولكما لم تدم طويلا . فقد ظل مشايخ بى غسان يحكمون الجزء الشمال الغربى والقسم المحيط بتدمر من بلاد سوريا من القرن الثالث إلى القرن السابع تحت سيادة بيز نطية . وأنشأ ملوك بنى لخم فى الحيرة القريبة من بابل فى هذا الوقت عينه بلاطآ نصف فارسى ، وتثقفوا ثقافة فارسية اشهرت بموسيقاهات وشيعرها . ويرى من هذا أن العرب انتشروا شمالا فى سوريا والعراق قبل الإسلام بزمن طويل .

وكان النظام السياسي السائد في بلاد العرب قبل الإسلام ، إذا استثنينا هذه المالك الصغرى في الجنوب والشهال ، هو النظام البدائي الذي يقوم على رابطة القرابة والذي تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل . بل إن هذه المالك الصغرى نفسها لم تكن تخلو من قسط كبير من هذا النظام القبلي . وكانت القبياة تسمى باسم أب لها مزعوم عام ، فالغساسنة مثلا كانوا يعتقلون أنهم « أبناء غسان » ، ولم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل غصر النبي إلافي مسميات اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم السركنوي غير الدقيقة ، ومن هذا الاسم اشتق اللفظ الإنجليزي Saracens ، ويلوح أنه هو

نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى . وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها هما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً نى نمو روح العزلة فيهم ، فالعربى لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولائه تتناسب تناسباً عكسيا مع سعة الجماعة التى يدين لها بهذا الولاء ، فلم يكن يتردد فى أن يقدم وهو مرتاح الضمير على ما لا يقدم عليه الرجل المتحضر إلا من أجل بلاده أو دينه أو «عنصره» ، أى أن يكذب ، ويسرق ، ويقتل ، وعوت . وكان يحكم كل قبيلة أو بطن من قبيلة شيخ يختاره رؤساء العشائر فيها من بيت اشتهر من زمن بعيد بثرائه ، أو سداد رأيه ، أو شدة بأسه فى القتال .

وكان الرجال في القرى بنتزعون بعض الحب والحضر من التربة الضنينة ، ويربون بعض الماشية القليلة العدد ، وبعض الحياد الكريمة ، ولكنهم كانوا يجلمون أن زراعة بساتين النخل ، والحوخ ، والمشمش ، والرمان ، والليمون ، والبرتقال ، والموز ، والتين أجدى لهم وأعود بالربح عليهم . ومنهم من كان يعني بزراعة النباتات العطرة كالكندر ، والسعتر ، والياسمين ، والخزاى ، وكان بعضهم بستخرجون العطر من ورد الجبال ، وبعضهم يحفرون سيقان الأشجار ليستخرجوا منها المرأو البلسم . وربما كان جزء من اثني عشر جزءا من السكان يعيشون في المدن القائمة على الساحل الغربي أو بالقرب منه . وكان في هذا الساحل عدد من المرافي والأسواق تتبادل منها تجارة البحر . وفي داخل البلاد كانت تسير طرق القوافل الكبرى إلى بلاد الشام .

ونحن نسمع عن تجارة بين بلاد العرب ومصر منذ عام ٢٧٤٣ ق.م؛ وأكبر الطن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قدما عن الاتجار مع مصر. وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعى التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى المكتارة أخرى، وكان

يجتمع فى سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات من التجار ، والممثلين. والخطباء ، والمقامرين ، والشعراء ، والعاهرات .

وكان خمسة أسداس السكان بدوآ رحلا ، يشتغلون بالرعى وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء. والبدوى يحب الخيل ، ولكن الجمل أعز أصدقائه في الصحراء ، فهو يسبر ومهتز في. وقار ، وإن كان لا يقطع إلا ثمانية أميال في الساعة ، ولكنه يستطيع أن يصمر على الماء خمسة أيام طوال في الصيف ، وخمسة وعشرين يوما في الشتاء . والناقة تدر اللبن ، وبول الجمل مفيد في تقوية الشعر (**) ، وروثه يمكن أن يتخذ وقودا ، وإذا ذبح أكل لحمه، وصنعت الثياب والخيام من جلده ووبره . الصحراء متجلداً كجمله ، مرهف الحس نشيطاً كجواده . والبدوى قصير القامة ، نحيف الجسم ، مفتول العضلات ، قوى البنية ، فى وسعه أن يعيش أياماً متوالية على قليل من التمر واللمن ، وكان يستخرج من البليح نفسه خمرا يرتفع ها من تراب الأرض إلى خيال الشعراء. وكان يدفع عن نفسه ملل الحياة الرتيبة وسآمتها بالحب والحرب، وكان يسرع كما يسرع الأسباني (الذي ورث عنه سرعة غضبه) إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى . وكان يقضي جزءا كبيراً من حياته فى الحرب التي تستعر نارها بين القبائل المختلفة ، و لما أن فتح بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وأسپانيا لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه في غارات النهب التي كان يشنها في أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض في هذه عن تلك .

وكان يجعل من بعض أوقات السنة هدنة مقدسة للحج أو للتجارة ، أما في غير هذه الأوقات فكان يرى أن الصحراء ملكه الخاص ، وأن كل من

⁽ ه) يقول دوق Doughty إن نساء البدو « يغسلن أطفالهن ببول الجمال » ظناً منهن أن ذلك يبعد عنهن الحشرات » . . . و يمشط الرجال والنساء شعرهم الطويل بهذا الماء .

يدخلها في غير هذه الأشهر الحرم ومن غير أن يؤدى له ما يفرضه من إتاوة ، معتد عليه وعلى وطنه ، وأن ثهب أموال هذا المعتدى ليس الا ضريبة تجيى منه بأهون السبل . وكان يحتقر حياة الحضر ، لأن معناها الحضوع لمطالب القانون والتجارة ، ويحب الصحراء القاسية لأنه يتمتع فيها بكامل حربته ، وكان البدوى رحيا وسفاكا للدماء ، كريماً وبخيلا ، غادرا وأمينا ، حدرا وشجاعا ، ومهما يكن فقر ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو بنقاء دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه .

وكان لدى البدوى أمر لا يقبل فيه جدلا ، ذلك هو جمال نسائه الذى لا يدانيه في نظره جمال . لقد كان جمالا أسمر ، قويا ، يفتن اللب ، خليقا بأن يتغزل فيه بعشرات المثات من الأغانى الشعرية ، ولكنه جمال قصير الأجل سرعان ما يذوى في جو الصحراء القائظ . وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبي تنتقل من حب الرجل لها حباً يقرب من العبادة إلى الكدح طوال ما بتى من حياتها ، ولم تتغير هذه الحياة فيا بعد إلا قليلا (**) . وكان في وسع أبها أن يثدها حن مولدها إذا رغب في هذا ، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يحزن لمولدها ، ويوارى وجهه خجلا من الناس ، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وكانت طفولتها الجلذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين ، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تزوج لأى شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدى للعروس ثمنها القبيلة يرضى والده أن يؤدى للعروس أمنها (خيه) . وكان حبيبها وزوجها يحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميها ، ويدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع أو يدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع

⁽ه) سنجد في فصول الكتاب الآتية ما يدل على أثر الإسسلام في رقع مُثرلة المرأة إلى درجة لم تسم إليها في كتير من البلدان ؛ وسيدكر المؤلف نفسه كثيراً من النساء اللاقي كان لهن أعظم شأن في الحياة العامة العمليةوالسياسية والاجتاعية . (المترجم) .

⁽هه) يريد مهرها . ١٧ -- ٢٧ - مجلد ٤)

هوالاء العشاق المتيمين إلى إسپانيا . ولكن هذه المعبودة كانت إلى هذا سلعة من السلع ، فقد كانت جزءاً من أملاك أبيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تورث مع هذه الأملاك ، وكانت على الدوام من خدم الرجل ، وقلما كانت رفيقته . وكان يطلب إليها أن تلد له كثيراً من الأبناء ، الأبناء الذكور بطبيعة الحال ، لأن واجها أن تنجب المحاربين ، ولم تكن في كثير من الأحوال إلا زوجة واحدة من كثيرات من الزوجات وكان في وسع الرجل أن يخرجها من بيته متى شاء .

لكن مفاتها لم تكن تقل عن الحرب إلجاماً لحيال الشعراء ، وموضوعاً لشعرهم ، وكان العربي قبل الإسلام أميا ولكن حبه للشعر لم يكن يزيد عليه الاحبه للخيل والنساء والحمر . ولم يكن بين العرب في الجاهلية علاء أو مؤرخون (4) ولكنهم كانوا مولعين بفصاحة اللسان ، وصحة الكلام ، والشعر المختلف المعقد الأوزان . وكانت اللغة العربية قريبة الشبه باللغة العبرية ، معقدة في تصريفها ، غنية بمفردا أبها ، دقيقة في الفروق بين ألفاظها ، قادرة في ذلك الوقت على التعبير عن جميع أحاسيس الشعراء وفيا بعده عن جميع دقائق الفلسفة . وكان العرب يفخرون بقدم لمختهم وكمالها ، يولعون بترديد مقاطعها العذبة في خطبهم الرئانة وشعرهم الجذل ونثرهم الرصين ، يأخذ مقاطعها العذبة في خطبهم الرئانة وشعرهم الجذل ونثرهم الرصين ، يأخذ بلهم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم في القرى والمدن ، وفي بليهم شعر الشعراء الوالاسواق ، مغامرات أبطالهم أو قبائلهم أو ملوكهم في الحرب في قصائد طوال من الشعر الموزون المذي . وكان الشاعر العرب ، وجامع أنسامهم ، وهجاءهم ، والمتغنى بفضائلهم ، وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعهم إلى القتال . وإذا نال الشاعر وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعهم إلى القتال . وإذا نال الشاعر وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعهم إلى القتال . وإذا نال الشاعر وانترة في إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التي كانت تعقد من آن إلى وانترة في إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التي كانت تعقد من آن إلى

⁽ ته) من الحتى أن العرب في جاهليتهم لم يعنوا بالعلوم كما عنى بها غيرهم من الأم كأهل مصر والهند والفرس واليوثان ، ولكن كان منهم من عنى بنيء من العلوم الفيرورية كالطب. المبنى على التجرية وأحوال الكواكب والنجوم . (ى)

آن ، كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبتهج له أعظم ابتهاج. وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام في سوق عكاظ ، حيث كانت تتنافس القبائل في كل يوم تقريباً مدى شهركامل على لسان شعرائها . ولم يكن في السوق محكون غير الجهاهير المنصقة التي تبدى استحسانها لما تسمع أو احتقارها له (*) . وكانت أحسن القصائد التي تقال في هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك « بالمذهبات » ، وكان يحتفظ بها في خز اثن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قيا . وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائزة منها – كما تقول القصص المتواترة – قد كتبت على بالمعلقات لأن الفائزة منها – كما تقول القصص المتواترة – قد كتبت على الحرير المصرى بأحرف من الذهب وعلقت على جدران الكعبة في مكة .

وقد بقيت من هذه المعلقات التي قيلت في الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي ، وهي قصائد طوال من الشعر المقتى المعقد الأوزان ، وموضوعها في العادة هو الحب أو الحرب. وتقص إحداها وهي معلقة لبيد قصة جندي عاد من الحرب إلى قريته وبيته حيث كان قد ترك زوجته ، فوجد بيته خالياً ، وقد غادرته الزوجة مع رجل غيره ، ويصف لبيد منظر هسذا البيت الحيالي بحنان لا يقل عن حنان جولدسميث . ويزيد عليه في فصاحة الشعر وقوة التعبير . وفي معلقة أخرى تستحث النساء الرجال إلى الحرب بقولهن :

ويها بنى عبد الدار ويها حمساة الديار ضرباً بكل بتسار نين بنات طارق لا ننشيني لواءق

^(*) كانت هناك سوقان غير سوق عكاظ ، وهما سوقا مجنة وذو المجاز وكان فيها الحيانًا محكمون من ذوى المكانة . (المترجم)

⁽ه.) آثرنا أن نبق هذا التعبير كما هو ، وإن كان لا يقرب المملى للقارئ العرب ، لما فيه من مفاضلة بين شاعرين من أمتين مختلفتين وهي في رأينا مفاضلة فيها كثير منالفائدة . (المترجم)

عشى على النمارق المسك في المفارق إن تقبسلوا نعانق والدر في المخسانق ونفرش النمسارق أو تدبروا نفسارق فراق غــــــر وامق^(*)

وفى معلقة لامرى القيس أبيات تنم عن حب شهوانى سافر :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل تجاوزت أحراساً إلها ومعشرا على حراصاً لويسرون مقتلي إذا ما الثريا في السهاء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل لدى الستر إلا لبسة المتفضل وما أن أرى عنك الغواية تنجلي خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل على هضيم الكشعرية المخلخل ترائبها مصقولة كالسجنجل تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل إذا هي نضته ولا بمعطل أثيث كقنو النخسلة المتعثكل تضل العقاص في مثنى ومرسل وساق كأنبوب الستبي المذلل وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل أساريع ظبى أو مساويك أسحل منارة عمس راهب متبتل

فجثت وقد نضت انوم ثيامها فقالت يمن الله مالك حياة فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى هصرت بفودى رأسها فنمايلت مهفهفة بيضاء غبر مفاضسة وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش وفرع يزين المتن أسود فاحم غداثره مستشزرات إلى العلا وكشح لطيف كالجديل. مخصر وتعطو برخص غبر شأن كأنه تضىء الظلام بالعشاء كأنها

⁽٠) لا حاجة إلى القول بأن هذا الرجز ايس المعلقات ؛ وقد أنشدته هند بنت عتبة تحرض قومها على القتال في يوم أحد . (المترجم)

وكان شعراء الجاهلية ينشدون أشعارهم على نغات الموسيقى ، فجمعوا بذلك بين الشعر والموسيقى فى صورة واحدة . وكان الناى ، والمزهر ، والمدف أحب الآلات الموسيقية إلهم ، وكثيرا ماكانت الفتيات المغنيات يستدعين لتسلية الأضياف فى الولائم ، وكان فى مجال الشراب عدد منهن ، وكان عند ملوك الغساسنة عدد كبير من الفتيات ليفرجن عنهم متاعب الملك ، وكان عند ملوك الغساسنة عدد كبير من الفتيات ليفرجن عنهم متاعب الملك ، ولما خرج أهل مكة لقتال النبي فى عام ٢٦٤ أخدوا معهم سربا من القيان ليسلينهم ويشجعهم على القتال ، وكانت الأغانى العربية حتى فى أيام الجاهلية أناشيد مشجية حزينة ، لا تستخدم فها الاألفاظ قليلة نغمها على الدوام فى الدرجات العليا من السلم الموسيقى ، وتكفى فيها أبيات قليلة لتشغل المغنى ساعة كاملة .

وكان للعربى ساكن الصحراء دينه الدال على حذقه و دهاته رغم بدائيته ، فكان بهاب ويعبد أربابا لا حصر لها في النجوم ، والقمر ، وفي أطباق الأرض ؛ وكان من حين إلى حين يطلب الرحمة من السهاء المنتقمة ، ولكنه لم يكن في الغالب يستبين سبيل الرشاد بين الجن المحيطين به ، ولا يرى أملا في استرضائهم ، فغلبت عليه من أجل ذلك نزعة الجرية والاستسلام ، فإذا دعاهم دعاهم في رجولة ولم يطل الدعاء ؛ ويستهزئ بالأبدية ولا يعبأ بها ؛ ويبدو أنه لم يكن يفكر كثيراً في الحياة بعد الموت ، على أنه كان في بعض الأحيان يطلب أن يربط جمله بجوار قبره ، وأن يمنع عنه الطعام حتى يلحق به بعد قليل في الدار الآخرة ، وينجيه من مذلة السير على قدميه في يلحق به بعد قليل في الدار الآخرة ، وينجيه من مذلة السير على قدميه في بعض الأماكن بين الفينة والفينة يقدم لآلهته الضحايا البشرية ، كماكان في بعض الأماكن يعبد الأصنام الحجرية .

وكانت مكة مركز عبادة الأصنام : ولم يكن سبب قيام هذه المدينة المقدسة في موضعها الذي قامت فيه هو جودة مناخها ، ذلكأن الجبال الجرداء التي تكاد تطبق علىها من جميع الجهات تجعل صيفها حارا لايطاق . وكانااو ادى الذي تقوم

فيه غير ذى زرع ، ولا يكاد يوجد فى البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة ، ولكن موقعها فى منتصف ساحل البلاد الغربى ، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلا من البحر الأحمر ، جعلها محطة صالحة فى طرق القوافل الطوال التي تجمع فى بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراءبعض ، والتى كانت تحمل المتاجر بين جنوبى بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى) وبين مصر ، وفلسطين ، وبلاد الشام . وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيا بينهم شركات محاصة ، ويسيطرون على أسواق عكاظ ، ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس .

ومعنى الكعبة البيت المربع . واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزى Cube (مكعب) (*) ومن المعتقدات الشائعة أن الكعبة بنيت ثم أعيد بناوها عشر مرات ، فقد بناها فى فجر التاريخ ملائكة السهاء ، وبناها فى المرة الثانية آدم أبو البشر ، وفى المرة الثالثة ابنه شيث ، ثم بناها فى المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل ابنه من هاجر . . . وبناها فى المرة السابعة قصى زعيم قبيلة قريش ، وبناها فى المرة الثامنة كبار قريش فى حياة محمد (١٠٥) ، وبناها ثريش ، وبناها فى المرة الثامنة كبار قريش فى حياة محمد (١٩٠٥) ، وبناها بئيت فى المرة العاشرة زعماء المسلمين عامى ١٨١ و ٢٩٦ . والكعبة كما بئيت فى المرة العاشرة هى كعبة هذه الأيام فى معظم أجزائها . وهى مقامة فى داخل بناء واسع هو المسجد الحرام . وهى بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدما ، وعرضها خمس وثلاثون ، وارتفاعها خمسون ، وفى ركنها الجنوبى الشرق ، وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض ، الحجر الأسود ، الجنوبى الشرق ، وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض ، الحجر الأسود ، وهو حجر قاتم اللون بيضى الشكل قطره سبع بوصات . ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السهاء ـ ولعله كان صاعقة ؛ ويةول معظمهم أن هذا الحجر قد نزل من السهاء ـ ولعله كان صاعقة ؛ ويةول معظمهم

^(﴿) فَي الْحَيْطُ الْكَمَّبَةُ الْبَيْتُ الْحُرَامُ زَادَهُ اللَّهِ تَشْرِيفًا وَكُلُّ بَيْتُ مَرْبُعُ . ﴿ الْبَرْجِمُ ﴾ "

إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم ، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذى نبذه بنو إسرائيل فكان منه آباء قبيلة قريش : ويؤيدون قولهم هذا بما جاء فى المزمور الثامن عشر بعد المائة فى الآيتين ٢٧ و٣٧ « الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية ، ، وفى الآيتين ٤٧ و٣٤ من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى ، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة : « لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » وإن لم يكن فى وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح (**) .

وكان فى الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب. منها اللات ، والعزى ، ومناة . وفى وسعنا أن ندرك قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات (اللائت) على أنها من أكبر أرباب العرب . وكانوا يقولون لأهل مكة إن إلههم الأكبر رب أرضهم ، وإن عليهم أن يؤدوا لها عشر محاصيلهم ، والثمرة الأولى من نتاج قطعاتهم ، وكانت قريش ، وهى التى تعزو نسها إلى إبراهيم وإسماعيل ، تختار من بين رجالها سدنة الكعبة وخدامها والمشرفين على مواردها المالية : وكانت أقلية أرستقراطية منهم هم بنو قصى يتولون زمام الحكومة المدنية في مكة .

وكانت قريش فى بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين ، إحداهما يتزعمها التاجر الثرى الخير هاشم ، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية .

⁽ه) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المصيح من التسامح والرحمة فإن الناريخ لا يعرف كالمسلمين في تراحمهم ودعوتهم للسلام والمحبة . والقرآن ووصايا الرسول والحلفاء أكبر شاهد على هذا ، ولكن التسامح والرحمة والدعوة إلى السلام والمحبة في الدين الإسلامي ممزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . (المترجم)

وكان لهذا التنافس الشديد شأنه العظيم فى تاريخ العرب بعد الرسالة : ولما توفى هاشم خلفه فى زعامة بيته ابنه أو أخوه الأصغر عبد المطلب وفى عام ٥٦٨ تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ، وهى أيضاً من قصى ، وأقام عبد الله مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها فى بعثة تجارية ، ومات فى المدينة وهو راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته (٥٦٩) ولدت آمنة أعظم شخصية فى تاريخ العصور الوسطى (*).

⁽ه) وفي التاريخ كله .

الفصلالثاني

محمد فی مکة ۹۲۹ – ۹۲۲

[نكرر هنا ما ذكرناه في مقدمة هذا الجزء من أننا آثرنا أن نثبت هذه الفصول التي يتحدث فيها المؤلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والدين الإسلامي كما أوردها حرصاً منا على الأمانة في الترجمة من جهة و نكى يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى سواء كانت هذه الآراء نما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أولا يتفق معه . يضاف إلى ذلك أن هذه الفصول لا تخلو من كثير من الثناء على النبي وتحجيد للإسلام يصبح أن يطلع عليه القراء . على أن إثباتنا لأقوال المؤلف لا يعني مطلقاً أننا نوافقه عليه . وقد ذكر وهو مسيحي في كلامه على المسيحية ما لا يوافقه عليه كثيرون من أبنائها كما ذكر عن اليهودية ما لا يوافقه عليه كثيرون من اليهود ، ويجب ألا يغفل القراء التعليقات التي أثبتناها في هوامش هذه الفصول] .

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، ققد ترك له عبد الله خسة من الإبل ، وقطيعاً من المعز ، وبيتاً ، وأمة عنيت بتربيته في طفولته . ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه ، كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به . وقد توفيت أمه وهو في السادسة من عمره وكفله أولا جده وكان وقتئذ في السادسة والسبعين من عمره ثم عمه أبو طالب ولتي منهما كثيراً من الحب والرعاية ، ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة . ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت ، ولهذا والكتابة . ولم تكن لهذه الميزة قيمة عشر يقرءون ويكتبون . ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحيء بأشهر (*) وأبلغ كتاب

⁽a) هذا رأى المؤلف بطبيعة الحال وليس من حقنا أن نطلب إليه أن يقول إنه منزل من عند الله . (المترجم)

فى اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفا قلما يصل الله أرقى الناس تعليماً .

ولا نكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل ، وكان ما يروى عنه من القصص قد ملأ عشرة آلاف مجلد . وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو في الثانية عشرة من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام ، وليس ببعبد أن يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلا من القصص الشعبية البهودية والمسيحية . وتصوره قصة أخرى بعد بضعة سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بصرى في تجارة إلى السيدة خديجة وكانت وقتئد أرملة غنية ، ثم نراه في الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة مهذه السيدة وهي وقتئد في الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء . ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً ، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب في ذلك الوقت ، ولكن لعله كان طبيعياً في حالتهما . وقد رزق منها عدة بنات أشهرهن كلهن فاطمة ، كا رزق بولدين توفيا في طفولتهما . وقد وجد سلواه في تبني (*) على بن أبي طالب الذي مات عنه والده . وكانت خديجة سيدة طيبة ، وزوجة صالحة ، وتاجرة بارعة ظلت وفية لحمد في صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها وفية لحمد في صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها وفية لحمد في صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خور نسائه كلهن .

ويصف على زوج فاطمة محمداً وهو فى سن الخامسة والأربعين بقوله : لم يكن الطويل الممغط ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط ، كان جعداً رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم ، وكان أبيض مشربا أدعج العينين أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق

^(*) لم يكن هذا تبنيا بالمعنى المعروف عند الغربيين ولكن الرسول آوى عليا وكفله في تربيته تخفيفا عن أبيه في الأثرمة الشديدة التي أصابت قريشا -- راجع سيرة بن هشام .
(المترجم)

المشربة ، أجود شأن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى في صبب ، وإذا التفت التفت معا ، أجود الناس كفآ وأجرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى النام ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من آره بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته ولم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم » .

وكان محمد مهيب الطلعة ، لا يضحك إلا قليلا ، قادرا على الفكاهة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة ، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس . ولم يكن قوى البنية ، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر ، ميالا إلى الانقباض كثير التفكير . كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله (*) ، ولكنه كان يعرف متى جدى من انفعاله ، وكان في وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب .

وكان فى بلاد العرب كثيرون من المسحيين ، وكان منهم عدد قليل فى مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذى كان مطلعا على كتب الهود والمسحيين المقلسة . وكثيرا ما كان محمد بزور المدينة التى مات فيها والله ، ولعله قلد التنى هناك ببعض الهود وكانواكثيرين فيها . وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين ، وبما فى دين الهود من نزعة إلى التوحيد ، وبما عاد على المسيحية والهودية من قوة كبيرة لأن لكلتهما كتابا مقلسا تعتقد أنه موحى من عند الله . ولعله قلد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة للأوثان ، ومن فساد خلقى ، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسى ، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا قورنت

^(*) كان النبى يغضب أحياناً قه ولدينه ، ولكننا لا نعرف أنه كان يتهيج لأن البهيج ممغة لا تليق بصفه بأنه بالمؤسئين وخاصة والله يصفه بأنه بالمؤسئين وموف رحيم ويقول عنه « وإنك لعلى خلق عظني » و « ولوكنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حواك » . (ى)

بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها . ولهذا أحس بالحاجة إلى دين يولف بين هذه الجاعات المتباغضة المتعادية ، ويخلق منها أمة قوية سليمة ، دين يسمو بأخلاقهم عما ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ، ولكنه قائم على أوامر منزلة لاينازع فيها إنسان ، ولعل هذه الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس ، فنحن نسمع عن قيام عدد من « المتنبئين » في بلاد العرب في بداية القرن السابع ، ولقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التي يؤمن بها اليهود ، وكان هؤلاء أيضاً ينتظرون بفارغ الصبر مجيء رسول من عند الله ه

وكانت فى البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنفية أبت أن تقر بالألوهية لآصنام الكعبة وقامت تنادى بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضن (*).

وكان محمد ، كما كان كل داع ناجح فى دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم .

وكان كلما قرب من سن الأربعين از داد انهماكا في شئون الدين ، فإذا حل شهر رمضان (منه من سن الأشهر الحرم – آوى وحده أو جمع أسرته في بعض الأحيان إلى غار في جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، وقضى فيه عدة أيام وليالى في الصوم ، والتفكير ، والصلاة . وبيها هو في ذلك الكهف بمفر ده في ليلة من ليالى عام ٢١٠ م ، إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذي يدور

^(*) يريد بهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جعش ، وعبّان بن الحوبرت ، وزيد ابن عمر بن نقيل ، وكافوا قد أيقنوا أن ما هم عليه من الوثنية ليس بشيء فتفرقوا في البلاد يلتمسون الحنفية دين إبراهيم عليه السلام . (ي)

^(**) اللى فى سيرة أبن هشام (ج١ ص ١٥٣) أنه كان « يجاور فى حراء من كل سنة شهرا « دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان فى السنة التى بعث فيها صلى الله عليه وسلم . (ى)

عليه تاريخ الإسلام كله . ويقول محمد بن إسحق اشهر من كتب سيرة النبي إنه هو نفسه قد وصف هذا الحادث الجليل بقوله و فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : أقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قال فقلت : ما أقرأ ؟ فغتني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : أقرأ ، قال فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . ، فقال : و اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فقرأتها ثم انهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتب في قلبي كتابا ؛ قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السهاء يقول : و يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت قلميه أفق السهاء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفت أنظر إليه فنا أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهني عنه في آفاق السهاء قال فلا أنظر إليه فنا أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهني عنه في آفاق السهاء قال فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أماي قال فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أماي قال فلا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي (**) .

ولما عاد إلى خديجة حدثها بما رأى ، وتقول الرواية إنها آمنت بأن ما رآه وحي صادق من السهاء ، وشجعته على أن يعلن للناس,رسالته .

وتكرر الوحى بعد ذلك مرات كثيرة ، وكثيراً ماكان يحدث فى أثناء هذه الرومى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه ، ويتصبب العرق من جبينه ، وحتى الجمل الذى كان يركبه كان يتأثر ويضطرب فى مشيه . وقد قال محمد فيابعد إن مشيبه كان من أثر هذه التجارب ، ولما طلب إليه أن يصف كيفية نزول الوحى قال : إن القرآن كله محفوظ فى السهاء وأنه نزل عليه متقطعاً ، وكان ينزل عليه

⁽ه) راجع ابن هشام (ج ۱ ص ۱۵۳ وما بعدها) حيث يروى الحادث كله . (المترجم)

على لسان جريل ، و إلى سئل كيف يتذكر هذه الأقوال القدسية قال : إن جريل كان يطلب إليه أن يكررها كلمة كلمة (*). ولم يكن المحيطون بالنبى في هذه الأوقات يرون جبريل أو يسمعونه . وقد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد كان يصحبه في بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس ، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات ، ولكننا لا نسمع أنه عنس في خلالها لسانه أو حدث ارتجاء في عضلاته كما يحدث عادة في نوبات الصرع . وليس في تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدى إليها الصرع عادة ، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة في الجسم والروح والزعامة ، كما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر . وقصارى القول أنا لا نجد دليلا قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع . ومهما يكن دلك الدليل فإنه لا يقنع أي مسلم متمسك بدينه (***) .

وأخذ محمد فى خلال السنوات الأربع التالية يجهر شيئاً نشيئاً بأنه نبى الله

^(*) فى صحيحى البخارى و مسلم ذكر لبدء الوحى إلى الرسول و بيان لكيفيته ، و يروى ابن عباس أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ليتابع جبريل فأنزل الله تعالى قوله « لا تحرك به لسائك لتعجل به ، إن علينا جمه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ، ثم إن علينا بيانه » ، فكان الرسول بعد ذلك إذا أتاه جبريل بالوحى استمع له فإذا انتهى جبريل قرأه صلى الله عليه و سلم كما قرأه جبريل .

راجع التحديد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح الزبيدى ، طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٢٥ ه ، ج١ ص ٤ – ٢ ، والمؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الكبرى بمصر سنة ١٩٤٩ م ، الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي طبع دار إحياء الكتب العربية للحلبي بمصر سنة ١٩٤٩ م ، ح ٠٠ ص ٣٠ – ٣٠ .

^(* *) لقد أصاب المؤلف إذ فند قول من يدعون أن النهى كان يصاب بنوبة من نوبات الصرع حين ينزل عليه الوحى ، وإنما الأمر أنه كان يكون فى حالة إجهاد عقلى وجسمى ، والله تعالى يقول فى سورة الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . (ى)

المبعوث لهداية العزب إلى حياة أخلاقية جديدة وإلى دين التوحيد . وقد لاقى في سبيل دعوته صعاباً كثيرة . ذلك أن الأفكار الجديدة لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلا ، وأن محمداً كان يعبش في مجتمع تجاري متشكك يحصل على جزء من إيراده من الحجاج الذين يفدون على الكعبة لعبادة آلمتها الكثيرة ، وكان مما تغلب به على بعض هذه الصعاب ما وُعيد به المؤمنون من النجاة في الدار الآخرة من نار جهنم والاستمتاع بنعم الجنة . وكان محمد يستقبل في داره كل من أراد الاستماع إليه ، غنياً كان أو فقرا أو عبدا رقيقاً ، من العرب والمسيحيين واليهود ، وقد تأثر بحاسته وبلاغة قوله عدد قليل ثمن جاءوا إليه وآمنوا به ، وكان أول من آمن برسالته زوجته المسنة السيدة محديجة وآمن بها من بعدها ابن عمه على ، ثم خادمه زيد وكان قد اشتر اه بالمال ثم أعتقه من فوره ، ثم قريبه أبو بكر وهو رجل من ذوى المكانة العالية في قريش . واعتنق الدين الحديد بتأثر أبي بكر خمسة من زعماء مكة (*)، كونوا معه (صحابة) محمدالستة . وهم الذين أخدت عنهم فيما بعد السنن الإسلامية ذات المكانة السامية فىالدين الإسلامي . وكثيراً ما كان محمد يدخل الكعبة ، ويتحدث إلى الحجاج ، ويدعوهم لعبادة إله واحد (*) . وسخرت قريش أول الأمر من دعوته ولكنها صبرت عليها ، وقالت إن بعقله خبالا وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طبيب يرجى أن يشفيه من جنونه، فلما أن أخذ بهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التي يقومون بها في الكعبة ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبوا للدفاع عُن َ

^(*) هؤلاء هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أب وقاص ، وطلحة بن عبيد الله (سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٥). أما أسحابالرسول الذين أخلت عنهم سهنته فليسوا هؤلاء الخبسة مع أبي بكر فقط بل هم كثرة كما هو معروف . (ى)

⁽ج) كان الرسول يتعرض الوافدين إلى مكة الحج من قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام . (ى)

مورد رزفهم (*) ، وكادوا يوقعون به أذى جسيا لولا أن حماه منهم عمه أبوطالب . ولم يعتنق أبوطالب الدين الجديد ، ولكن إخلاصه لتقاليد العرب القديمة كانت تحتم عليه أن يحمى كل فرد من أفراد قبيلته .

وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصهاء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه ، أما من أمنوا به من العبيد فقد كان فى وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلا بردهم عن الدين الجديد دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها .

فزجوا بعضهم فى السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوالا إلى وهج الشمس وهم عراة الرءوس. ومنعوا عنهم الماء (الله على أبوبكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة ؛ فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق ٥٠٠٠ منها فى تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين ، ويستر محمد الأمر بقوله إن المرتدالمكره لاعقاب عليه (الم وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية . وظلت تضطهد من دخل فى الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة خداً لم يسمع النبى معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، حيث رحب بهم ملكها المسيحى وأكرم وفادتهم (٢١٥) .

وحدثت بعد عام من ذلك الوقت حادثة كان لها من الشأن في تاريخ

^(*) كانوا يدنمون عن مورد رزقهم وعن دينهم . وقد قال من ذهب منهم إلى عمله أبي طالب : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آ لهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباطا فإما أن تكفه عنا أو أن تخل بيننا وبينه « سيرة بن هشام جزءا : ١٧٠ . (ى)

^(**) يقول ابن إسحق في سيرته « وثبت كل قبيـــلة على من فيها من المسلمين فجملوا يحبسونهم ويعذبون بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشـــتد الحر من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم (ج 1 ص ٢٠٢)

^(﴿) عَسِلا بقوله تمالى فى سورة النحل الآية ١٠٦ ﴿ إِلَّا مِنْ أَكُرُهُ وَقَلْبُهُ مَطْمَئْنُ بالإيمانُ » .

الإسلام ما كان لإيمان بولس فى تاريخ المسيحية . تلك هى اعتناق عمر بن الحطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألد أعدائه وأشدهم عنفاً فى مناهضته . وكان عمر رجلا قوى الجسم ، ذا مكانة اجتماعية عالية ، وشجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظير . وبعث إسلامه الثقة فى قلوب المؤمنين المضطهدين ، وهى ثقة ما كان أحوجهم إليها فى ذلك الوقت كما كان سبباً فى دخول كثيرين من العرب فى الدين الجديد . وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة فى الشوارع والطرقات بعد أن كانوا من قبل لا يعبدون الله إلا سراً فى بيوتهم . واجتمع المدافعون عن المة الكعبة وأقسموا أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بنى هاشم يرون واجباً ، عليهم أن يدافعوا عن محمد . ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شعب منعزل فى مكة يستطيع أبو ظالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥) . وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥) . وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة أن يدفع عنهم وتعهدوا ألا يمسوهم بسوء .

وابتهجت لهذا القلة المسلمة في مكة ، واكن ثلاثة خطوب ألمت بمحمد في عام ٦١٩ ، فقد توفيت في ذلك العام السيدة خديجه أوفي الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته ، وتوفى أبو طالب الذي كان ينصره ويدافع عنه . وأحس محمد أنه لا يأمن على نفسه في مكة ، وآلمه بطء انتشار الدعوة فيها ، فهاجر إلى الطائف (٢٢٠) ، وهي بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلا إلى جهة الشرق . ولكن الطائف لم تقبله ، لأن زعماءها لم يروا من مصلحهم أن يغضبوا أشراف مكة التجار ، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأيخدوا بهزءون بمحمد في الشوارع ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى سال الدم من ساقيه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج أرملة تدعي سودة (**) ، ثم خطب وهو في سن الحمسين عائشة بنت أبي بكر وكانت

 ^(*) هي سودة پنت زمعة بن قيس بن عبد شمس

وقتئذ فتاة حسناء في السابعة من العمر (*) .

ولم ينقطع عنه الوجى فى هذه الأثناء ، وخيل إليه فى ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس ، حيث رأى فى انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البُرَاق ، وهو جواد مجنح فطار به إلى السهاء ، ثم عاد به منها ، ثم وجد النبى نفسه بمعجزة أخرى آمنا فى فراشه بمكة . وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمن (الله) :

وفى عام ١٢٠ أخذ محمد يبث الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجوا إلى الكعبة ، وقبل بعض التجار دعوته ، لأن عقائد التوحيد ، والرسول المبعوث من عند الله ، ويوم الحساب كانت مألوفة عندهم ، انتقلت إليهم من يهود المدينة . ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلدهم أخذ بعضهم يدعون أصدقاءهم إلى الدين الجديد ، ورحب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم . وفي عام ٢٢٢ أقبل على محمد في مكة سرا ثلاثة وسبعون رجلا من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلدهم واتخاذها موطنا له . فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم ، فأقسموا أن يفعلوا ، ولكنهم سألوه عما يجزون بة إذا قتلوا في أثناء دفاعهم عنه ، فأجابهم بأن جزاءهم هو الجنة ؟

وفى ذلك الوقت أصبح أبوسفيان حفيد أمية زعيم قريش فى مكة ، وكان قد نشأ فى جومن الكراهية لبنى هاشم ، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد ، ولعله

⁽ه) تزوج الرسول عائشة رضى الله عنّها بمكة وهى بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين أو عشر ، وفي البخارى أنه تزوجها وهى بنت ست ثم بنى بها وهى بنت تسع . (ى)

^(**) عنى المسلمون بمسألة الإسراء والمعراج فنهم من يقول إن الإسراء كان بجسله وروحه ومهم من يقول إن ذلك كان رؤيا حق ومن هؤلاء عائشة أم المؤمنين. ومعاوية بن أي سفيان . راجع سيرة ابن هشام . (ى)

قد سمع أن النبي يعترم الهجرة من مكة ، وخشى أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة ، وعهدت قريش بتحريضه إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد ، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه ، وعلم محمد بالحبر ففر هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة ، وظل رسل قريش يبحثون عهما ثلاثة أيام ولكنهم حجزوا عن العثور عليهما . وجاء أبناء أبى بكر لها بجملين (*) فركباهما في أثناء الليل واتجها بهما شمالا ، وبعد أن ظلا سائرين عدة أيام قطعا فيها نحو مائتي ميل وصلا أخيرا إلى المدينة في ٢٤ سبتمبر من عام ٢٦٢ : وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائلون من مكة ، ووقفوا عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الحليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الحليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية التي حدثت فيها تلك الهجرة ، وكان هو في ذلك العام يوم ١٦ يولية من سنة ٢٢٢ ، البداية الرحمية للتاريخ الإسلامي به

^(﴿) فى حديث الهجرة لا نرى ذكرا صريحا لأبناء أبى بكر يقدمون للرسول وصاحبه راحلتين ليركباهما فى هجرتهما ، وإنما نرى أبا بكر نفسه يشترى راحلتين ويمدهما لذلك اليوم ، ثم نرى أساء بنت أبى بكر تقدم لها طعاما فى جراب تربطه بقطمة من نطاقها ، ولذلك سميت بذات النطاقين ، ونرى عبد الله بن أبى بكر فى قريش بالنهار يسمع ما يقولون فى شأن الرسول وصاحبه ثم يأتيما فى المساء ليخبرهما الحبر . (ى)

الفصل كشاكث

محمد فى المدينة

744 - 744

تقع يثرب ، التى هميت فيا بعد « مدينة النبى » على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى . وكانت إذا قورنت من حيث جوها بمكة بدت كأنها جنة عدن ، وكان بها مئات من الحدائق وغياض النخل ، والضياع . ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة في أثر طائفة وألحت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها ؛ وأمسك بعضها بزمام ناقته لتمنعه عن مواصلة السير وأصرت على ذلك إصراراً تمليه عليها تقاليدها العربية ، وكان جوابه غاية في حسن السياسة فكان يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلا إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذي يسير الناقة وبهديها إلى حيث تقف . وبني محمد في المكان الذي وقفت فيه ناقته مسجداً وبيتين متجاورين أحدهما السودة والآخر لعائشة ، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات .

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلات القرابة، فلما جاء إلى المدينة اعتزم أن يستبدل بصلات الدم صلات الأخوة الدينية فى الدولة الجديدة ، كما أرادأن يقضى على أسباب الغير ة بين المهاجرين الذين جاءوا من مكة والأنصار الدين أسلموامن أهل المدينة وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدت فى ذلك الوقت فاتخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى ، وطلب إلى كلتيما أن تصلى فى المسجد مع أختها. وفى أول احتفال أقيم فى المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال « الله أكبر » وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم ، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره

سجد لله ثلاث مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سمى الدين الجديد بالإسلام أى « الاستسلام » و « السلم» ، وسمى أتباعه بالمسلمين . ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر ، ولا يزال المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنة فى الصلاة سواء كانوا فى مسجد ، أو ضاربين فى الصحراء ، أو فى يلد غريب لا مسجد فيه . وتنهى (*) الصلاة بخطبة كانت فى زمن النبى يلد غريب لا مسجد فيه . وتنهى (*) الصلاة بخطبة كانت فى زمن النبى خبراً عن وحى وتوجها لأعمال الأسبوع وسياسته . ذلك أن النبى كان ينشى خبراً عن وحى والعجمة ما الأسبوع وسياسته . ذلك أن النبى كان ينشى من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعى ، والأخلاق ، والعلاقات من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعى ، والأخلاق ، والعلاقات السياسية بين القبائل ، ولشئون الحرب ، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشئون الدينية والدنيوية ، بل اجتمعت هذه الشئون كلها فى يد الزعيم الدينى كما كانت الحال عند الهود .

فكان محمد فى المدينة الرسول الدينى والحاكم السياسى جميعاً ، ولم ترض أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره ، وترى أن محمداً كاد يقضى على تقاليد العرب وحريتهم ، وأنه كان يزج بهم فى الحروب ، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بديبهم ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش فى مكة .

وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة ، وقد جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحم . هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثر بومن يتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربقهم يتعاقلون بينهم وهم يقدرون عانهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوساعدة ، وبنو الحارث ، وبنوجشم ،

^(*) الصحيح أن الحطبة تكون قبل الصلاة أيام الجميع وبعدها أيام العيدين ، وفي غير الجميع والعيدين لا خطبة قبل الصلاة ولا بعدها . (ى)

وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوث ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن ذمة الله واحدة ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليهم وأنفسهم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (*) ،

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود في المدينة وما حولها : قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع .

وهاجرت إلى المدينة ماثنا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكنى أهلها من الطعام وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد ومن فلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينسة ، متبعاً فى ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية فى ذلك الوقت (المجانية على كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم ، واحتفظ بالحمس الباقى للأعمال الدينية والحيرية ، وكان نصيب من استشهد فى هذه الغزوات من حتى أرملته ، أما هو فكان جزاؤه الجنة . وكثرت الغزوات ، وتضاعف عدد المشتركين فيها ، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم ، فأخلووا يدبرن أمر الانتقام من محمد والمسلمين : وكان من هذه الغارات واحدة حدثت فى آخر يوم من شهر رجب أحد

^() هذا عهد له أثره الكبير ومظهره العظيم ، ولم يعقده الرسول مع الهود فحسب بل هو كما يذكر ابن إمحق كتاب كتبه الرسول بين المهاجرين والأفصار وفيه وادع الهود وعاهدهم وأقرهم على ذمتهم وأموالهم وقد ذكره ابن هشام في سيرته على طوله . (ي) (**) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارة بالمدينة عملا يراد به الدفاع عن الإسلام وأسترداد لبعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها . (ي)

الأشهر الحرم التي كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال ، وقتل فيها رحل ، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء ، وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم . وفي عام ٢٧٣ جمع محمد نفسه ثلمائة من المسلمين المسلمين ، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة ، وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة مهذه الحطة ، فغير طريقه ، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة ، وبعثت قريش بتسعائة من رجالها ، والتي الحيشان الصغيران عند وادى بدر على بعد عشرين ميلا جنوبي المدينة . ولو أن محمداً هزم في هذه المغزوة لقضى عليه وعلى الإسلام في هذه المعركة ، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام ، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٢٢٤) ، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس المصلهان في مكة ، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ، ونجا أبو سفيان ، وأنذر المسلمين بالانتقام .

ولما عاد إلى مكة أخذ يواسى أسر القتلى ويشجعهم ، ويطلب عدم البكاء عليهم ورثائهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ، ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد .

واشتد ساعد محمد مهذا النصر، وجرى العرب بعده على الأساليب المالوفة فى الحروب. من ذلك أن شاعرة تدعى عصاءهاجته فى شعرها فتسلل عمر، وهو مسلم ضرير إلى بيتها وطعنها وهى نائمة بسيفه فى صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذالسيف من تحتها إلى فراشها . وفى اليوم التالى سأل محمد عمر آهل قتل عصاء فأجابه ، يا رسول الله إنى قد قتلتها ، فقال «نصرت الله ورسوله ياعمر» ؛ فقال عمر : «هل على شىء من شأنها يارسول الله؟» فأجابه بقوله إن هذا أمر ولا ينتطح فيه عنزان » . ومنها أن رجلا ممن اعتنقوا الدين البودى يدعى أبا عفاك يناهز من العمر مائة عام هجا النبي فقتله بعضهم وهو نائم فى فناء بيته ، وارتد شاعر ثالث

من ألهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف ، وكانت أمه يهودية ، حين انقلب محمد على البهود ، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثأروا لهزيمتهم ، وأثار غضب المسلمين بتشبيبه بنسائهم ، فقال النبي « من لى بابن الأشرف ؟ » فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملتى أمام قدميه . وكان المسلمون يرون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هي إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الحونة ، فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام (*) .

ولم يطلحب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية ، والذى بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخلوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس، وقوله إنه هو الذى بشربه آباؤهم، وكانجوابه أن قال، كما أوحى إليه ، إنهم حرفوا كتابهم ، وقتلوا أنبياءهم ، وأبوا أن يصدقوا المسيح . وكان قد اتحذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة ، فاستبدل به فى عام ٢٧٤ مكة والكعبة ، وأبهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان (١٤١٠) . وحدث فى هذا الوقت أن زارت فتاة مسلمة سوق بنى قينقاع اليهودى فى المدينة ، وبينا هى جالسة

^(*) هي عصاء بنت مروان وقاتلها عمير بن على الخطمي . ولكل حادثة من الحوادث السالغة الذكر ظروف وأسباب تبررها بلا ريب ؛ فهذه عصاء بنت مروان كانت تعيب الإسلام وأهله وتحرض على المسلمين وتؤذيهم أذى شديداً فكان قتلها جزاء ما جنت حقاً واجباً حتمته الفرورة حتى قيل فى شأنها بعد أن قتلت « من يومئد عز الإسلام وأهله بالمدينة » .

وكعب بن الأشرف لم يكن مسلماً ثم ارتد كما يقول المؤلف ، ولو كان كذلك لكان قبله فرضاً من هذه الناحية ، لأن المرتد يجب قتله إن لم يتب ويرجع عن الكفر ؛ لكنه كان كما أشار المؤلف عدوا لله ولرسوله والمؤمنين ، إذ كان يحرض المشركين على المسلمين ، ويشبب بنسائهم حتى أذاهم أذى شديداً ، وهو مع هذا كان ذا جاه ومسموع الكلمة في قومه ، فكان لحلنا عدواً يخشى عدوانه من وجوه مختلفة ، ولهذا كان قتله أمراً مشروعاً وواجباً دفاعاً عن المدين وأهله ، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وخاصة وقد لتى المسلمون أذى كثيراً من غدر الهود بالمدينة مقر الإسلام حيثته ، والعدو الداخلي في مثل هذه الظروف أشد ضرراً من العدو المحارب كما هو حروف . (ي)

^(**) وفي ذلك فزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى الساء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطره » سورة البقرة (الآية ١٤٤)

فى حانوت صائغ إذ شبك بهودى حبيث قيصها من وراء ظهرها فى أعلى ثيابها ، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكت مما لحقها من عار فقتل أحد المسلمين البهودى الآثم ، وقتل أخوه البهودى المسلم ، فجمع محمد أتباعه وحاصر بهود بنى قينقاع فى حبهم خسة عشر يوما ، حتى استسلموا ، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وكان عددهم فى ذلك الوقت نحو سبعائة .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبي سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملا قبل أن يقدم على قتال محمد . وفى أو اثل عام ٦٧٥ سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة ، وصحب الجيش خسة عشر من النساء بينهن زوجات أبى سفيان ليرن حاسة الجند بأغانيهن الحزينة ودعوتهن إياهم إلى الانتقام » .

ولم یکن جیش المسلمین پزید علی ألف ، و هزم المسلمون فی هذه الغزوة ، وحارب فیها محمد بشجاعة عظیمة ، وأصیب بعدة جروح و حمل من المیدان . و قتل فی المعرکة حزة عم النبی و مضغت کبده هندا شهر زوجات أنی سفیان ، و کان آبوها ، و عمها ، و أخوها قد قتلوا جمیعافی غزوة بدر ، و کان حزة نفسه هوالذی قتل أباها ، ثم لم تکتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده و أظافره خلاخیل و أساور . وظن أبو سفیان أن محمداً قد مات ، و عاد منتصراً إلی مکة (*) . و بعد ستة أشهر من هذه الواقعة شنی النبی و استطاع أن بهاجم بنی النضیر ، لأنهم أعانوا قریشا علی هذه الواقعة شنی النبی و استطاع أن بهاجم بنی النضیر ، لأنهم أعانوا قریشا علی

^(*) الذي تذكره كتب السيرة وأن قريشاً خرجوا معهم بالظعن (أي نسائهم) التماساً للحفيظة وألا يقروا α (ابن هشام ج ۲ ص ۱۲۷) ثم ذكر ابن هشام بعد هذا بعض من خرجن من الناس فلم يصل بهن إلى عشر ومن بينهن زوجة أبي سقيان لا زوجاته وهي هند بنت. عتبة، كذلك يقول ابن هشام إن الرسول "بياً القتال في سبعائة رجل فقط (ابن هشام ج ۲ ص ۱۲۹) ث (ي)

المسلمين وكانوا يأتمرون به ليقتلوه : وبعد أن حاصرهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير . واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية ، فكان بعضها له ، ووزع ما بني منها على المهاجرين (*) . لقد كان محمد يرى أنه في حرب مع أهل مكة ، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجاعات المعادية له عن جناحيه .

وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام ٢٧٦ بجيش يبلغ ١٠٠٠ رجل يساعدهم يهود بني قريظة مساعدة جدية . ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة في الميدان ، ففضل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها . وحاصرتها قريش عشرين يوما ، حتى فت في عضدهم المطر والعواصف ، فعادوا إلى أوطانهم ، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بني قريظة ، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت .

وكان النبي في ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد ، فقد جهز في العشر السنين التي قضاها في المدينة خسآ وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها ، ولكنه كان إلى هذا سياسيا محنكا ، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم ، وكان يشارك المهاجرين في الحنين إلى بيوتهم وأسرهم في مكة ، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً في الحنين إلى زيارة الكعبة ، التي كانت في صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم .

⁽ه) هاجم الرسول بنى النفير ولما يمض على يوم أحد أكثر من خسة أشهر الأن يوم أحد كان فى منتصف شوال سنة ثلاث من الهجرة وأمر بنى النفير كان فى ربيع الأول سنة أدبع . وقد أذن لهم النبى أن يأخلوا معهم من أموالهم ما استطاعت الإبل أن تحمله ، إلا السلاح كا يذكر ابن هشام .

وأما تقسيم انق، فقد اثبع فيه النبى قول الله عز وجل : ` « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله والمرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيلكى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ويقول ابن هشام (ح ٢ ص ١٧٨) عن أموال بنى النضير إن الرسول قسمها على المهاجر بن الأولين دون الأنصار إلا رجلين من هؤلاء ذكرا فقرا فأعطاهما أيضا . (ى)

وفى عام ١٦٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح ، ويتعهد لمم يسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدى شعائر الحيج فى موسمه . وأجاب زعماء قريش بأنهم يشرطون لقبول هذا العرض أن يمضى قبله عام كامل من السلم ، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه (*) ، ووقع الطرفان شروط هدنة تدوم عشر سنين ، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر فى مساكنهم الواقعة فى الشهال الشرق من المدينة على مسيرة ستة أيام منها ، ودافع اليهود من أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع ، وسقط منهم فى أثناء ذلك ثلاثة وتسعون رجلا ، ثم سلم الباقون آخر الأمر ، وسمح لمم بالبقاء فى أماكنهم يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم المستقبلة إلى الفائحين : ولم يمس أحد من الباقين بسنوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عمه فقد قطع رأساهما لأنهما أخفيا بعض ما يمتلكان ، وضمت طفية وهي فتاة يهودية فى السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوية لكنانة (**) ، إلى نساء الذى .

^(*) وقد عبر حمر بن الحطاب عن هذه الدهشة إذ أتى وسول الله فقال له : يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال ؛ أو ليسوا الله ألست برسول الله ؟ قال ؛ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال ؛ فعلام نعلى الدنية فى ديننا ؟ قال ؛ أنا عبد الله و رسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى . وحقاً لم يضيع الله رسوله فقد أمنت الدعوة الإسلامية وأخذت رسل الرسول تذهب بها آمنة للملوك ررؤساء العشائر ، ثم كان بعد ذلك الفتح المبين بعد قليل من الزمان .

⁽ه.) كان سبب سير الرسول إلى غيهر أن أهلها كانوا شديدى العداوة المسلمين يتربصون يهم الدو اثر فكان من الحزم إبعادهم . وكان أمر النبى بقتل كنانة بن الربيع بسبب أنه كان عنده مال لبنى النفسير وجعده حين سئل عنه ، والمسلمون فى أشد الحاجة إلى المال للاستعداد للحرب ، ثم إن الرسول دفعه إلى محمد بن مسلمة ففسرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة أى أنه قتله قصاصا بأخيه ، وهذا سبب آخر يجعل قتله أمراً مشروعاً . راجع ابن هشام ج ٢ س ٢٤ .

أما مسألة استيلاء المسلمين على نصف محصولات أهل خيبر المستقبلة فترجع إلى أنهم هم أنفسهم طلبوا إلى الرسول أن يعطيهم الأرض مزارعة على النصف مما تنتجه فصالحهم الرسول على ذلك لأثبنم كما قالوا هم أنفسهم أغلم بها وأعمر لها . (ى)

وفى عام ٢٧٩ دخل مسلمو المدينة ، البالغ عددهم ألفين ، مكة مسالمين ، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين ، وطافئ محمد وأتباعه فى أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات . ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال ، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون في لا إله إلا الله ، وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم ، وتقواهم أعظم الأثر فى نفوس أهل مكة ، فأسلم من قريش عدد من ذوى المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذين صارا فيا بعد من أعظم قواد المسلمين . وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبئ أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه فى القتال ؛ ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة .

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان ، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة (٦٣٠) (١٥٠ عفره فجمع النبي عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة ، وأدرك أبو سيفان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة ، وكان جواب محمد جوابا كريما ، فقد أعلن عفوا عاما عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائة ، وحطم الأصنام التي كانت في داخل الكعبة وحولها ، ولكنة ترك الحجر الأسود في مكانه وأجاز تقبيله . ونادى بمكة مدينة الإسلام المقلسة ، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر ، وامتنعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة ، وأصبح الرجل المضطهد الذي هاجر من مكة منذ ثمان سنين صاحب الكلمة العليا في حياتها .

^(*) نقضت قريش الهدنة إذ ساعدت [بالسلاح بنى بكر – وكانوا قد دخلوا في عهد قريش حل بنى خزاعة الذين دخلوا في عهد الرسول . بل إن نفرا من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة في صفوف بنى بكر ، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد ، فكان لا بد من الاستعداد للمسير إلى مكة لفتحها . (ى)

الفيلالابع

انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته في المدينة ، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها ، بعد فتن قليلة الشأن ، إلى سلطانه و دخلت في دين الإسلام . وجاء إلى المدينة كعب بن زهير ، أعظم شعراء العرب في ذلك الوقت ، وكان قد هجا النبي بعض قصائده ، وأسلم نفسه إليه ، واعتنق الإسلام ، فعفا عنه النبي ، وأنشأ الشاعر قصيدة عصهاء في مديح النبي أجازه عليها ببردته (*) ، وعاهد النبي المسيحيين في بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميم وأن يكونوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هيئة ، ولكنه نهاهم عن الربا ، ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم ، وملك الفرس وإلى أمر الحيرة وبني غسان ، يدعوهم إلى المدين الجديد ، ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله (**) ، وكان يشهد بعن المستسلم الفيلسوف الحروب منهم لم يرد على رسائله (**) ، وكان يشهد بعن المستسلم الفيلسوف الحروب المشعلة نارها بين فارس وبنزنطية وما جرته على الدولتين من خواب ، الكن يبدو أنه لم يفكر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب (+) ،

^(﴿) وبيعت بعدئد لمعاوية بأربعين ألف درهم ، ولا يزال الأتراك يحتفظون بها إلى اليوم وتشخذ في بعض الأحيان علما قومياً . (ى)

⁽ه ه) من هؤلاء من رد رداً قبيحاً مثل كسرى ، ومنهم من رد رداً جميلا مثل قيصر ، ومنهم من وعد بالنظر فى الأمر مثل « المقوقس » حاكم مصر والمنذر صاحب البحرين وجبلة ابن الأيهم النسانى . راجع سيرة ابن هشام ج ۲ س ۳۲۰ . (ى)

⁽⁺⁾ لعل المؤلف يريد بقوله إن النبى لم يفكر فى توسيع حدود الدولة الجديدة خارج حدود الدولة الجديدة خارج حدود بلاد العرب أنه لم يكن يريد ضمها إلى الدولة الناشئة الجديدة وهذا لا ينفى أنه أراد أن يدعو أهلها إلى الدخول فى دين الإسلام . (المترجم)

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله ، فقد كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة في شون التشريع والقضاء ، والتنظيم المدنى ، والدينى ، والحزبى . وحتى التقريم نفسه قد عنى بتنظيمه لأتباعه ، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثنى عشر شهراً قريا ، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكى تتفق مع السنة الشمسية . فأمر النبى أن تكون السنة الإسلامية اثنى عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون على التوالى ، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيا بعد غير متفقة مع فصول السنة ، وأن تقدم التقويم الإسلامي منة كاملة عن التقويم الجريجورى كل اثنتين وثلاثين سنة .

ولم يكنالني مشرعا علميا ، فلم يضع لأمته كتابا فى القانون أو موجزاً فيه ، ولم يسرف تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسباتمليه عليه الظروف . فإذا أدى هذا إلى شى من التناقض أزاله بوحى جديدينسخ القديم و يجعله كأن لم يكن (*) ، وحى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض فى بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله . وكان اضطراره إلى تكييف هذه الموسيلة السامية بحيث تتفقم الشئون الدنيوية مما أفقد أسلو به بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعاته بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعاته

^(*) من الصحيح أن الرسول لم يضع كتابا في القانون ، ولكن ليس صحيحا أنه لم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، فإن القرآن بنصوصه وروحه العامة قد حدد أصول التشريع بصفة عامة ، ثم كان الرسول بسنته مبينا لحسفا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولحملا يقول الله تعالى في سورة النحل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين الناس ما نزل إليم » . أما النسخ فسبه أن التشريمات الواردة في القرآن الكريم لم تنزل من الله دفعة واحدة ، بل كانت رخة من الله تنزل متدرجة تبعاً للحالات ، فيكون من الطبيعي أن يحصل فيها نسخ . على أن هذا كان في حالات قليلة معدودة . (ي) .

تصطبغ بالصبغة الدينية الرهبية (*) . ومع اضطلاع النبي بهذه الشئون كلها فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف يأن ثمة أمورا لا يعرفها ، ويحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان يجرى عليه ما يجرى على الناس جيعاً من موت ووقوع في الحطأ .

ولم يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجز ات ، لكنه مع هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحى في الأغراض البشرية والشخصية ، كما حدث حين إنزل الوحى مويداً زواجه من زوجة زيد متبناه (**) . وتزوح النبي بعشر نساء وكانت له اثنتان من السرارى هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين ، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين في العصر القديم وفي بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات ، في نظر هولاء الساميين ، ضرورة حيوية تكاد تكون واجبا أخلاقيا ، وكان تعدد الزوجات ، في نظر عدد الزوجات ، في نظر النبي أمراً عادياً مسلماً به لاغبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغى به إشباع الشهوة الجنسية ، ويروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك في صحته يقول فيه و حبب إلى من من عن عائشة حديث عن النبي مشكوك في صحته يقول فيه و حبب إلى من

^(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل من أن المؤلف وأشاله من غير المسلمين يرون أن القرآن من قول النبى لا من عند الله . أما وهو من عند الله حقاً فإن النبى لم يُفهَمَّ بثى، من فاحية القرآن وأسلوبه ، ولكن الأسلوب يختلف بلا شك في مواضع عنه في أخرى تبماً المغاية التي يريدها الله ، وإن كان جميعه في أعلى درجات البلاغة التي لا يمكن أن يتطلع أحد إلى مداناتها . (ى)

^(**) إن لتشريح تعدد الزيرجات غاية أخرى حكيمة ترجم إلى أن يكون المرء بمنجاة من الاتصال بخليلات غير قليلات بجانب الزوجة الشرعية . ولقد تبين لبعض النربيين اليوم أن إباحة تمدد الزوجات هو العلاج الوحيد لمشكلة زيادة النساء على الرجال زيادة كبرى بسبب الحروب ، فقد طالب أهل مدينة « بون » عاصمة ألمانيا الفربية أن يتضمن دستورهم تشريعاً يبيح هذا التعدد .

أما الزوجات اللاتى عقد عليهن النبئ فكن ثلاث عشرة وقد دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل باثنتين . وقد عنى رجال السيرة بمذكر سبب زواج كل واحدة منهن وبذكر شيء من سيرتهن جيماً رضوان الله عليهن . راجع سيرة ابن هشام ج ۲ س ٣٦٦ – ٣٦٨ . (ى)

دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة المرافق ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه، وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم. وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد، وهو أمل حرم منه زمناً طويلا. وكانت زوجاته كلهن ما عدا خديجة عقيات، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه، ولم يبتي من أبنائه الذين رزقهم من خديجة إلا فاطمة. وقد رزق من مارية القبطية التي أهداها إليه نجاشي الحبشة، بولد اغتبط النبي بمولده أشد الاغتباط، ولكن إبراهيم مات بعد خسة عشر شهراً من مولده.

وكثيرا ما ضايقه نساؤه بمنازعتهن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ، ولكنه أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة ، ووحدهن بالحنة ، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضى ليلة عند كل واحدة منهن ، ذلك أن سيد بلاد العرب كلها لم يكن يملك بيئاً خاصاً له ، غير أن عائشة قد استأثرت بأكبر من حقها من عنايته (***)، فغضبت لذلك زوجاته الأخريات حتى نزلت الآية : « ترجى من تشاء منهن وتوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله علما حلما » .

وكانت حياة النبي فيها عدا النساء والسلطان غاية في البساطة ، فقد كانت

^(*) تكلم في شأن هـذا كثير من رجال الحديث . « راجع كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشهر من الأحاديث على ألسنة الناس » للمحدث إسماعيل بن مجمد العجلوني .

(**) لقد كان الرسول يمدل بين زوجاته جيعاً فيما يملك ، أما ميل القلب فشيء لا يملكه ومن المعروف أن النبي صلى القاعليه وسلم كان يفضل السيدة عائشة عن سائر تسائه ما عدا السيدة خديجة . (ي)

المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على النتي عشرة أو أربع عشرة قدما ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد النخل ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجال . أما الفراش للم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة ، وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض الدار ، ويحلب عنزة البيت في فنائه ، ويبتاع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده ، ويلعق أصابعه بعد كل وجبة ، وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأجيان :

ولم يتعاط الخمرالتي حرمها هو على غيره ، وكان لطيفاً مع العظاء ، بشوشاً فى أوجه الضعفاء ، عظيما مهيباً أمام المتعاظمين المتكبرين ، متسامحاً مع أعوانه ، يشترك في تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ، ولا يطلب إلى عبد أن بقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنانه من القيام به لنفسه . ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من النيء وغيره من الموارد، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل . وكان يخص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال ، لكنه كان ككل الناس يعني بمظهره الشخصي ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ، ويصبغ شعره ، ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله » ، وربما كان الغرض من هذا الحاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطيق الروائح الكربهة ، ولا صلصلة الأجراس ، أو الأصوات العالية « واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إنْ أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ . وكان قلقاً عصبي المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ىنقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ؛ وكان حلو الفكاهة فقد (a - - - - -)

قال مرة لأبي هريرة ، وكان يتردد عليه كثيراً : «يا أبا هريرة زرخباً تزدد حباً » . وكان محاربا صارما لا يرحم عدواً (**) ، وقاضيا عادلا في وسعه أن يقسو ويغلر ، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد . وقد قضى على كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد ، أو رابط بعير الميت عند قبره . وكان أصدقاؤة يحبونه حبا يقرب من العبادة ، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره يعد قصه ، أو الماء الذي يغسل به يديه ، لاعتقادهم أن في هذه الفضلات شفاء لمم من ضعفهم أو مرضهم ،

وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب (بهرت ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والحمسين من عمره ، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم فى اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة . وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته فى ظلام الليل ، ويزور القبور ، ويطلب المغفرة للأموات (†) ، ويدعو الله لم جهرة ، ويهنئهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والسنين من عمره اشتدت عليه هذه الحميات ، وحدث فى إحدى الليلى أن شكت عائشة الصداع ، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها ألا تفضل أن تموت يعود من دفها سيأتى بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة يعود من دفها سيأتى بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت ، وقبل وفاته بئلاثة أيام نهض من فراشه ،

⁽ع) كان النبى رحيماً بالناس جميماً كما يقول المؤلف ، هذا ولم يكن الرسول شخصي أعداء بل كان هؤلاء أعداء الله وأعداء دينه الذى ارتضاه الناس جميماً وعملوا ما فى وسعه لإطفاء ثور الله ، فلا جرم أن تكون من الرسول شدة على بعضهم حين يتبين له أنهم مصروا على عدوانهم .

^(**) لعله يريد وأجبأت ألحب للمسلمين والحرب للدفاع عنه . (ي)

^(†) يشير المؤلف إلى قول الرسول فى أوائل مرضه الذى توفى نيه « إتى قد أمره أن أستغفر لأهل هذا البقيع (مدافن أهل المدينة) ثم ذهب فعلا واستغفر لهم . (راجع سير ابن هشام ج ۲ ص ۲۲۲) . (ى)

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يوم المسلمين للصلاة بدله ، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته ، وفى اليوم السابع من شهر يونيه عام ٦٣٧ توفى ورأسه على صدر عائشة :

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من آثر فى الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظاء التاريخ ، فقد أخد على نفسه أن يرفع المستوى الزوحى والأخلاق لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجلب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يعلم به . وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكنى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب فى أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى عاوفهم وآمالهم ، وخاطهم على قدر عقولهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأاللموة وكانت عند وفاته أمة موحدة متاسكة : وقد كيح جماح التعصب والحرافات ، وكانت عند وفاته أمة موحدة متاسكة : وقد كيح جماح التعصب والحرافات ، قويا ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع فى جيل واحد قويا ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع فى جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن ينشئ دولة عظيمة ، وأن

البابالتايع

القرآن

الفصل لأول

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحين ، من أجزاء جع بعضها إلى بعض . ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة في أنه كله نطق به رجل واحد ، ومن أجل هذا فهو بلا ريب لا يعادله في آثاره أى كتاب آخر جاء به رجل واحد . وقد أملي الذي في أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الأخيرة من حياته ما كان يوحي إليه من آياته (**) ، وكان كل ما يوحي به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود ، أو سعف النخل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعي في ذلك ترتب زمني أو منطقي ، ولم تجمع هذه الآيات السابقة دون أن يراعي في ذلك ترتب زمني أو منطقي ، ولم تجمع هذه الآيات كلها في كتاب واحد في حياة الذي ، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخفهم أمر الحليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحي أن يبحث عن يخلفهم أمر الحليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحي أن يبحث عن الميات وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما ثم له ذلك نسخت منه عدة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما ثم له ذلك نسخت منه عدة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما ثم له ذلك نسخت منه عدة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما ثم له ذلك نسخت منه عدة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما ثم له ذلك نسخت منه عدة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما ثم له ذلك نسخت منه عدة الميلورة ، فلما أمر المناسف النخل ، والواح المجارة المياسة عن المياسة و ا

^(*) القرآن كله من عند الله وقد جاء على لسان رجل واحد .

صور . ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء في تفسير بعضها واختلفت نصوصها في مدن العالم الإسلامي الآخذ في الانساع ، فرأى الخليفة عثمان أن يقضى على هذا الاختلاف ، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قريش أن يراجعوا مخطوط زيد (٢٥١) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة ، وظل القرآن من هذا الموقت محفوظاً نقياً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل .

ومن شأن الظروف التى أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدى إلى غرض واضح مفهوم — فهى إما أن تقرر عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانونا ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلى عمل ، أو تروى قصة ، أو تدعو إلى قتال ، أو تعلن نصرا ، أو تصوغ عهدا ، أو تطلب مالا ، أو تنظم شعرة دينية ، أو تنص

^(*) لم تختلف نصوص القرآن مطلقاً ولكن حصل فى قراءته بعض الاختلاف لأسباب لها الخلو من النقط والشكل المعتاد فى كتابتنا فى هذه الأيام . أما مسألة جمع القرآن فتحتاج إلى شيء من التفصيل الدقيق ، ذلك بأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات ، أولاها ما سنذكره بعد فى كتاب واحد ، والثانية كانت بعد فى تعليقنا على قول المؤلف إن محمداً لم يكن يريد جمعه فى كتاب واحد ، والثانية كانت أيام أبى بكر الصديق بعد أن أشار به عمر بن الحطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه عاكان مكتوباً فيه حتى جمع كله فى صحف حفظته كاملا ، ولا نعرف أنه كتب منه عدة نسخ كما يقول لملؤلف ، والثالثة كانت فى أيام عثمان بن عفان وفيها رتبت سوره بعضها فى إثر بعض على حسب ما عرفوه من قبل عن الرسول .

وفى هذه المرة التى كانت فى أيام عنان كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سوره أربعة : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد قال الخليفة لمؤلاء القرشيين ألثلاثة : « إذ اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شى، من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما فزل بلسانهم » ـ راجع الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الذين السيوطى ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٨ هج ١ ص ٦١ . (ى)

على مبدإ أخلاق ، أو تضع نظاماً للتجارة ، أو الصناعة ، أو عمل من الأعمال المالية (*) .

ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها في كتاب واحد ، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه في وقت بعينه (علم) ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله . وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وهي مرتبة حسب طولها ، لا بحسب تزولها فإن ذلك غير معروف ، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهي بالقصار ، وإذ كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طوالها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب(†) . فالسور المدنية وهي التي يبدأ مها الكتاب

⁽ه) بحث كثيرون من المفسرين مسألة مناسبة الآيات والسور وارتباطها بعضها ببعض ، ومن العلماء من أفرد ذلك بالتأليف مثل برهان الدين البقاعي في كتاب سماه « نظم الدرو في تناسب الآيات والسور » إلا أن كثيراً من المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط في حسن يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقم في أمر متحد مرتبط أوله باتحره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أتحفه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بضعه ببعض » (الإتقان السيوطي حس ١٠٨) :

ونقول نحن إن ورود القرآن على ما هو عليه من الاستطراد أحياناً في موضوعات مختلفة قد لا يكون بين بعضها والبعض الآخر رباط وثيق ، مما يجمل القارئ يقبل على تلاوته دائماً بشوق وشغف ولا يحس من ذلك أقل ملل أوعدم السجام ، فهو يتنقل معه في فنون مختلفة من العلوم والمعارف التي لا يكاد يحصرها العد . (ى)

⁽ه. القرآن كلام الله نزل على نبيه . ومن الحق أنه لم يجمع كله في مصحف واحد أيام الرسول ، لسبب طبيعي هو أنه كان يتوقع دائماً أن ينزل منه شيء جديد ، إلا أنه قد كتب كله في عهده صلى الله عليه وسلم وبأمره وإن لم يجمع في كتاب واحد ولم ترتب سوره . فلما انقضى عهد نزول القرآن بوفاة الرسول جاء حيث كتابته في مصحف واحد وهو ما فعله الصحابة رضوان الله عليم . (ى)

^(†) ترتيب السور فيما بينها وكذلك ترتيب آيات كل سورة أخذ عن الرسول ففسه -

عملية فى أغراضها عادية فى أسلوبها ، أما السور المكية فهى شعرية روحية وبها ينتهى الكتاب . وخليق بنا أن نبدأ بقراء له من نهايته (*) .

وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبي أو أتباعه أو أعدائه ؛ وتلك هي الطريقة التي سار عليها أنبياء بني إسرائيل ؛ وهي التي نراها في كثير من فقرات أسفار موسى الحمسة . وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون أخلاق يمكن أن يقع في النفوس وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله . وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحاسى الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان في

على أن مسألة تاريخ نزول القرآن ، سوره وآياته ، مسألة على بها العلماء المحققون ، وقد وصلوا من أبحاثهم إلى نتائج لها قيمتها الكبيرة ، وإن لم يتفقوا جميماً في هذا على رأى واحد . (راجع مثلا «الإتقان » للسيوطى ج ؛ ص » وما بعدها و «مقدمتين في عسلوم القرآن » نشرها المستشرق آرثر جفرى وطبعا في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سسنة ؟ ١٩٥٩ م ص ٨ وما بعدها .

^(*) لا يمكن الحكم على أسلوب القرآن بقراءة ترجمته ، ولحدًا لا يمكن القول إن أسلوب السور المدنية التي يبدأ بها المصحف أسلوب سهل أو إنه خليق بنا أن نيداً بقراءته من شايته . وأصدق من هذا قول المؤلف في موضع آخر إن لغة القرآن هي اللغة العربية الفصحي وإنه غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لاتوائم ذوق الغربيين . وهذا ما يستطاع تبينه من التراجم نفسها فضلا عن لغة القرآن الأصلية .

إن القرآن معجز بأسلوبه وبكل كلمة منه ، ولوكان أسلوب بعض سوره سهلا لما عجز العرب في عهد الرسول وهم أساطين الكلام والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله أو بعض آيات منه . إن القرآن بلغته وتعابيره وأسلوبه معجز كل الإعجاز وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف المقامات والأحوال ، وإن كان ذلك كله في أعلى طبقة من البلاغة تنقطع الرقاب دون الإتيان بين ، وكني أنه تنزيل من رب العالمين . (ي)

بعض الأحيان عن أقوال النبي أشعيا . وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافى خاصة منتظمة ؛ وفى السور المكية الأولى نغات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوى لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية اللين يعطفون على الدين الإسلامى . ولغة القرآن هى اللنة العربية الفصحى يعطفون على الدين الإسلامى . ولغة القرآن هى اللنة العربية الفصحى الحالصة ، وهو غنى بالتشبهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الحلابة التي لا توائم ذوق الغربيين . وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب ، في الأدب النثرى العربي .

الفيرل لثاني

العقائد(*)

من بين الأغراض التي يهدف لها الدين أن يكون سبيلا إلى الحكم الأخلاق ، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذاك حق أو باطل ، وأنى له العلم المحيط بكل شيء والذي يوصله إلى هذه المعرفة ؟ وإنما الذي يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التي أدت إلى قيام هذا الدين ، وإلى أي حد أفلح في تحويل الوحوش إلى آدميين ، والهمج إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة ، وعقول مطمئنة هادئة ، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية ، وما هو أثره في التاريخ ؟

وترى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاق مسيطر على شئونه – أى الإيمان بأنه مهما يكن فى هذا الكون من شر ، فإن عقلا خيراً ، يعجز الناس عن إدراك كنه ، يسيّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة . والأديان الثلاثة التى أعانت على تكوين عقلية الناس فى العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هى الله الواحد فو الجلال . غير أن المسيحية قد أضاقت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر فى ثلاثة أقانيم مختلفة ، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس الا شركا مقنعاً ، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حاسة . وفى القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هى السورة الثانية عشرة بعد المائة .

⁽ ه) سنذكر في هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية لنوضح بها بعض آيات القرآن . ولن يفوتنا أن نشير في المتن أحياناً ، وفي الهامش على الدوام ، أنهما أحاديث وليست آيات قرآنية . (المؤلف)

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مئذنة كل يوم ، فالله هو أصل الحياة ومنشؤها ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض . « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (سورة الحج الآية ٥) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقضباً وزيتوناً ونخلا ، وحداثق غلبا ، وفاكهة وأبا » (سورة عبس الآيات ٢٤ — ٣٠) انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (سورة الأنعام الآية ٩٩) . . .

والله أيضاً إله القوة « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترومها . . . « وهو الذي مد وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . . . « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات » (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة) . ويقول في آية الكرسي الشهيرة « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذة سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (سورة البقرة الآية ٢٥٥) .

والله مع سلطانه وعدله رحيم أبدا ، فكل سورة من سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ومع أن النبي لا يفتأ يذكر الناس بأهوال النار .، فإنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية .

والله كما يصفه القرآن يحيط علما بكل شيء ، « يعلم خائنة الأعين وما تخنى الصدور » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، وتحن أقرب إليه من حبل الوريد » (سورة ق ١٦)).

والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضي ، وإذن فكل الأشياء سابقة في

علمه ، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله ، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر . فالله يعلم منذ الأزل منذا الذي ينجو من العذاب وهو الذي « يضل من يشاء و مسدى من يشاء ، (سورة فاطر ٨) « يدخل من يشاء في رحمته والظالمن أعد لم عذابا ألها » (سورة الإنسان ٣١) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين ﴿ إِنَا جَعَلْنَا فِي قَلُوبِهُمْ أَكُنَّةُ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا » (سورة الكهف ٥٧) ، وما من شك في أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان غير أنه مع ذلك قول عنيف في أى دين ، ولكن محمداً يؤكده بنفس القرة التي يؤكد بها القديس أوغسطين أمثاله . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حتى القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (سورة السجدة ١٣) . وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة في التفكير الإسلامي (*)، وقد استعان بها النبي وغيره من الزعماء لبث الشجاعة فى قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حدر . وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجنان ثابت ، ولكنها أيضًا كانت من الأسباب التي عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم في القرون المتأخرة .

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان. فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يحصون أعمال البشرالطيب منها والحبيث. والجان مخلوقون من النار، ويختلفون عن الملائكة في أنهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويموتون، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

^(*) إن المسلمين مع إيمانهم بقضاء الله وقدره يعتقلون أن الله شاءت عدالته أن يكون للإنسان من الحرية في أعماله ما يجعله عدلا مسئولا عنها ، وليست الحبريه مذهب أهل السنة والحاجة ولكنها فئة معروفة من الفرق الإسلامية . (ى)

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم فى تضليل الناس وغوايتهم . وزعيم الجن الأشرار إبليس ، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لآدم فطرده الله من رحمته .

والمحور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن ، كما هي الحال فى كتاب العهد القديم ، هو خوف العقاب ورجاء الثواب فى الحياة الآخرة ، ﴿ اعلموا أنما الحياة الذنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال . والأولاد ٥ (سورة الحديد٢٠) وليس فها محقق إلا شيء واحــد هو الموت . وكان بعض العرب يعتقلون أن كل شيء ينتهي عند الموت ، ويسخرون من عقيلة الدار الآخرة ، ويقولون « إن ْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (سورة المؤمنون ٨٣) ، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة ٣ ــ ٤ م ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة ، بل إن الموتى سينامون إلى يوم القيامة ، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور . وعلم يوم القيامة عند الله وحده ، ولكنه تسبقه علامات تنيُّ به ، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس ، وفسدت أخلاقهم ، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العزان ، وتمنى العقلاء الموت . وستكون آخر الندر ثلاث نفخات في الضور ، فني النفخة الأولى تكسف الشمس ، وتهوى النجوم ، وتزول السموات ، وتدك الجباك والمبانى فلا ترى فها عوجا ولا أمتا ، وتجف مياه البحر أو تتطاير لهبا(سورةطه ١٠٢ وما بعدها) . وفي النفخة الثانية تهلك الحلائق جميعها ـــ الملائكة والجن والبشر ــ إلا من رحم الله ، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الأجسام من القبور وتتصل بالأرواح ، ويتجلى الله لعباده تحف يه الملائكة يحملون الكتب إلى دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالم وأفكار هم (*) ،

 ^(*) المعروف فيها يختص بالنفخ في الصور أنهما ففختان لا ثلاث نفخات ، وبعد النفخة الأولى يبلك كل الحلائق إلا من شاء اند وهم كما يقول الغزالى في إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٧ =

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه . ويتقدم . الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ، ويشفعون لمن آمنوا بهم . ويسمر الأخيار والأشرار جميعاً على الصراط ــ وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف ـــ المعلق فوق الجحيم . فيسقط منه الأشرار والكفرة ، ويجتازه المصلحون آمنين إلى الجنة ، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله(*). ذلك أن القرآن كبعض العقائله المسيحية يعني على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعني بالسلوك الطيب ، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعداب النار في الآخرة (آل عمران الآيات ١ و ٦٣ و ١٣١ وسورة النساء ٥٦ و ١١٥ والأعراف والأنفال ٥٠ والتوبة ٦٣ الخ) . وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات فى كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذي ارتكبه المذنب ، ففيها الحرارة التي تشوى الوجوه ، وفيها الزمهرير ، وحتى من يستحقون آخف العقاب يلبسون أحذية من نار ، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة ٤٠ وما بعدها ، ، وربما كان دانتي قد أبصر بعض الروَّى التي وصفها في ملهاته في القرآن .

وتختلف صورة الجنة فىالقرآن عن صورتها فى ملهاة دانتى فهى فى القرآن و اضحة وضوح صورة النار. والجنة هى مقر المؤمنين الصالحين واللين يموتون فى سبيل الله،

من طبعة المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٥٦ هـ جبريل وميكائيل وإسر الحيل و ملك الموت الذين يموتون أيضاً بعد حين . ثم يحيى الله إسر الحيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية التي بها يقوم الموق المحشر و الحساب . راجع قوله تعالى في سورة الزمر الآية ٦٨ « ونفخ في الصور فصعتى من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » راجع أيضاً كتاب المؤلق و المرجان فيا اتفتى عليه الشيخان ج ٣ ص ٤١٧ باب ما بين النفختين .

^(*) يشترط أن يكون العمل الصالح الذي يثاب عليه الإنسان في الدار الآخرة قائماً على أساس الإيمان الصحيح . (ي)

والفقراء يلخلونها قبل الأغنياء . ومقر الجنة في السماء السابعة الفلكية أو مَا يَعَدُهَا ، وَهِي حَدَيْقَةً وَاسْعَةً الْأَكْنَافُ تَجِرَى مِنْ تَحْبَّهَا الْأَنْهَارُ وَتَطْلَلُهَا الأشجار الضليلة ، ويلبس فها الصالحون ثياباً من سندس وإسترق ، ويحلون بالجواهر ، ويتكثون على الأراثك ، ويطوف علمهم ولدان مخلدون ، ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطئ أغصانها لهم ليملئوا من ثمارها أيديهم . فها أنهار من لنن ، وعسل ، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة في الدنيا) في أكواب وأباريق وكأس من معن لايصدعون عَبْهَا وَلَا يُنزَفُونَ 1 لَا يُسْمَعُونَ فَمَهَا لَغُوا ۖ وَلَا كَذَابًا ﴾ (سورة النبأ ٣٥) ، ه فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . . . كأنهن الياقوت والمرجان » « وكواعب أترابا » . « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ، أجسامهن من المسك مرأة من نقائص الأجسام البشرية و آثامها . وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولتك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات (*) ، ولن تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن ، ولا من نعيم رفاقهن (سورة الله خان) وفى الجنة غير هذه المتعة الجسمية مُنتَع أخرى روحيه فمن المؤمنين من يتلون القرآن ، وسيتجل لهم الله جميعاً بوجهه « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » . ترى منذا الذي يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم .

^(﴿) لَمَا الْكَاتَبُ قَدْ جَاءُ بَعَدُدُ الْحُورُ فِي الْجَنَةُ مِنْ أَقُوالُ بَمْضُ الْمُؤْلَفِينَ الْأَقَدَمِينَ . وَمَنَ الآراء التي لها قيمتها في هذا المُمِنَى أنه يجب ألا تؤخذ هذه الأوصاف بمناها الحرفي بل يجب أن تَأْحَدُها هِلَ أَنْهَا تَقْرِيبُ للأَدْهَاتُ مَا يَسْتَمَتِعُ بِهِ السَّالَحُونُ فِي الْجُنَةُ مِي تُعْمِ رُوحِي . (المَتْرَجَمُ)

ال**فصِل ثالِث** القرآن والأخسلاق

القانون والأخلاق في القرآن ، كما هما في التلمود ، شيء واحد ، فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوى ، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله . والقرآن يشملي قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان ، والتجارة ، والسياسة ، والربا ، والدّين ، والعقود ، والوصايا ، وشئون الصناعة والمال ، والجريمة ، والعقاب ، والحرب والسلم .

ولم يكن محمد يحتقر التجارة ، فقد كان هو نفسه في صباه تاجراً ، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً ، ويوبح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة ، وكان في بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه ، ولغة القرآن غنية بالتشبهات التجارية ، ففيه وحد بالثراء في الدنيا للمسلمين الصالحين ، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار . وفي الأحاديث النبوية تنديد بالحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأغلى الأسعار ، وحض على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدى للعامل أجره قبل أن يحف عرقه . ويحرم القرآن الربا أخذا أو إعطاء (سورة البقرة ٢٧٥ يحف مورة آل عمران ١٣٠) ، ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليم محمد لإعانة الفقراء . وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الحير (سورة وانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئه . وانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئه .

كذلك رفع من: مقام المرأة في بلاد العرب ، وإن لم ير عيباً في خضوعها للرجل ، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ، ويكاد يصف. النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التي أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم (**) . وهو يُحرِم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لهن أن يحضرن الصلاة في المساجد ، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن ، وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتين معهن بأطفالهن . وقد روى عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل في أثناء الصّلاة قصر خطبته حتى لا يؤذي بطولها أمه . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء ٣١) وسوى بن الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث ،. وتتصرف في مالها كما تشاء (سورة النساء ٤ و ٣٢) ، وقضي على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع . وجعل نصيب الأنثى في المبراث نصف نصيب الذكر ، ومنع زواجهن بغير إرادتهن ، وفي القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهي « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (سورة الأحزاب ٣٣) ، ولكن الآية إنما تؤكد النهى عن التبرج ، ويروى أن النبي أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن . أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه

^(*) ليست اللكورة أو الأنوثة سبباً للخول الجنة والنار ، إنما يرجع ذلك إلى الإيمان والعمل السالح أو الكفر والعمل السيئ . والله يثيب بالجنة من عمل صالحا رجلا كان أو امرة وهذا أيضاً شأن العقاب في الدار الآخرة . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا السالحات كانت لم جنات الفردوس نزلا » ، فلم يفرق سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة ، ومثل هذا كثير جداً في آيات أخرى . ويقول جل شأنه في سورة آل همران : « فاستجاب لم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيل، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن. عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده. حسن الثواب » .

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب . وفيا عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات فى أيام النبى وفى القرن الأولُ بعد الهجرة (*) .

وبعد فإن المناخ من العوامل التي توثر في الأخلاق الفردية ، ولعل حرارة الجو في بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية والنضج المبكر ، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيا نراه من نزعات الرجال في هذه الناحية في البلاد التي يطول فيها فصل الحر – ولقد كانت الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل الزواج (المرائع الإسلامية بين الأزواج . ولهذا الزواج (المستعنان المستعنان الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور ٣٣) وأوصى النبي بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف . ويشترط الدين الإسلامي رضاء الحطيبين لإتمام عقد الزواج . فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى العربس مهر عروسه ، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضى بذلك

 ^(*) ملبس المرأة ، وزينتها ، ونظرها إلى الرجل ، ونظر الرجل إليها ، كل هذا نوع
 من الحجاب نزلت نيه آيات غير قليلة في سورة النور وسورة الأحزاب .

والحطاب فى الآيتين اللتين أشار إليهما المؤلف لنساء النبى ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون أيضاً حضاً لنساء المسلمين جميعاً . وقد ورد فى كتاب (أحكام القرآن المطبوع بالمطبعة الهمية المصرية سنة ١٣٤٧ ه ج ٣ ص ٥٥٥) . « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً فى النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه فالمعنى عام فيه وفي غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والاقتداء به إلا فيما خصه الله به دون أمته » راجع فى هذا أيضاً أحكام القرآن لابن العربى ج ٢ ص ١٦٦ وتاريخ التشريع المشيخ الخشرى ص ٨٨ – ٨٩ . (ى)

⁽هه) وحتمه بعد الزواج بطبيعة الحال ، وقوله تعالى « وليستعفف اللمين لايجدون نكاحا حتى ينتيج م الله من فضله » معناه إن على الذين لايجدون الوسيلة المالية الزواج أن يصبروا حتى ييرزقهم الله الغنى والقدرة على الزواج . (ى)

ولعل المؤلف يشير بقوله إن الشريعة الإسلامية تزيد الفرص لإشباع الفريزة الحنسية بين الأزواج إلى إباحة الزواج بغير واحدة ، ولكن لحله الإباحة أسباباً كثيرة ذكرها المؤلف منفسه في غير هذا الموضع . (المترجم) (١ - ج ٢ - بجلد)

آباء (**) العروسين أو لم يرضوا . وقد أجيز للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة . وعدم الزواج في الإسلام ، كما هو في الدين اليهودي ، إثم ، والزواج فيه فريضة محببة إلى الله (سورة النور ٣٢) . وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالبة بين الذكور والنساء على السواء ، ولطول فترة النفاس ، وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب ، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزدن على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد . وحرم الإسلام التسرى (سورة المعارج ١٩ و ٣١) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقزة البقزة ٢٣١) (***)

وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فحكنه بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الحنسيه إشباعا حلالا حرم الزنى أشد التحريم ، فجعل عقوية الزانى والزانية مائة جلدة (سورة النور(†)) لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

⁽ه) يشترط الأحناف إجازة الولى فى حال تزويج الصنير و الصنيرة وإن كانا عاقلين. والشانعي يحتم وجود الولى فى حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذى يقوم بعقد. الزواج (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٣٣ و ٢٤١) .

والزواج لابد فيه من مهر لايشترط أداؤه فعلا ليتم عقد الزواج ، والزوجين أنْ يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متمارف (راجع بدائع الصنائع ح ٢ ص ٢٧٧ ... (٧٧٨) . (ى)

^(**) ليس الإمتناع عن الزواج إثماً في كل حال بل الممروف فقهاً أن الزواج يكون واجباً إذا تاق الرجل إلى الاتصال بالمرأة ، وفرضاً إن تيقن أنه يقع في الزني إن لم يتزوج ، وكان مع هذا مالكا للمهر والنفقة وإلا فلا إثم عليه بترك الزواج . ويكون الزواج مكروها إن خاف ألا يعدل مع الزوجة إن تزوج كما يكون حراماً إن تيقن أنه سيجور ولا يعدل. (راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨) . (ى)،

^(†) عقوبة الزانى هى الجلد كما يقول الكاتب إن كان غير متزوج ، وإلا .كانت. المقوبة هى الرجم . (ى)

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود . ونهى القرآن فضلا عن هذا عن رمى . المحصنات فقال « والدين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم . ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » (سورة النور ٤) وقد قل الاتهام . بالزنى بعد نزول هذه الآية .

وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود. وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة ٢٢٩) ؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحا له في أيام الجاهاية (**) ، فإن النبي لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن « أبغض الحلال إلى الله الطلاق ». هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين « وإن خفتم شقاق بيهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بيهما » (سورة النساء ه ") . ولا يصبح الطلاق تهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل (**) ولكي يرغم الزوج على أن يطيل التفكير في إيمان الطلاق قبل صدورها ، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلقته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طلقت منه . ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته في الحيض وليس ذلك لأنها « نجسة » في ذلك الرقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها ذلك الرقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها . والنساه حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن بنجب أبناء ، وينبغي للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه علها في الذكاء ، ومن ثم أن تكون وينبغي للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه علها في الذكاء ، ومن ثم أن تكون وينبغي للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه علها في الذكاء ، ومن ثم أن تكون

⁽ ه) الصحيح فى هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين . بالمعروف فإن العشرة إن ساءت وأصبح من الحير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل . (ى)

⁽ه.ه) الطلاق ايكون بهائياً ولوكان مرة واحدة ، والقضت عدة المرأة ، ويكون أيضاً بهائياً بعد الطلقة الثالثة كذلك إلا أنه في هذه إلحال لا يكون الزوج أن يرد إليه مطلقته ثلاثاء إلا بعقد جديد بعد أن تكون قد تزوجت بآخر ودخل بها وانقضت عدبها . (ى)

له عليها القوامة وحتى الطاعة ، فإذا عصته كان له أن يهجرها ويضربها (سورة النساء ٣٤) والمرأة التي تتوفى وزوجها راض عنها تدخل. الحنة (*) ،

^(*) دخول الجنة مشروطبفضل الله تعالى ، والعمل الصالح ، وقيام المرء بما عليه من حقوق نه ولبنى الإنسان ، ومن هؤلاء بلا ريب حتى الزوج على زوجته ، وليس معنى هذا أن الزوجة التى تتوفى وزوجها راض عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات أخرى . (ى)

^(**) يقول جل جلاله في سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أو لادهن حولين كاملين سئن أراد أن يتم الرضاعة » : ويقول في سورة الأحقاف : « ووسينا الإنسان بوالديه إحسانا حلته أمه كرها يوضعته كرها ، وحله وقساله ثلاثون شهراً » ، والفصال هنا معناه الرضاع .. (ى)

الفصل أابع

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان ، أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً ، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التي يشير عليها بالتعاون الكامل . والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كل كل كل – أى بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أى الله سبحانه وتعالى . وفي هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً ، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر ، وهي لا تنمى التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة ، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية .

وقد تخطت القوانين الأخلاقية التي جاء الإسلام بها حدود القبيلة التي ولمد النبي بين ظهرانيها ، ولكنهااقتصرت على الجهاعة الدينية التي أنشأها . فلم تم له النصر في مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل، وإن لم يكن في مقدوره (**) أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً ؛ وأشعر بلاد العرب كلها ، أي أنه أشعر بلاد الإسلام كلها في ذلك الوقت ، منى جديداً للوحدة ، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرقته من قبل و إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات للتعاون والله العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق ، وفي

^(*) لقد أحصى التاريخ كل غزوة أو سرية كانت فى عهد الرسول وكلها كانت بأمره ورضاه ؟ ولعل الفارات التى يشير إليها الكاتب هى السرايا التى كان برساها الرسول من آن لآخر دفاعاً عن الدعوة وكيان المسلمين . وليس حقاً ما يقوله من أنه لم يكن فى مندوره أن يمنع هذه الفارات منماً باتاً وبخاصة مع ما هو مقرر من حرص المسلمين على تحرى رضاء الرسول اتباعاً لأوامر الله جل شأنه فى القرآن الكرم . (ى)

ذلك يقول النبى : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً ، وهي لعمرى أعظم معجزة للمسيحية والإسلام.

غير أن هذا الحب السامى الذى يدعو إليه الدينان يقابله عداء شديد لغير المؤمنين (**) « يأيها الذين آمنوا لا تتخلوا اليهود والنصارى أولياء » . . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويوتون الزكاة وهم راكعون » سورة المائدة ١٥ و ٥٥ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا آباء كم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (سورة التوبة ٢٣) . لكن القرآن يأمر فى آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال فى الأخد مهده المبادئ فيقول « لا إكراه فى الدين » « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد أمتدوا » (سورة النورة البقرة ١٣٧) » وإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبن » (سورة النحل ٨٢) « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » (سورة هود ٥٧) « فتول عبهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) » وتول عبهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) » أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبي فقد أمر المسلمون بقتالهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش و انسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش و انسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم (سورة التوبة ه) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآنوا الزكاة فمخلوا حيث وجدوهم (سورة التوبة ه) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآنوا الزكاة فمخلوا حيث وجدوهم (سورة التوبة ه) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآنوا الزكاة فمخلوا

^(﴾) لم يكن هذا العداء الشديد إلا للذين يحاربون الإسلام ، وأما أهل اللمة فقد أمر الإسلام بأن يكون لهم ما المسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وحسبنا في الدين الديل على هذا قوله جل شأنه في سورة المعتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . (ى)

سبيلهم إن الله غفور رحيم » - « و إن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »، «فإنتابوا وأقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » (سورة التوبة ٥ و ٢) . ومن وصايا أبي بكر لجيوشه ألا يقتلوا شيخاً عاجزاً عن القتال ، ولا طفلا صغيراً ، ولا امرأة . وكان على كل مسلم سليم الجسم أن يشترك في الجهاد « إن الله يجب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (سورة الصف ٤) . ومن أحاديث النبي والذي نفس محمد بيده لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . و « لمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة » .

لكن هذه المبادئ الأخلاقية الحربية ليست فى واقع الأمر تحريضاً على القتال « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (سورة البقرة ١٩٠). وكان محمد يتبع قوانين الحرب التى كان بتبعها المسيحيون فى أيامه ويشن الحرب على كفار قريش المسيطرين على مكة كما كان إربان الثانى Urban II في ابعد يدعو إلى قتال المسلمين المسيطرين على بيت المقدس .

ويلوح أن الثغرة التي لابد من وجودها بين النظربات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منهافي سائر الأديان . ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب ، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات (١٩٩٠) أما فيا عدا هذا فإن الشريعة الإسلامية شديدة كل الشدة على من لا يتمسك من المسلمين بأصول الدين ، والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه

^(*) رواه أحمد والطبرانى . وعن عمر بن الحصين أن رسول الله صلى إلله عليه وسلم قال : « مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادته ستين سنة » .

^(**) لقد بينا فيما سبق أن تعدد الزوجات إنما يرجع إلى دوافع اجباعية هامة تنبه إليها كثيرون من الغربيين في هذه الأيام ، ونيس سبب هذا التعدد أن العرب أكثر شهوانية من غيرهم من الشموب . (ى)

دين سهل من الوجهة الأخلاقية . كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ بالثأر ، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان (**). فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ١٩٤) « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ٤١) ، تلك أخلاق تليق بالرجال ، شبيهة بما جاء في العهد القديم ، فهي تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة . وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء ، ولم يفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » (سورة آل عمران ٢٠٠) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت الذي نادى بمبادئ نتشه قبل وجود نتشه بزمن طويل .

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة ، وقد كتبوا المصاحف وزينوها وبداوا في سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين إليها بحبهم له ، وهو الكتاب الذي يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القزاءة ، وهو المحور الذي يدور عليه تعليمهم والذروة التي ينتهي بها هذا التعليم . وقد ظل أربعة عشر قرنا من الزمان محفوظاً في ذا كرتهم ، يستثير خيالهم ، ويشكل أخلاقهم ، ويشحذقر انح مثات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث في النفوس

⁽ه) لم يجى "الإسلام ليساير العرب على ماكانوا عليه من عقائد باطلة وتقاليد غير مستحبة بل جاء لينير كل هذا إلى خير ، وقد فعل ذلك حقاً . وقد أمر بالرجة والمففرة ولكن في غير ذلك لأنه دين قوة لا دين ضمف وخنوع . والرسول مواقف تتجلى فيها هذه المنفرة . من ذلك موقفه من قريش بعد فتح مكة التي آذته هو وأصحابه أشد الأذى ، فقد عفا عنهم جميعاً وكان مما قال لم ه اذهبوا فأنم الطلقاء » . ويقول الله جل شأنه في سورة فصلت و لا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا اللي بينك ويينه عداوة كأنه ولي حميم » . . (ى)

الساذجة (**) أسهل العقائد ، وأقلها نحموضاً ، وأبعدها عن التقيد "بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاق والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس وبعهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله . وقد عرق الدين وحدده تحديداً لا يجد المسبحي ولا الهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكن وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموقون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساة والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ، (سورة البقرة الآية ۱۷۷) .

^(﴾) الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال ألعلم والفكر في كل عصر من العصور الماضية وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ، كا آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر ، وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة المراضحة التي يتقبلها الجميع . (ي)

الباب لعاشِر سيف الإسلام ۱۲۵ - ۱۰۵۸

الفصل لأوكئ

77. - 744

مات النبي ولم يعين من يخلفه من بعده ، ولكنه كان اختار أبا بكر (٧٧٣ – ٦٢٤) ليوم المسلمين في مسجد المدينة ، واقتنع المسلمون بعد شيء من الاضطراب والتنافس بأن هذا التفضيل يجعل أبا بكر أحق الناس بأن يختار أول خليفة لهم (**) .

ولم يكن لفظ خليفة فى بادئ الأمر لقباً لأبى بكر ، بل كان مجرد وصف له . وساء ذلك الاختيار علياً ابن عم محمد وزوج ابنته ، وظل ستة أشهر ممتنعاً عن بيعة أبى بكر ، وغضب لذلك أيضاً العباس عم النبى وعلى . ونشأ عن هذا الحلاف الأول أكثر من عشر حروب ، كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة ، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامى .

وكان أبو بكر وقتتذ فى التاسعة والخمسين من عمره ، وكان قصير القامة ، نحيف الحسم ، قوى البنية ، قليل الشعر ، أبيض اللحية حمراء الصبغة ، بسيطاً

^(*) وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة جعلت المسلمين يختارون أبا بكر خليفة لهم منها شدة إيمانه ومناصرته للنبى وقوة أخلاقه والتضحية في سبيل الدين بنفسه وبماله . (المترجم)

في معيشته ، متقشفاً ، رحيا في حزم ، يعنى شخصياً بجميع شئون الإدارة والقضاء جليلها وصغيرها على السواء ، لا مدأ له بال حتى بأخذ العدل مجراه ، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله ، وظل شديد التقشف حتى أقنعه الشعب بأن ينزل قليلا عن تقشفه ، ثم أوصى قبل وفاته بأن يعود إلى بيت مال المسلمين كل ما أرغم على أخذه منه . وحسبت قبائل بلاد العرب أن تواضعه ضعف . وإذا كان بعضها لم يتمكن الإسلام من قلوب أفرادها ، ومهم من اعتنقه كارها ، فقد ارتد هؤلاء عنه ، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التي فرضها عليهم الإسلام . ولما أصر أبو بكر على وجوب أدائها زحفوا على المدينة ، وجمع أبو بكر جيشاً في ليلة واحدة ، وقاده بنفسه في مطلع الفجر ، وبدد به شمل العصاة (٢٣٢) ، ثم أرسل خالد بن الوليد أشهر قواد المسلمين وأشدهم بطشا ، لقتال المرتدين في جزيرة العرب وإرغامهم على أداء الزكاة .

وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التي أدت إلى فتح العرب غربي آسية ، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة . وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة في بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية ، وصدت جيوش الإمبراطورية ، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين ، فأرسل إليها أبو بكر المدد ، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية . وكانت هذه فرصة مواتية لضم شتات العرب وتوحيد صفوفهم في حرب خارجية ، وكان العرب حما نعلم حقوماً ألفوا الحروب ، فلبوا نداء أبي بكر لحوض نمارها وقد بدت في أول الأمر قصيرة الأجل . وسرعان ما أصبح بدو الصحراء المتشككون فيا مضي يضحون بحياتهم " سبيل نصرة الإسلام .

واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب ؛ فن الأسباب الاقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية في القرن السابق لظهور النبي قد أدى

إلى انهيار نظم الرى في جزيرة العرب(١) ، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية ، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار ، ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعى من العوامل التي دفعتجيوش المسلمين إلى الغزو والفتح (٢٦) . يضاف إلى هذا عدة أسباب سياسية : منها أن الإمر اطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتهما الحروب ، وما حل بكلتهما من الدمار على يد الأخرى ، فكان ضعفهما مغرياً للعرب على غزو بلادهما ؛ ولقد كانت الضرائب في ولايات الدولتين تزداد زيادة مطردة ، والأداة الحكومية تزداد عجزاً عن تصريف شئون الحكم وحماية الأهلين ، كذلك كان للصلات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل في هذا التوسع . فقد كان في الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة فى قبولها حكم العرب الغزاة أولا ، ثم اعتناق دينهم بعدئذ . يضاف إلى هذا عوامل دينية : مها أن اضطهاد بيزنطية للبعاقبة والنساطرة وغيرهما من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين ، بل تعداهما إلى بعض الحاميات الإمر اطورية . ولمسا سار الفتح في طريقه زادت الأسبابُ الدينية قوة على قوتها ؛ فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبي المتحمسين ، يصلون لله وهم يحاربون ، ويصلون أكثر مما يحاربون ، وقد بعثوًا فى قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت فى الجهاد يفتح لمم أبواب الجنة . وهناك فوق ذلك عوامل أخلاقية لها أيضاً شأنها في هذه الفتوح: ذلك أن المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهبنة قد أضعفتا في مِلاد الشرق الأدنى ذلك الاستعداد للقتال الذي كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام . ولقد كانت جيوش العرب تحيراً من جيوش الفرس والرؤم تظاماً وأحسن قيادة ، يألفون المشاق وينالون جِزاءهم من النيء ؛ لقد كان في وسعهم أن يجاربوا وبطومهم خاوية ، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم . ولكنهم لم يكونوا في حروبهم همنجاً متوجشين ، انظر إلى ما أوصاهم به أبو بكر: «أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تعثلوا ولا تغدروا ، ولا تعتدروا ، ولا تعتدروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشمرة ؛ ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منه شيئاً فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون قوما قد محضوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . . اندفعوا باسم الله النع الته النع الته النع الله النع النه النه النع النه النع النه النع النعوا باسم الله النع النعوا باسم الله النعوا باسم النه النعوا باسم النعوا بنعوا باسم النعوا باسم بالنعوا باسم باسم باسم بالنعوا باسم باسم بالنعوا باسم بالنعوا باسم باسم باسم باسم باسم

ولم يكن الأعداء يخبرون بين الإسلام والسيف ، بل كان الحيار بين الإسلام والجزية والسيف . وكانت هناك أخيرا أسباب حربية للغزو والفتح : ذلك أنه لما تضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انضم إليها من المجندين كان لا بد من الزحف بهم إلى أرضين جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . ونشأ من تقدمهم قوة هذا التقدم الدافعة ، فكان كل نصر يتطلب نصراً جديدا ، حق أصبحت الفتوح العربية – التي كانت أسرع من الفتوح الرومانية ، وأبتى على الزمان من الفتوح المغولية – أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله ..

وحدث فى أوائل عام ٦٣٣ ، بعد أن بسط خالد بن الوليد « لواء السلم » على جزيرة العرب ، أن دعته إحدى قبائل البدو الضاربة على حدود الجزيرة للانضام إليها فى محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق ، وقبل خالد وخسيائة من رجاله الدعوة لأنهم لم يكونوا يطيقون التعطل أو الركون إلى السلم طويلا ، وانضيم إليهم ألفان وخسيائة من رجال القبائل ، وغزوا أملاك الفرس . ولسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحملة قبل الإقدام عليها أو لم يوافق ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فالظاهر أنه قبل ما أسفرت عنه من نتائج قبول الفلاسفة . واستولى خالد على الحيرة وأصاب فيها من النيء

ونال كل فارس منه ما أنطق أبا بكر بقالته الشهيرة: «يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ »(4) . ولقد أصبحت المرأة وقتئذ ذات شأن كبير فى تفكير المظافرين ومغانمهم . وشاهد ذلك أنه بينها كان العرب يحاصرون حمص أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام ، ولما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تعطى سيدة منها تدعى كرامة إلى جندى عربى قال إن الذي قد وعده بها « فاشتد على أهل بيتها ، وأهل قريبها ما وفعت فيه وأعظموا الخطر فقالت : لا تخطروه ولكن وأهل قريبها ما وفعت فيه وأعظموا الخطر فقالت : لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحق اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحق خالد إليه ، ثم افتدت منه نفسها بألف درهم ، وكانت تسوى أضعاف خالد إليه ، ثم افتدت منه نفسها بألف درهم ، وكانت تسوى أضعاف ذلك (6) .

وقبل أن يستمنع خالد بثار انتصاره في الحيرة بعث إليه الخليفة يأمره بالسير لإنقاذ قوة من العرب يتهددها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق . وكان بين الحيرة ودمشق في ذلك الوقت شقة من الصحراء الجدباء الخالية من موارد الماء يقطعها المسافر في خمسة أيام . فجمع خالد الإبل ، وسقاها الماء بوفرة ؛ وكان الجند في أثناء زحفهم يأخلون الماء من يطون الإبل بعد ذبحها ، ويسقون خيولهم لبنها . ولما أن وصل هو وجنوده إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكر على ضفاف نهر البرموك على بعد ستن ميلا إلى الجنوب الشرق من دمشق كانت تلك المؤن قد نفدت . وهناك كما يقول المؤرخون العرب هزم ٠٠٠،٥٤ (٢٥،٠٠٠ ؟) من العرب العرب ٢٤٠،٠٠٠ ؟) من الروم في إحدى المعارك الفاصلة التي المعرب التاريخ (٢٣٤) . وهكذا قامر الإمبر اطور هرقل ببلاد الشام كلها في التاريخ (٢٣٤) . وهكذا قامر الإمبر اطور هرقل ببلاد قاعدة المعربية الآخذة في الاتساع .

وبينها كان خالد يقود جيوشه إلى النصر في هَذه المعركة ، إذ وصلته رسالة تنبثه بوفاة أنى بكر ويأمره فبها عمر الخليفة الجديد أن يتخلى عن القيادة. لأبي عبيدة . وأخنى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة . وكان عَمْرُ أَبُو حَفْصَةُ ابنَ الْحَطَابِ (٥٨٢ – ٦٤٤) أَكْبَرَ مَعَيْنَ لَأَبِي بَكُرُ وأَعْظُمُ مشيريه ، وكان قد بلغ من الشهرة درجة لم يجد معها أحد سبباً للاعتراض حين اختاره أبو بكر خليفة للمسلمين من بعده . غير أن عمر نفسه كان يختلف عن صديقه أبي بكر كل الآختلاف. كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، حاد الطبع شديد الانفعال ، لا يتفق معه إلا في بساطته وتقشفه ، وفى أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته . وكانت صروف الدهر وتبعات الحكم قد أنضجت عقله فجعلته مزيجاً عجيباً نادراً من حدة الطبع والقدرة على الحكم الهادئ الصادق ؛ ويحكى عنه أنه ضرب بدوياً من غير حق ثم ألح عليه ـ دون جدوى ـ أن يكيل له من الضربات بقدر ما كاله هو اله . وكان شديد التمسك بالدين يطلب إلى كل مسلم ألا يحيد قيد شعرة عن الفضيلة . وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من يُراه من المسلمين خارجاً على أصول الدين (٦٠) . وتقول بعض الروايات إنه ضرب ابنه حتى مات من الضرب لمعاقرته الحمر(٧) . ويقول المؤرخون المسلمون إنه لم يكن له إلا قميص واحد ، وجلباب واحد رقعه عدة مرات ، وإنه كان يعيش على التمر وخيز الشعير ، ولا يشرب غير الماء ، وإنه كان ينام على سرير من جريد النَّخل ، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قميص الشعر ، وإن همه كله كان منصرةً إلى نشر الإسلام بالسلم وبالحرب. ويقال إن أحد ولاة الفرس جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه ، فوجد فاتح الشرق نائمًا ً على عتبة جامع المدينة ؛ ولكننا لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها ،

وكان السبب الذى من أجله عزل عمر خالداً من القيادة أن « سيف الله » كثيراً ما لوث شجاعته بقسوته . ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة

ملوُّها الشهامة ، وما هو أجمل من الشهامة ؛ فقد وضع نفسه تحت تصرف أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط . وأوتم، أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد فى شئون الحرب ، ويعارض قسوته بعد النصر . وكان العرب _ فرساناً مهرة لا يضارعهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم ، ولم يكن في أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم صيحاتهم الحربية العجيبة ، أو حركاتهم العسكرية المحيرة ، أو سرعة كرهم وفرهم ؛ وكانوا يحرصون عن أن يختاروا للنزال الأراضى المستوية التي تواثم حركات الفرسان . واستولى العرب في عام ٦٣٥ على دمشق ،واستولوا على أنطاكية في عام ٦٣٦ ، وعلى بيت المقدس في عام ٦٣٨ ، ولم ينته عام ٦٤٠ حتى كانت بلاد الشام في أيدى المسلمين ، وقبل أن يختم عام ٦٤١ كانوا قد أتموا فتح بلاد الفرس ومصر . ووافق البطريق سفرونيوس Sophronius على تسليم بيت المقدس إذا جاء الخليفة نفسه للتصديق على شروط التسليم ، وقبل عمر هذا الشرط ، وجاء من المدينة في بساطة أفخر من الفخامة ، ومعه عدل من ألحب وكيس من التمر ، ووعاء ماء ، وصحفة من الخشب . وخرج خالد وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله ، فغضب حنن أبصر ثيامهم المهفِهة ، وعدد خيولهم المزركشة ، وألقى بحفنة من الحصباء في وجوههم ولامهم على أنَّهم جاءوا يستقبلونه في ذلك الزي . وقابل سفرونيوس مقابلة ملوُّها اللطف والمجاملة ، ولم يفرض على المغلوبين إلا جزية قليلة ، وأمن المسيحيين على كنائسهم . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه طاف مع البطريق ببيت المقدس ، واختار في العشرة الأيام التي أقامها فيها موضع المسجد الذي سمى فيما بعد باسمه . ولما سمع أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت المقدس عاصمة للدوله الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة .

وما كاد الأمر يستتب للمسلمين في بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا بهاجروون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق ، وكانت هذه الهجرة شبهة. بهجرة القبائل الجرمانية إلى الولايات الرومانية التى غزتها هذه القبائل ، وشملت الهجرة الرجال والنساء . . .

وبفضل هذه الهجرة والتسرى أصبح عدد العرب في بلاد الشام وفارس نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام ١٤٤ . ونهى عمر الفاتحين عن شراء الأرض وفلحها ، وكان يرجو أن يبقوا في خارج جزيرة العرب طبقة عسكرية ، نمدهم الدولة بما يكفيهم ، لكى يحتفظوا بصفاتهم الحربية ، غير أن أوامره في هذا قد أغفلت بعد موته ، بل إنها كاد يقضى عليها سخاوه في أثناء حياته ، ذلك أنه كان يوزع أربعة أخماس النيء على الجيش ، ويخص بيت مال المسلمين بالحمس الباقى ولم تابث أقلية الرجال ذوى العقول الكبيرة أن جمعت معظم الطببات من هذه الثروة العربية الآخدة في النماء ، وأخد أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة في مكة والمدينة ، فكان للزبير بيوت أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة في مكة والمدينة ، فكان للزبير بيوت عبد الرحمن يمتلك ألف بحواد ، وعشرة آلاف عبد ، وأربعائة عبد الرحمن يمتلك ألف بعير ، وعشرة آلاف رأس من الضأن ، وأربعائة الف دينار (١٠٠٠ ١٩٠٥ ر دولار) وكان عمر ينظر بحسرة وأسي إلى هذا الترف الذي أخذ مواطنوه يتردون فيه .

وطعنه مولى فارسى وهو يؤم الصلاة فى المسجد (٢٤٤) ، ولم يستطع عمر وهو على فراش الموت أن يقنع عبد الرحمن بأن يكون خليفة من بعده فعين ستة من زعماء المسلمين ليختاروا من يخلفه ؛ فاختاروا من بينهم عبّان . وكان عبّان بن عفان شيخاً مسناً ، طيب القلب ، حسن النية ،أعاد بناء مسجد المدينة وجمله ، وأعان بماله جيوش المسلمين التي نشرت الإسلام فى هيرات ، وكابل ، وبلخ ، وتفليس ، وفى ربوع آسية الصغرى حتى البحر الأسود ، ولكنه لسوء حظه كان شديد الولاء لأشراف بنى أمية اللدين كانوا فى أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبى ، فأقبل بنو أمية على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة ، ولم يكن فى وسعه أن يقاوم مطالبهم . ولم يلبث أن تولى بعض المناصب الحجزية أكثر من عشرة منهم كانوا يسخرون ولم يلبث أن تولى بعض المناصب الحجزية أكثر من عشرة منهم كانوا يسخرون

من تزمت أتقياء المسلمين وبساطتهم . وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العداء ، المهاجرون القادمون من مكة ضد الانصار أهل المدينة ، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وهي المدن الإسلامية الآخذة في النماء السربع ، وبنو هاشم أهل النبي وعلى رأسهم على ضد بني أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام وابن أبي سفيان ألد أعداء النبي في بداية الدعوة . وفي عام ١٥٤ أخذ رجل مهودي ممن اعتنقوا الإسلام يدعو في البصرة إلى عقيدة ثورية ، مضمونها أن النبي سيبعث حياً على هذه الأرض ، وأن علياً أختى الناس بالحلافة ، وأن عبان لا حتى له فها ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الحارجين على الدين . ولما طرد هذا الداعية من البصرة نزح إلى الكوفة ، فلما أخرج من الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته آذاناً صاغية واعتنقها كثيرون ، وخرج من مصر إلى المدينة خميائة من المسلمين وطلبوا إلى عبان أن يعتزل وخرج من مصر إلى المدينة خميائة من المسلمين وطلبوا إلى عبان أن يعتزل الخلافة ، فلما أبي حاصروا بيته ، ثم اقتحموا عليه حجرته وقتلوه وهو يتلو القرآن (٢٥٦) .

 طلحة والزبير من أصحاب الرسول ، وطالباهما أيضاً بالخلافة . وخرجت . عائشة زوج النبي من المدينة إلى مكة وانضمت إلى الثوار . ولما أعلن مسلمو البصرة انضامهم للثائرين استنجد على بأهل الكوفة المضرسين في القتال ، ووعدهم أن يتخدها عاصمة الدولة إذا هم لبوا نداءه . فأجابوا دعوته والتي الجيشان في جنوبي العراق في واقعة الجمل — وسميت كذلك لأن عائشة كانت تحرض الجند على القتال من هودجها على ظهر الجمل . وهزم طلحة والزبير وقتلا ، وردت عائشة إلى بيتها معززة مكرمة ، ونقل على العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة .

وجهز معاوية في دمشق قوة أخرى لقتال على . وكان معاوية خبراً بشئون الدنيا غير متزمت في الدين ، وكان يرى في الدين بديلا من الشرطة أقل منها نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلا بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة . وكان من الأغراض التي ببتغيها بمحاربة على أن يعيد إلى الأقلية المصطفاة من قريش السلطة والزعامة اللتين كانتا لها قبل أيام النبي . وأعاد على تنظيم قواه والتقت بجيش معاوية عند صفين على نهر الفرات (٢٥٧) . وكاد النصر يتم لعلى لولا أن عرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع وكاد النصر يتم لعلى لولا أن عرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم «كتاب الله» ، ولعله كان يعني بهذا الطلب إجابة اتباع الأوامر الواردة في القرآن (الكريم) . ورضي على " بهذا الطلب إجابة لإلحاح جنوده ، واختير الحكمان وحدد لها ستة أشهر يفصلان خلالها في النزاع ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم .

ولكن بعض رجال على خرجوا عليه فى ذلك الوقت ، وأافوا منهم جيشاً مستقلا وسموا بالحوارج ، وقالوا إن الحليفة يجبأن يخاره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله ؛ وكان بعضهم فوضويين دينيين يرفضون كل حكومة ما عدا حكومة الله (٩) وكانوا كلهم ينددون بما أنغمس فيه حكام الإسلام الجدد من ترف وحب لمتاع الدنيا ، وحاول على أن أن يعيدهم إلى الانضواء تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح ؛ ثم استحالت تقواهم تعصباً ، وعروا عنها بأعال اتسمت بالعنف

والإخلال بالنظام ، فلم يسع علياً إلا أن يعلن عليهم الحرس ، ويشتت شملهم . واتفق الحكمان في الوقت المحدد لها على أن يتنحى على ومعاوية عن الحلافة ، وأعلن ممثل على خلعه ، ولكن عمراً لم يخلع معاوية بل ثبته خليفة للمسلمين . وفي هذا الاضطراب هجم رجل من الحوارج على على بالقرب من الكوفة وطعنه في رأسه بسيف مسموم (771) . وأصبح المكان الذي مات فيه عل مزاراً مقدساً عند طائفة الشيعة التي تقدسه أعظم التقديس ، واتخذت ضريحه مكاناً تحج إليه كما يحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها .

وبايع المسلمون في العراق الحسن بن على بالخلافة ، وزحف معاوية على الكوفة ، فاستسلم له الحسن ، وقرر له معاوية مالا يعيش منه ، وانسحب الحسن إلى مكة ، ومات في الخامسة والأربعين من عمره (١٦٩) ، فمن قائل إن الخليفة دس له السم ، ومن قائل إن زوجة من زوجاته دفعها الغيرة إلى أن تدسه له . وبايع المسلمون جميعاً معاوية على كره منهم ، ولكنه أراد أن يضمن السلامة لنفسه ، ورأى أن المدينة بعيدة عن مركز العالم الإسلامي والسلطة الإسلامية ، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة . وهكذا انتصرت السلطة الإسلامية ، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة . وهكذا انتصرت الدينية ، وهي الحكومة التي كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين ، ملكية دنيوية وراثية ، وحل حكم الساميين في غرب آسية محل حكم الفرس والروم ، وطهرت آسية من تلك السيطرة الأوربية التي ظلت قائمة فيها ألف عام ، وشكلت بلاد الشرق الأدنى ومصر وشهالى أفريقية بالشكل الذي احتفظت به وجوهره ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

الفيرلالثاني

الجلافة الأموية

Vo+ - 771

يجب علينا ألا نظلم معاوية . لقد استحوذ على السلطة فى بادئ الأمر حين عينه عمر الحليفة الفاضل النزيه والياً على الشام ، ثم بتزعمه الثورة التي أوقد نارها مقتل عبان ، ثم بما دبره من الدسائس البارعة التي أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة ، ومن أقواله فى هذا المعنى « لا أضع سيني حيث يكفيني لسانى ، ولو أن بيني حيث يكفيني لسانى ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل : وكيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل : وكيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : وإذا مدوها خليبًا وإن خلوها مددتها هراد .

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرا .حاكمة جديدة .

وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة ، وتشبه في هذا بأباطرة الدولة البيزنطية ، اللاين تشبوا هم أنفسهم بملك ملوك الفرس . وإن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا هذا ليوحي بصلاحيته لحكم الشعوب الحاهلة واستغلالها . وكان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد في أثنائه من الرخاء ، وانقطاع بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد في أثنائه من الرخاء ، وانقطاع النزاع بين القبائل ، وما بلغته الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك . وكان يرى ألا سبيل إلى اتقاء النزاع الذي لابد أن يحدث عند اختيار الحليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب ، وما يؤدى إليه أن يحدث عند اختيار الحليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب ، وما يؤدى إليه

هذا النزاع من اضطراب وفوضى ، إلا إذا استبدل به النظام الوراثى ، فنادى بابنه يزيد وليًّا للعهد ، وأخذ له البيعة من جميع ولايات الدولة العربية ،

ومع هذا فإنه لما مات معاوية (٦٨٠) اشتعلت نار الحرب من أجل وراثة, العرش ، كما اشتعلت في بداية حكمه . فقد أرسل مسلمو الكوفة إلى الحسن بن على يعدونه بتآييد اختياره للخلافة إذا جاءهم واتخذ بلدهم مقرآ لها . وخرج الحسين من مكة ومعه أسرته وسبعون من أتباعه المخلصين له ، ولما أصبحت تلك القافلة على بعد خمسة وعشرين ميلا فى شمال الكوفة قابلتها قوة من جند يزيد بقيادة عبيد الله ، وعرض حسين أن يسلم ، ولكن من كانوا معه أبو إلا القتال . وأصاب أحد السهام الأولى قاسما أبن أخي الحسين وهو غلام في العاشرة من عمره ، فمات بن ذراعي عمه ، ثم سقط من بعده إخوة الحسن وأبناؤه ، وبنو أعمامه ، وأبناء إخوته واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق أحد ممن كانوا معه ، واستولى الرعب والهلع وقتئذ على النساء ؛ ولما حمل رأس الحسين إلى الكوفة أقبل عبدالله ينكثه بالقضيب ؛ فقال له أحد الحاضرين : ﴿ ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه ه^(١١) (٦٨٠) . وأقام الشيعة فى كربلاء حيث قتل الحسن مشهدا عظما تخليداً لذكراه ، ولا يزالون حيى اليوم يمثلون فى كل عام مأساة قتله ، ويظهرون فى ذلك أشد الحزن والأسى ، ويمجدون ذكرى على وولديه الحسن والحسن .

كذلك ثار على يزيد عبدالله بن الزبير، ولكن جنود يزيد السوريين هزموه وحاصروه في مكة ، وسقطت الحجارة من مجانيقهم في فناء الكعبة ، وانكسر منها الحجر الأسود ثلاث قطع ، واشتعلت النار في الكعبة نفسها ، والتهميها غن آخرها (٦٨٣). ثم رفع الحصار عنها فجأة ، فقد مات يزيد واحتيج إلى الجيش في دمشق . وأعقبت موته سنتان سادت فيهما الفوضي وتولى الحلافة فيها ثلاثة من الحلفاء جاء يعدهم عبد الملك بن مروان ابن عم معاوية فقضي على

هذا الاضطراب وأخمد الفتنة بشجاعة وقسوة ، فلما استتب له الأمر حكم البلاد بكثير من الرأفة ، والحكة والعدالة . وأخضع قائده الحجاج بن يوسف أهل الكوفة وأعاد حصار مكة . ودافع عنها عبد الله ، وكان وقتئذ في الثانية والسبعين من عمره ، دفاع الأبطال ، وكانت أمه المعمرة تشجعه وتحرضه ، لكنه هزم وقتل ، وحمل رأسه إلى دمشق ؛ وبعد أن ظل جسده مصلوباً بعض الوقت ، اسلم إلى أمه (٢٩٢) . وفي سنى السلم التي أعقبت هذا القتال ، أخذ عبد الملك يقرض الشعر ، ويناصر الأدب ، وبعني بشئون بيته ، ويربي أبناءه الحمسة عشر ، وقد تولى الحلافة منهم أربعة .

ودام حكمه عشرين عاماً مهد فيها السبيل للأعمال العظيمة التي قام بها ابنه الوليد الأول (٧٠٥ ــ ٧١٥) . فني عهده واصل العرب فتوحهم ، فاستولوا على بلخ فى عام ٧٠٥ ، وعلى بخارى فى عام ٧٠٩ ، وفتحوا أسهانيا فى عام ٧١١ ، وسمرقند فى ٧١٢ . وفى الشرق حكم الحجاج البلاد بحزم وجد وقام فيها بأعمال إنشائية لا تقل عما لجأ إليه فى هذا الحكم من قسوة : فقد جَفْفُ المستنقعات ، وأصلح كثيراً من الأراضي وأعدها للزراعة ، وأعاد فتح ما طمر من قنوات الرى وأصلحها . ثم لم يقنع سهام الأعمال فأحدث انقلابًا كبيرًا في طريقة الكتابة باستعال حركات الإعراب، وكان الحجاج مدرساً قبل أن يكون والياً . أما الوليد نفسه فكان مثلا طيباً للحكام ، يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب ، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الجديدة وإصلاح الطرق ، وينشئ المدارس والمستشفيات ــ ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية ــ وملاجئ للشيوخ ، والعجزة ، والمكفوفين ، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويجملها ، وينشئ في دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم لا يزال باقياً فيها حتى اليوم . وكان يجد بين هذه المشاغل كلها متسعاً من الوقت يقرض فيه الشعر ، ويؤلف الألحان الموسيقية ، ويضرب على العود ،

ويستمع إلى غيره من الشعراء والموسيقيين ، ويخصص من كل يومين يوماً المنادمة ١٢٥) .

وخلفه أخوه سلبمان (٧١٥ – ٧١٧) ، فأضاع المال والرجال في محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية ، وسلى نفسه بالطعام والنساء ، ولم يذكره الناس بخير إلا لأنه أوصى بالخسلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز . (٧١٧ ــ ٧٢٠) . واعتزم عمر أن يكفر في خلافته عن جميع ضروب الفساد التي ارتكمها أسلافه من خلفاء بني أمية . فجعل حياته كلها وقفاً على إحياء شعائر الدين ونشره فتقشف في لباسه ، وارتدى الثياب المرقعة حتى لم يكن أحد يظن أنه هو خليفة المسلمين ، وأمر زوجته بأن ترد إلى بيت المال ما أهداه إليها والدها من الحلى النفيسة فصدعت بالأمر ، وأبلغ أزواجه أن واجبات الحكم ستشغله عن الالتفات إليهن وأذن لمن شئن منهن أن يفارقنه . ولم يلتفت إلى الشعراء ، والحطباء ، والعلماء الذين كانوا يعتمدون في معيشتهم على بلاط الحلفاء ، بل قرب إليه أتنى العلماء في الدولة واتخذهم له أعواناً ومستشارين . وعقد الصلح مع الدول الأجنبية ، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذي كان يحاصرها ، واستدعى الحاميات التي كانت قائمة في المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين . وبيناكان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين في بلاد الدولة على اعتناق الإسلام ، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم ، فإن عمر قد شجع المسيحيين ، والهود ، والزردشتين على اعتناقه ، ولما شكا إليه عماله القائمون على شئون المال من أن هذه السياسة ستفقر بيت المال أجابهم بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لُودُدُتُ أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا ه (١٤).

ولما أراد بعض مستشاريه أن يقفوا حركة الدخول فى الإسلام بأن حتموا الحتان على معتنقيه فعل عمرما فعله القديس بولس من قبل ، فأمر هم بالاستغناء

عن الحتان . ثم فرض قيوداً شديدة على من امتنعوا عن الإسلام ، فحرم عليهم مناصب الدولة ، ومنعهم من بناء معابد جديدة ، ودامت خلافته أقل من ثلاث سنن مرض بعدها ومات .

وكان يزيد الثانى (٧٢٠ – ٧٧٤) يختلف كل الاختلاف في أخلاقه وعاداته عن عمر بن عبد العزيز . كان يزيد يحب جارية تدعى حبيبة بقدر ما كان عمر يحب الإسلام . وكان قد ابتاعها في شبابه بأربعة آلاف قطعة من الذهب ، وأرغمه أخوه سليان ، وكان هو الحليفة في ذلك الوقت ، أن يردها إلى بائعها ، ولكن يزيد لم ينس جمالها وحنانها ؛ فلها ولى الحلافة سألته يروجته هل بتى له شي في العالم يرغب فيه ؟ . فأجابها « حبيبة » فبعثت زوجته الوفية من فورها إلى حبيبة ، وأهدتها إليه ، وانزوت هي في مجاهل الحريم . ويروى أنه بينا هو يلهو مع حبيبة في يوم من الأيام إذ ألتى أثناء لهوه ببذرة عنب في فها ، فاختنقت وماتت بين ذراعيه . وحزن عليها يزيد حزناً مات من أثره بعد أسبوع من وفاتها .

وحكم هشام (٧٢٤ – ٧٤٣) الدولة سبعة عشر عاماً حكماً عادلا سادت فيه السلم ، وأصلح في خلاله الشئون الإدارية ، وخفض الضرائب ، وترك بيت المال يعد وفاته مليئاً بالأموال . ولكن فضائل القديس قد تكون سبباً في القضاء على الحاكم : فقد منيت جيوش هشام بعدة هزائم ، وثار نقع الفتنة في الولايات ، وعم الاستياء العاصمة التي كانت تتوق إلى خليفة مبذر متلاف . وجاء من بعده خلفاء جللوا بالعار تلك الأسرة التي امتاز خلفاؤها الأولون بالقدرة والمهارة ، فعاشوا عيشة الترف والفساد ، وأهملوا شئون الحكم ، فكان الوليد الثاني (٧٤٣ – ٧٤٤) فاسد الأخلاق ، خارجاً على قواعد الدين ، منغمساً في الشهوات البدنية ولما سمع بنبأ فواق عمه هشام سره النبأ أيما سرور ، وقبض على ابن هشام نفسه ، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفي، وبدد أموال الخزانة بحكمه الفاسد ، وهباته التي لاحد

لها . ويروى عنه أعداؤه أنه كان يسبح فى بركة من الحمر ، ويشنى منها غلته وهو سابح فيها ، وأنه ضرب القرآن بالنبال (*) (١٤) . وقتل يزيد بن الوليد الأول هذا الحليفة المستهتر الماجن ، وتولى الحلافة ستة أشهر ومات فى عام ٧٤٤ . وخلفه على العرش أخوه إبراهيم ، ولكنه لم يستطع حمايته ، فخلغه أحد قواده الأقوياء هو مروان الثانى ، وحكم ست سنين مليئة بالمآسى ، وكان هو آخر الحلفاء من بنى أمية فى الشرق .

وإذا نظرنا إلى أعمال الحلفاء من بنى أمية من وجهة النظر الدنيوية حكمنا بأن هذه الأعمال قد عادت بالخير على الإسلام. فقد وسعوا حدود البلاد السياسية إلى مدى لم تبلغه قط فيا بعد. وإذا ما استثنينا بعض فترات مشتومة من تاريخهم فإنهم قد حكموا الدولة الجديدة حكماً منظا حرا. لكن نظام الملكية المطلقة الوراثية أدى إلى ما يؤدى إليه عادة في جميع البلاد ، فتولى الحلافة في القرن الثامن خلفاء عاجزون أفقروا بيت المال ، وتركوا شئون الحكم للخصيان ، وفقدوا السيطرة على النزعة الانفرادية العربية، التي حالت في أكثر الأوقات بين المسلمين وبين قيام دولة إسلامية موحدة . وقد ظل الذاع بين القبائل لم تنقطع أسبابه وإن استحال نزاعاً بين الأحزاب السياسية ؛ فقد كان بنو هاشم وبنو أمية يكره بعضهم بعضا ، كأن أواشج القربي بينهم قد أضحت أشد وأقرب مما كانت في أيامهم السابقة . ونفرت بلاد العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليها ؛ وأخذ الفرس يدعون أنهم العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليها ؛ وأخذ الفرس يدعون أنهم أرى من أنهم لا يقلون شأناً عن العرب . وساء أبناء النبي من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يقلون شأناً عن العرب . وساء أبناء النبي من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يقلون شأناً عن العرب . وساء أبناء النبي أن يروا بلاد المسلمين يتولى شئونها خلفاء من بني أمية الذين كان منهم أشد

^(﴿) و هو يقول :

أترعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنية إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل الله يرمزقني الوليد

أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، وروعهم فساد أخلاق الحلفاء الأمويين ، ولعالهم قد روعهم كذلك تساهلهم الديني ، وكانوا يدعون الله أن يرسل من قبله من ينقذهم من هذا الحكم المذل .

ولم يكن ينقص هذه القوى المعادية إلا شخصية قوية مبدئة توخد صفوفها وتنطقها بمطالبها . وقيض لها هذا الزعيم فى شخص أبى العباس السفاح حفيد حفيد أحد أعمام النبى ، فتولى قيادتها من مكمن لها فى فلسطين ، ونظم الثورة فى الولايات واستمال إليه الوطنيين الشيعة فى بلاد الفرس فأيدوه أشد التأييد ، حتى إذا كان عام ٧٤٩ نادى بنفسه خليفة فى الكوفة . والتقى جيش مروان الثانى بالثوار يقودهم عبد الله عم أبى العباس على بهر الزاب ، فهزم مروان وجيوشه ، وبعد عام من هزيمته استسلمت دمشق بعد أن ضرب عليها الحصار . ثم قبض بهدئذ على مروان وقتل وحمل رأسه إلى ضرب عليها الحصار . ثم قبض بهدئذ على مروان وقتل وحمل رأسه إلى العباس ؛ ولكن الخليفة الجديد لم يكتف بهذا ، وقال :

« لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني »

وسمى أبو العباس بالسفاح أى سفاك الدماء لأنه أمر بأن يطارد أمراء بني أمية ويقتلوا أيها وجدوا ، ليقضى بذلك على ما عسى أن يقوم به أفراد الأسرة الساقطة من فتن . ونفذ عبد الله ، الذى عن واليا على الشام ، هذا الأمر ، في يسر وسرعة ، فأعلن عفوا عاما عن الأمويين ، وأكده لهم بدعوة تمانين من زعمائهم إلى وليمة . وبينا هم على الطعام إذا أشار إلى جنوده في غبئهم ، فخرجوا عليهم ورموا رووسهم بالسيوف ، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى ، واستمرت المأدبة ، واستبدل بزعماء الأمويين رجال من العباسيين جلسوا فوق جثث أعدائهم ، يشنفون أسماعهم بأنين الموتى . وأخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بني أمية ، وسيطت هياكلهم العظمية وأخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بني أمية ، وسيطت هياكلهم العظمية التي كادت أن تكون عارية من اللحم ، وشنقت وحرقت ، وذر رمادها في الريح (١٥) .

الفصل الثالث

الحلافة العباسية (۷۵۰ – ۱۰۵۸)

١ – هرون الرشيد

وجد أبو العباس السفاح نفسه حاكما للمولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطى ، وتشمل بلاد السند (الشهال الغربى من الهند) ، وبلوخستان وأفغانستان ، والتركستان ، وفارس ، وأرض الجزيرة ، وأرمينية ، والشام ، وفلسطين ، وقبرص ، وكريت ، (إقريطش) ، ومصر ، وشمالى أفريقية . ورفضت أسبانيا المسلمة الحضوع إليه ، وخرجت بلاد السند عن طاعته فى السنة الثانية عشرة من حكمه . ورأى السفاح أن دمشق تكرهه ، وأنه لا يأمن على نفسه فى مدينة الكوفة المشاكسة المضطربة ، فنقل العاصمة إلى الأنبار الواقعة فى شمال الكوفة . وكانت الكثرة الغالبة نمن رفعوه إلى العرش فرساً فى ثقافهم وأصولهم . وبعد أن ارتوى السفاح من دماء أعدائه اصطبغ بلاطه بشىء من الرقة ودمائة الأخلاق القارسية ، وجاءت من بعده طائفة من الخلفاء المستنيرين ، استخدموا ثروة الدولة المتزايدة فى مناصرة الفئون والآداب ، والعلوم ، والفلسفة حتى ازدهرت وأثمرت أينع الثمار ؛ وبعد أن مضت مائة عام على بلاد القرس . وهى فى ذلة الحضوع غلبت غالبها .

ومات السفاح بالجدرى فى عام ٧٥٤ ، وخلفه أبو جعفر أخوه من أبيه ولقب بالمنصور ، وكانت أمهات جميع خلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلاثلاثة منهم جوارى . وقد أدى إلى هذا ماجرى عليه الحلفاء

من عادة اتخاذ السرارى وجعل أبنائهم منهن أبناء شرعيين. وبهذه الوسيلة كان. عدد أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية يزداد على الدوام بتأثر المصادفة وطابعها الدمقراطي ، ومصائر الحب والحرب. وكان الخليفة الجديد في سن الأربعين ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، ملتحياً ، أسمر البشرة ، شديداً في معاملاته . ولم يكن أسرآ لجال النساء ، أو مدمناً للخمر ، أو مولعاً بالغناء ﴿ وَلَكُنَّهُ كَانَ يِنَاصُرُ الآدابِ ﴾ والعلوم ، والفنون ؛ ويمتاز بعظيم . قدرته ، وحزمه ، وشدة بطشه . وبفضل هذه الصفات ثبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لماتت بموت السفاح . وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية ، وبنى مدينة فخمة هي مدينة بغداد وانخذها عاصمة للدولة ، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش في صورتهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة ، وكان يشرف بنفسه على كل إدارة في دولاب الحكومة ، وعلى جميع أعمال. هذه الإدارات ، وأرغم الموظفين المرتشين الفاسدين ـــ ومنهم أخوه نفسه ـــ على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة . وكان يراعى ِ جانب الاقتصاد بل قل الحرص الشديد في إنفاق الأموالُ العامة ، حتى نفر منه الأصدقاء ، وأطلق عليه لشحه لقب a أبي الدوانق $a^{(17)}$. وقد أنشأ في بداية حكمه نظام الوزارة الذي أخذه عن الفرس ، وكان له شأن عظيم في تاريخ العباسيين : وكان أول من شغل منصب الوزير في عهده هو خالد. ابن برمك . وقد اضطلع بواجب خطير فى حكم الدولة ، وكان له شأن فيما وقع في أيام الدولة العباسية من أحداث جسام . وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء اللذين جنى ثمارهما هرون الرشيد .

ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام اثنتين وعشرين سنة وكان موته وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج. ولم يكن في وسع ابنه المهدى (٧٧٥ ـــ ٧٨٥) إلا أن يسلك في حكمه سبيل الحير. وقد شمل عفوه، جميع المذنبين إلا أشدهم خطراً على الدولة ، وأنفق الأموال الطائلة في تجميل المدن

وناصر الموسيقى والآداب ، وأظهر في حكم البلاد كفاية ممتازة . وكانت بنزنطية قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم ألتي فتحها العرب في آسية ااصغرى ، فسير عليها المهدى جيشاً بقيادة ابنه هرون لاسترداد هذه البلاد . وأخرج هرون الروم منها وردهم إلى القسطنطينية ، وهدد تلك المدينة نفسها تهديداً اضطر الإمبر اطورة إيرينة (**Trene أن تعقد معه صلحاً تمهدت بمقتضاه أى تؤدى للخليفة جزية سنوية مقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار (۸۳۲٬۰۰۰ دولار) (۷۸٤) . ومن ذلك الوقت أطلق المهدى على ابنه اسم هرون الرشيد . وكان قبل ذلك قد اختار ابناً آخر من أبنائه اسمه الهادى ولياً للعهد ، فلما رأى ما امتاز به هرون من كفاية عظيمة طلب إلى الهادى أن ينزل عن حقة لأخيه الأصغر . وكان الهادى وقتلد يقود جيشاً فى بلاد الشرق فأبى أن يجيب أباه إلى طلبه ، ورفض أن يطبع أمره بالعودة إلى بغداد . فخرج المهدى وهرون للقبض عليه ، ولكن المهدى توفى في الطريق ، وكان حن وفاته في النالثة والأربعين من عمره . ورأى هرون اتباعاً لنصيحة الوزير يحيى بن خالد البرمكي أن يبايع الهادي بالحلافة ، على أن يكون هو ولياً للعهد ، غير أنه إذا كان في وسمَّ عشرة من الدراويش أن يناموا على بساط واحد فإن ملكين لا تتسع لها مملكة بأكملها كما يقول السعدى(١٧) في كتابه: فلم يعترف الهادي لأخيه بولاية العهد ، وسجن یحیی ، ونادی بابنه ولیآ لعهده . ثم مات الهادی بعد زمن قصیر (۷۸٦) ، وراجت إشاعة بأن أمه ، وكانت تفضل عليه هرون ، كتمت أنفاسه بوسادة وضعتها على فمه . وارتتى هرون العرش ، واتخذ يحيى وزيراً له ، وبدأ أشهر حكم فى تاريخ الإسلام .

وتصور لنا القصص – وخاصة قصص ألف ليلة وليلة – هرون الرشيد في صورة الملك المرح ، المثقف ، المستنبر ، العنيف في بعض الأوقات ، الكريم الرحيم في أغلب الأحيان ، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها و يحتفظ

⁽ ه) هكذا يسميها المؤخون العرب . (المترجم)

ما في ديوان محفرظات الدولة(١٨) . وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون إذا استثنينا منها مرحه ؛ ولعل السبب في ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين . فهم يصورونه أولا وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك ، أشد التمسك بأوامر الدين ، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين ، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين ، وإنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة(١٩٠) . ويقال إنه كان يشرب الخمر ، ولكن هذا لم يكن إلا سراً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه (۲۰۰ . ويقال إنه تزوج من سبع نساء (*) وكان له عدد من السبرارى رزق منهن بأحد عشر ولداً ، وأبع عشرة بنتاً ، كلهم وكلهن من الجوارى عدا الأمين ابنه من الأميرة زبيدة . وكان كريمًا سمحًا في أمواله على اختلاف أنواعها . من ذلك أنه لما أحب ولده المأمون إحدى فتيات قصر أبيه ، أهداها إليه الخليفة ، ولم يسأله نمناً لها إلا أن ينظم بعض أبيات من الشعر (٢١) ، لأنه كان يحب الشعر أشد الحب ، ويستمتع به استمتاعاً يحمله في بعض الأحيان على أن يثقل الشاعر الذي يعجب بشعره بالهدايا من غير حساب . من ذلك أنه أهدى الشاعر مروان على قصيدة مدحه نها خسة Tلاف قطعة من الذهب (٧٥٠ ر ٢٣ دولار)^(**) ، وحلة ثمينة ، وعشر جوار من بنات الروم ، وجواداً كريماً(٢٢٪) . وكان أحب رفاقه إليه الشاعر الماجن أبو نواس . وكان كثيراً ما يغضب على أبى نواس لسفهه وسوء سبرته ، ولكنه كان فى كل مرة يصفح عنه لجودة شعره . وقد جمع حوله في بغداد عدداً عظها من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحوين وعلماء البلاغة ، والراقصات والراقصين ، والفنانين ، والفكهين المرحين . وكان ينة لـ أعمالهم وأقوالهم نقد العالم الحبير صاحبالذوقالسليم، ويجزيهم عليها بسخاء،

^(﴿) لعل المؤلف يضيف الجوارى إلى الأزواج لأن الإسلام يحوم الزواج بأكثر من أربع . (المترجم)

⁽هـه) يقصد المؤلف بقطمة الذهب في هذه الفصول الدينار ويقدره بأربمة دولارات أمريكية وثلاثة أرباع الدولار من نقود هذه الأيام ، حسب القوه الشرائية للدينار في تلك الأيام . (المترجم)

ويتلتى فى نظير ذلك الاف القصائد فى مديحه والتغنى بجوده . وكان هو نفسه عالماً وشاعراً ، وخطيباً بليغاً . قويا (٢٣) . ولسنا نعلم فى التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوى العقول الراجحة النامهين . وكان يعاصره فى غير بلاد الإسلام الإمراطورة إيرينة فى القسطنطينية ، والملك شارلمان فى فرنسا ، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung ، ولكن هرون الرشيد بزهم جميعاً فى الثراء ، والسلطان ، وأمة الملك ، والتقدم الثقافى الذى ازدان به حكمه .

غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك . فقد كان يشترك اشتراكا فعلياً في تصريف شئون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه ، وترك الحزانة عندوفاته عامرة بالمال فيها ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، وينار على الرغم من أبهة الملك والهبات التي لم يسبق لها مثيل . وكان يقود جيوشه بنفسه في ميادين القتال ، وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة . غير أنه كان يعهد بالشئون الإدارية وبالحطط السياسية إلى وزيره الحكيم يحيى . فقلن دعا إليه عقب جلوسه على العرش يحيى البرمكي وقال إنه يعهد إليه أمر جميع رعاياه ليحكمهم كما يشاء ، فيعزل من يشاء ، ويولى من يشاء ، ويصرف الأمور كما يرى ، وأيد قوله هذا بأن أعطاه خاتمه (٢٤) . وكان هذا إفراطاً خطيراً في ثقته بالوزير ، ولكن هرون كان يرى أنه ، وهو لا يزال شاباً في الثانية والعشرين من عمره . لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة في الثانية والعشرين من عمره . لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة ومربياً له يدعوه إذا دعاه بوالده ، وقد ذاق عذاب السجن في سبيله .

وأثبت يحيى أنه أقدر الحكام فى تاريخ العالم كله . لقد كان رجلا بشوشاً ، دمث الأخلاق، جواداً حكيما، مجداً لا يمل من العمل ؛ رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية ، وثبت دعائم النظام ، وأقر الأمن ، ونشر لواء العدالة ، وأنشأ الطرق، والجسور ، والخانات، واحتفر قنوات الرى ، فعم المواء العدالة ، وأنشأ الطرق، والجسور ، والخانات، واحتفر قنوات الرى ، فعم المواء العدالة ، وأنشأ الطرق ، والجسور ، والحانات ، واحتفر قنوات الرى ، فعم المواء العدالة ، وأنشأ الطرق ، والجسور ، والحانات ، واحتفر قنوات الرى ، فعم المواء المو

الرخاء جميع ولايات الدولة ، وإن كان قد فرض عليها ضرائب عالية ليملأ ما خزانة الخليفة وخزانته هو ، ذلك أنه هو أيضاً قد حدا حدو سيده في مناصرة الآداب والفنون . وقد عين ولديه الفضل وجعفر في منصبين كبيرين من مناصب الدولة ، فسارا فيهما أحسن سيرة ، وأثريا مهما ثيراء عظيا ، فأنشآ القصور ، وجمعا حولها طائفة كبيرة من الشعراء ، والندماء ، والفلاسفة . وكان هرون يجب جعفر حبا أطلق ألسنة السوء في علاقتهما الشخصية ، ويقال إن الحليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين يلبسها هو وجعفر معا فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية (٢٥).

ولسنا نعرف بالدقة سبب النكبة المفاجئة التي قضت على سلطان البرامكة . فابن خلدون يقول إن سبها الحقيقي هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير (٢٦) .

ولعل السبب أنه لما جاوز هرون سن الشباب ، ولم يجد في الجرى وراء الملاذ الجسمية والعقلية متنفساً لكفاياته ومواهبه ، ندم على ما خص به وزيره من قوة وسلطان . وقد حدث أن أمر الخليفة جعفر بأن يقتل أحد الخارجين عليه ، فتغاضى جعفر عن الأمر حتى تمكن الثائر من الهرب، ولم يغفر هرون له هذا الإهال الحبب إلى النفوس . وهناك قصة من طراز قصص ألف ليلة وليلة تقول إن العباسة أخت الرشيد ، أحبت جعفر ، وأن الرشيد كان قد أقسم بأن يحتفظ بدماء بني هاشم الذي يجرى في عروق أخواته صافية نقية لا يخالطها إلا دماء أشراف العرب ، وجعفر كما نعلم من أبناء الفرس . وأجاز لهما الخليفة أن يتزوجا ، على ألا يلتقيا إلا في حضوره . ولكن الحبيبين سرعان ما نقضا هذا العهد ، وولدت العباسة لجعفر ولدين دون أن يعلم بذلك الرشيد ، فقد أخفيا عنه وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها . وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها . وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا

السر، وأفضت به إلى هرون. فبعث فى طلب مسرور كبير الجلادين وأمره، بقتل العباسة ودفعًا فى قصره ، وأشرف هو بنفسه على تنفيذ هذا الأمر. ثم أمر مسروراً أن يضرب عنق جعفر ، وأن يأتى إليه برأسه ، ونفذ مسرور أمر مولاه . ثم بعث إلى المدينة من يأنيه بولديه ، وبعد أن تحدث طويلا إلى الطفلين الوسيمين ، وأبدى إعجابه بهما أمر بقتلهما (٨٠٣) . ثم سجن يحيى والفضل ، وسمح لها بأن يحتفظا بأسرتهما وخدمهما ، ولكنه لم يطلق سراحهما ، ومات يحيى بعد عامين من مقتل ولده ، كما مات الفضل بعد خسة أعوام من مقتل أخيه ، وصودرت جميع أموال البرامكة ، ويقال إنها بلغت ، ورود و ورودرت جميع أموال البرامكة ، ويقال إنها بلغت ، ورود و ودرود ودرود ودرود ودرود أمريكي) .

ولم تطل حياة هرون بعد نكبة البرامكة . وظل وقتاً ما يخفف من حزنه وندمه بالعمل الكثير ، ويقال إنه كان يرحب بمشاق الحرب نفسها ، ولما أن امتنع نقفور الأول إمبراطور بيزنطية عن أداء الجزية التي وحدت إيرينة بأدائها ، وجرو على المطالبة برد ما أدته الإمبراطورة منها رد عليه هرون بقوله : « باسم الله الرحم الرحم . من هرون أمبر المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد ، فقد تلقيت رسالتك يابن الكافرة ، وسيكون الجواب ما تراه عيناك لا ما تسمعه أذناك والسلام ، (٢٧٧) . وسار إلى ميدان القتال من فوره ، واتحذ مقامه في الرقة ذات الموقع الحربي المنبع على حدوده الشهالية ، ونزل إلى الميدان على رأس حملة قوية اخربي المنبع على الصغرى ، وقذفت الرعب في قلب نقفور فلم يسعه إلا أن يعود إلى أداء الجزية (٢٠٨) . ورأى الرشيد أن يصطنع شارلمان ليرهب به إمبراطور المروم ... فأرسل إليه وفداً مثقلا بالهدايا منها فيلوساعة مائية معقدة التركيب ،

ولم يكن هرون وقتئد قد جاوز الثانية والأربعين من عمره ، ومع هذا فإن. ولديه الأمين والمأمون شرعا يتنافسان على الخلافة ويتطلعان إلى موته . وأراد. هرون أن يخفف من حدة النزاع فقرر أن يرث المأمون الولايات الواقعة في شرق. بهر دجلة ، وأن يرث الأمين ما بقى من الدولة ، فإذا مات أحد الاثنين آل. ملكه إلى أخيه . ووقع الأخوان هذا العهد وأقسما على الكعبة أن يتقيده به ت ولكن حدث فى ذلك العام نفسه أن شبت فتنة صاء فى خراسان فسار هرون ومعه المأمون لتقليم أظافرها ، مع أنه كان يشكو وقتئذ آلاما شديدة فى معدته . فلما بلغ بلدة طوس فى شرقى إيران عجز عن الوقوف على قدميه . وجىء له وهو يحتضر بياشين أحد زعماء الثورة ، وكان الخليفة قد برح به الألم حتى أفقده عقله فأخذ يؤنب القائد الأسير لأنه اضطره إلى الإقدام على هذه الحملة المهلكة ، وأمر أن تقطع أوصاله وشهد بعينية تنفيذ أمره (٢٩٠) . وفى اليوم الثانى توفى هرون الرشيد فى سن الحامسة والأربعين.

٢ - اضمحلال الدولة العباسية

وواصل المأمون الزحف إلى مرو ، وعقد اتفاقاً مع الثوار ، أما الأمين. فعاد إلى بغداد ، ونادى بابنه الطفل الرضيع ولياً للعهد ، وطالب المأمون بثلاث من الولايات الشرقية ، ولما رفض المأمون طلبه أعلن الأمين عليه الحرب . وهزم طاهر قائد المأمون جيش الأمين وحاصر بغداد وكاد أن يدمرها تدميرا ، وبعث برأس الأمين إلى المأمون جريا على تلك العادة التي أضحت سنة متبعة . وكان المأمون وقتئد في مرو فأمر بالمناداة به خليفة . الشام وجزيرة العرب ظلت تقاومه لأنه ابن جارية فارسية ، ولم تتم بيعته خليفة على بلاد المسلمين ويدخل بغداد إلا في عام .

ويعد عبد الله المأمون هو والمنصور والرشيد أعظم خلفاء بني العباس. نعم ، إن المأمون لم ينج من الحلتين اللتين شانتا أخلاق هرون الرشيد ، فكان في بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله ويقسوكقسوته، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادئ الطباع ، جمع في مجلس الدولة ممثلين لجميع الأديان الكبرى في البلاد كلها.

- من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، وصابثين ، وزردشتيين - وضمن للحميع رعاياه حتى أواخر أيامه حرية الدين والعبادة . وظلت حرية التفكير وقتا ما هى السنة المألوفة فى بلاط الحليفة . ويصف المسعودي مجلساً من المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون في آخر النهار فيقول :

«كان المأمون يجلس كل يوم للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لم : انزعوا أخفافكم . ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ، (٣٠) .

وكان تشجيع المأمون للفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة أكثر تنوعاً ودقة منها في عهد هرون ، وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان له في عهد أبيه . فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية ، والإسكندية ، وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية ، وأنشأ مجمعاً علمياً في بغداد ومرصدين فيها وفي تدمر . وكان الأطباء ، والنقهاء ، والموسيقيون ، والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم والنقهاء ، وكان هو نفسه يقرض الشعر ، كما كان يقرضه أحد أباطرة بعطاياه ، وكان هو نفسه يقرض الشعر ، كما كان يقرضه شريف مهذب في البابان في القرن التاسع عشر ، وكما كان يقرضه كل مسلم شريف مهذب في ذلك الوقت .

ومات المأمون في سن مبكرة _ في الثامنة والأربعين من عمره (٨٣٣) _ وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه . ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأى في الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعته إلى اضطهاد

أصحاب السنة ، وكان أخوه أبو إسحق المعتصم ، الذى تولى الحلافة من بعده ، مثله وإن لم يكن مثله فى عبقريته . وقد أحاط هذا الخليفة نفسه بحرسُ خاص مؤلف من ٤٠٠٠ من الجنود الترك ، شبيه بالحرس الديتورى الذي أحاط به الأباطرة الرومان أنفسهم ، وأصبح هذا الحرس على مر الأيام في بغداد ، كما أصبح الحرس البريتوري في رومة ، صاحب الأمر والنهى في أمور الدولة . وشكا سكان العاصمة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون . وخشى المعتصم أن يثور عليه سكان المدينة فغادر بغداد وبني لنفسه قصرا في سرمن رأى على بعد ثلاثين ميلا إلى شمال العاصمة . واتخذ تمانية من الحلفاء (* هذه الضاحية مسكنا لهم ما بين على ٨٣٦ ، ٨٩٢ ، ودفنوا فها بعد موتهم ، وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلا على ضفتی نهر دجلة قصوراً فخمة ، ومساجد ، وحذا حذوهم كبار موظفی الدولة ، فشيدوا البيوت الفخمة ، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة ، وأنشأوا فيها الفساقىوالحدائقوالحامات. وأراد المتوكل أن يبرهن على صلاحه فأنفق ٠٠٠ ر ٧٠٠ دينار (٠٠٠ ر ٣٦٥ر٣ دولار) على تشييد مسجد جامع وأنفق -مايقرب من هذا المبلغ في تشييد ضاحية جديدة له تعرف بالجعفرية (١٠١٠ أقام سها قصراً يعرفْ«بقصراللوُلوُه»وأحاطهاكلها بالبساتينوالجداول.وقدجمعمايحتاجه من المال لهذه المبانى وما يتصل مها بأن زاد الضرائب ، وباع وظائف الدولة لمن

^(*) المعتصم (۸۳۳ – ۸۶۷) ، والواثق (۸۶۲ – ۸۷۷) ، والمتوكل (۸۶۷ – ۸۲۷) ، والمتوكل (۸۶۷ – ۸۲۱) ، والمستمين (۸۲۱ – ۸۲۱) ، والمستر (۸۲۱ – ۸۷۰) ، والمستمد (۸۷۰ – ۸۷۰) ، والمستمد (۸۷۰ – ۸۷۰) ، وقد عاد المستمد قبيل وفاته إلى بغداد .

⁽ه.) يقول الطبرى إن اسم الضاحية هو الجمفرى : « أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجمفرى (جزء ١١ في أخبار سنة ٢٤٥) . (المترجم)

يؤدى أكبر ثمن لها ؛ وأراد أن يستميل أهل السنة باضطهاد الخارجين عايها ، وحرض ابنه حرسه النركي على قتله ، وتولى الحلافة بعده وتسمى بالمنتصر بالله ۽ وأفسدت العوامل الداخلية أحوال الحلافة قبل أن تقضى عليها القوى الحارجية : فقد أنهك قوى الحلفاء إدمانهم الشراب ، وانهماكهم في الشهوات ، واللهو ، والترف ، والبطالة ، فجلس على سرير الملك طائفة من الخلفاء الضعاف فروا من مهام الحكم إلى ملذات الحريم المضعفة للجسم والعقل . وكان لازدياد الثروة ، واستمهاد الراحة ، وانتشار التسرى وتفشى اللواط ، كان لهذه الرذائل من الأثر في طبقة الحكام ما كان لها فى الحلفاء ، وتعدى ذلك إلى الشعب نفسه ، فضعفت صفاته الحربية . ولم يكن من طبيعة هذا الضعف وعدم النظام أن يخلق اليد القوية التي كانت البلاد في أشد الحاجة إليها لتجمع شتات هذا الخليط المتفرق المتباين من الولايات والقبائل . وكثيراً ما أسفرت العداوة العنصرية والإقليمية عن ثورات . فلم یکن العرب ، والفرس ، والسوریون ، والىربر ، والمسيحيون ، واليهور ، والأتراك ، لم يكن هؤلاء جميعا يجتمعون إلا على احتقار بعضهم بعضًا ، وزاد الطين بلة أن الدين الذي كان من قبل يجمع شملهم ويوحد صفوفهم قد تفرق شيعاً ، وزادت حدة الانقسامات السياسية والجغرافية ، وكانت هي المعرة عن هذه الانقسامات . وكان لإهمال وسائل الرى أثر كبير في ضعف الدولة وفساد أحوالها . ذلك أن نظام الرى هو مصدر حياةً بلاد الشرق الأدنى وهلاكه معاً : فالقنوات التي تمد الأرض بالماء تحتاج على الدوام إلى كثير من الحراسة والتطهير يعجز عنها الأفراد والأسر . فلما عجزت الحكومة عن تعهد هذه القنوات أو أهملتها ، قلت موارد الطعام عن مجاراة نسبة ازدياد السكان ، وكان لابد من أن سهاك الناس. من الجوع حتى لا يختل التوازن بين هذين العاملين الأساسيين اللذين لها شأن عظيم فى تاريخ العالم . غير أن ماحل بالأهلين من فقر بسبب القحط والوباء لم يكن في معظم الأوقات ليغل أيدى جباة الضرائب أو يخفَّف من قسوتهم . فكان الفلاحون ، والصناع ، والتجار يرون مكاسهم تذهب كلها للوفاء بنفقات الحكومة وألمة الحكام ، فانعدم الحافز للعمل والإنتاج ، والتوسع فيهما ، والمغامرة والإقدام . وانتهى الأمر بأن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجة الحكومة ؛ وقلت الإيرادات ، ولم يعد في وسع الحكام أن يودوا أجور الجند بانتظام ، أو أن يسيطروا عليهم . ويضاف إلى هذا أن الله قد حلوا محل العرب في القوات المسلحة ، كما حل الألمان محل الرومان في جيوش رومة ، وكان روساء الجند الأتراك من عهد المعتصم إلى آخر أيام الدولة العباسية هم الذين يرفعون الحلفاء إلى العرش ويسقطونهم ، ويغتالونهم ، وأصبحت قصور الحلفاء في بغداد مباءة للدسائس الدنيثة ، والاغتيالات وسفك الدماء ، مما جعل الحلافة العباسية في آخر أيامها غير خليقة بأن يبتي التاريخ على ذكراها .

وكان ضعف النشاط السياسي والقوة الحربية في عاصمة اللولة سبباً في تمزيق شملها وتقطع أوصالها . فأصبح الولاة يحكمون ولاياتهم دون أن يكون للخلفاء في العاصمة سلطان عليهم اللهم إلا سلطانا اسمياً غير ذي بال توأخلوا يعملون ليحتفظوا لأنفسهم بمناصهم طول حياتهم ، ثم لم يكتفوا مهذا بل عملوا على أن يرتها من بعدهم أبناؤهم . وكانت بلاد الأندلس قلد أعلنت استقلالها عن الحلافة العباسية في عام ٢٥٧ ، وحدت حدوها مراكش في عام ٧٨٨ ، وبعد تسع سنين من ذلك في عام ١٠٧٩ ، وتونس في ١٠٨ ومصر في ٨٦٨ . وبعد تسع سنين من ذلك العام الأخير استولى أمراء مصر على الشام ، وحكموا الجزء الأكبر منها حتى عام ١٠٧٦ . وكان المأمون قد كافأ قائده طاهر بأن عينه حاكما على خواسان وجعل ولايتها وراثية في أبنائه من بعده . وحكمت هذه الأسرة الطاهرية بلاد الفرس حكماً شبه استقلالي حتى حلت محلها أسرة الصفاريين (١٧٧ – بلاد الفرس حكماً شبه استقلالي حتى حلت محلها أسرة الصفاريين (١٧٧ – أسرة بني حمدان على شمالي الجزيرة والسام ، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية في

العالم الإسلام . وكان سيف الدولة الحمداني (٩٤٤ – ٩٦٧) شاعراً بليغاً ، اجتمع في بلاطه بحاب الفيلسوف الفاراني ، والشاعر العظيم المتنبي أحب الشعراء الأقدمين إلى قلوب الأدباء العرب . واستولى بنو بويه أبناء أحد زعماء البلاد الجبلية المجاورة لبحر الحرز على أصفهان وشيراز ، ثم استولوا آخر الأمر على بغداد نفسها في عام ٩٤٥ . وظل الحلفاء أكثر من مانة عام يأتمرون بأمرهم حتى لم يكن أمير المؤمنين أكثر من رئيس لأهل السنة من المسلمين ، بيها كان الأمير البويهي الشيعي هو المسيطر على شئون الدولة الآخذة رقعتها في النقصان . ونقل عضد الدولة أعظم أمراء بني بويه (٩٤٩ – المسلمين عاصمته إلى شيراز وهي مدينة من أجمل مدن الإسلام ، ولكنه كان ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته ، واستعادت بغداد في أيامه ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته ، واستعادت بغداد في أيامه وأيام من خاهوه من الأمراء بعض ما كان لها من المجد في أيام هرون الرشيد .

وفى عام ١٧٤ أقام أبناء سامان ، وهو شريف من أتباع زرادشت ، أسرة سامانية حكمت خراسان وما وراء بهر جيحون حتى عام ٩٩٩ . وفى عهد هذه الأسرة كانت بخارى وسمرقند مركزين للعلوم والفنون تنافسان فيهما بغداد نفسها ، وإن لم يكن من عادتنا إذا ذكرنا هذا الإقايم أن نعده ذا شأن عظيم فى تاريخ العلم والفلسفة . وعادت اللغة الفارسية فيه إلى الحياة وأصبحت أداة للتعبير عن أدب راق عظيم . وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها ، وفتحوا له أبواب مكتبة يلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات ؛ وأهدى الرازى أعظم أطباء بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات ؛ وأهدى الرازى أعظم أطباء مختم فى الطب . ثم استولى الأتراك فى عام ٩٩٠ على مدينة بخارى فضخم فى الطب . ثم استولى الأتراك فى عام ٩٩٠ على مدينة بخارى وقضوا فى عام ٩٩٠ على ملاينة بخارى نوقضوا فى عام ٩٩٠ على الأسرة السامانية . فقد كان المسلمون فى ذلك قون يحاربون ليقفوا زحف الأتراك نحو الغرب ، وكما كافح الترك فها بعد عرون يحاربون ليصدوا زحف العرب ، وكما كافح الترك فها بعد

ليقفوا تيار المغول الجارف . ذلك أن ما ينشأ من تكاثر السكان من ضغط شديد على وسائل العيش يؤدى من حين إلى حين إلى هجرات ضخمة تطغى أهميتها على غبر ها من حوادث التاريخ .

وفى عام ٩٩٧ غزا جماعة من المغامرين الأتراك القادمين من التركستان بلاد الأفغان . وكان يقودهم عبد محرر يدعى البتجين ، واستولوا على غزنة وأقام فيها أسرة عزنوية . وخلف البتجين سبكتكين (٩٧٦ – ٩٧٩) ، وكان أولا مولى من مواليه ، ثم زوج ابنته . وقد مد حدود ملكه حى شمل بيشاور وبعض خراسان ، ثم استولى ابنه محمود (٩٩٨ – ١٠٣٠) على جميع بلاد الفرس من الحليج الفارسي إلى نهر جيحون ، وبعد سبع عشرة معركة حامية امتازت بضروب من القسوة أضاف البنجاب إلى ملكه ، كما أضاف كثيراً من أموال الهند إلى خزائنه . ولما أتخمه النهب ، وضاق ذرعا بالتعطل الناشي من تسريح جنوده ، أخذ بنفق بعض ماله ، ويستخدم بعض رجاله ، في تشييد مسجد غزنه وهو المسجد الكبير الذي يقول فيه أحد المؤرخين المسلمين : (العتبي – أبو النصر محمد في كتاب اليميني أو الرسالة اليمينية) :

« وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف (ملى متى شهدوا الفرض أخذوا أماكنهم فيها صفوفاً وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا ، وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السهاء على -تصانيف الأثمة الماضين من علوم الأولين والآخرين . . ينتابها فقهاء دار الملك وعلماء للتدريس والنظر في علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة ، فمنهم من بهمهم جراية وافرة ، ومعيشة حاضرة . وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضى إليه في أمن من ابتذال العيون اللوامح واعتراض الرجال

^(*) فى الأصل الإنجليزى ستة آلاف . والنص الوارد هنا متقول من تاريخ اليميني – نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . (المترجم)

من بين صالح وطالح فيركب إليه على وقور سكينة وشمول طمأنينة (٢١) ه. واستقدم محمود إلى هذه المدرسة وإلى بلاطه كثيراً من العلماء منهم البيرونى ، وكثيراً من الشعراء ومنهم الفردوسي صاحب الشاهنامة أعظم قصيدة في الأدب الفارسي ؛ وقد أهداها إليه على كره منه . وكان محدود في ذلك الوقت أعظم رجال العالم كله من نواح عدة ، ولكن مملكته انتقلت بعد سبع سنن من وفاته إلى أيدى الأتراك السلاجقة .

ونحن نخطى ً إذا صورنا البّرك في صورة أقوام همج ، فمن حقهم علينا أن نقول إنهم حين أغاروا عل بلاد الإسلام كانوا قد أخلوا ينتقلون من طور الهمجية إلى طور الحضارة ، شأنهم في هذا شأن الفيالق الألمانية التي غزت بلاد الإمبر اطورية الرومانية . لقد أخد الأتراك الساكنون فى شمالى آسية الوسطى يتحركون نحو الغرب من إقليم بحيرة بيكال ، وكانوا قد نظموا أنفسهم فى القرن السادس الميلادى جماعات يتزعم كلا منها خماره أو شاغاهم . وكانوا يصهرون الحديد الذي يستخرجونه من جبالهم ، ويصنعون منه أسلحة صلبة كصلابة قوانينهم التي لم تكن تكتني بجعل الإعدام جزاء الخيانة والقتل ، بل كانت تجعله أيضا عقاباً على الزنى والجين . وكان خصب نسائهم يفوق قتلي حروبهم ؛ ولم يحل عام ١٠٠٠ م حتى كان فرع من أولئك الأتراك يسمون السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق قد سيطروا على ما وراء نهر جيحون وعلى بلاد التركستان . وظن محمود الغزنوى أن فى مقدوره أن يقف زحف هذه القوة التركية المنافسة له ، فقبض على أحد أبناء سلجوقوسجنه في الهند (١٠٩٢) . ولكن هذا العمل لم يفت في عضد السلاجفة بل أثار ثائر تهم فزحفوا بقيادة زعيمهم طغرلبك المحنك الشديد البأس واستولوا على معظم بلاد الفرس ، ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم فى المستقبل ، فأرسلوا وفداً إلى الحليفة القائم بأمر الله فى بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام ، وكان الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بني بويه ، فأ، سل إلى طغرل بك يدعوه لمعونته . ولبي طغرل الدعوة فأقبل في عام ١٠٥٠ ، وفر بنو بويه من بغداد . وتزوج القائم بابنة أخى طغرل وخلع عليه لقب هملك الشرق والغرب ، (١٠٨٥) . وأخدت الأسر الصغيرة في غربي آسية الإسلامي تسقط أسرة بعد أسرة أمام السلاجقة وتعترف بسيادة بغداد عليها . ولقب الحكام السلاجقة أنفسهم بلقب سلطان ولم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية ، ولكنهم بعثوا في الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيبهم ، كما بعثوا في الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السلم . فل يفعل السلاجقة ببلاد الإسلام ما فعله المغول بعد ماتني عام من ذلك الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التي فتحوها ، ولم يمض عليهم إلا قليل من الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التي أقبلوا عليها ، وألفوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المحتضرة إمير اطورية جديدة ، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت به أن تصمد لذلك النزاع الطويل بين المسيحية والإسلام ، الذي نطلق عليه اسم الحروب الصليبية ، وتخرج منه ظافرة منتصرة .

الفيلالابع

أرمينيــة

(1.7. - 470)

امتدت فتوح الأتراك السلاجقة إلى أرمينية في عام ١٠٦٠ م

لقد ظلت هذه البلاد البائسة قروناً طوالا مطمعاً للإمير اطوريات الكبيرة المتنافسة التي أنشبت فها مخالها ، لأن جبالها حالت بينها وبن اتحادها للدفاع عن نفسها ، بينا كانت وديانها طرقاً ميسرة بين بلاد النهرين والبحر الأسود . واقتتلت بلاد الفرس واليونان لامتلاك هذه الطرق للانتفاع بها في التجارة والحرب، واجتازتها جنود أكسانوفون العشرة الآلاف، واحتربت من أجلها رومة وفارس وبنز نطية والإسلام ، والروسيا وبريطانيا . ولكن أرمينية ظلت مستقلة من الوجهة الفعلية رغم ما حاق بها من الضغط الخارجي أو السيطرة الخارجية محتفظة بما لها من نشاط اقتصادى قوى في التجارة والزراعة ، ومن استقلال ثقافى أثمر فيها دينها الحاص وآدامها وفنونها ﴿ وَكَانَتُ هِي أُولَى الأَمْمِ الَّتِي جَعَلَتَ الْمُسْيَحِيَّةُ دَيْنِ الدُّولَةِ الرَّسِمِي (٣٠٣) . وانحازت إلى جانب اليعاقبة في الجدل الذي قام حول طبيعة المسيح ، وأبت أن تعترف بأنه يجوز عليه من أسباب الضعف ما يجوز على الحسم البشرى . وانفصل الأساقفة الأرمن في عام ٤٩١ عن الكنيستين اليونانية والرومانية وأنشأوا لهم كنيسة أرمنية مستقلة لها رئيسها الحاص . وظلت الآداب الأرمنية تكتب باللغة اليونانية إلى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد حين اخترع الأسةف مسروب حروفاً هجائية خاصة بها وترجم التوراة إلى اللغة الأرمنية ، وأصبح للبلاد من ذلك الحين أدب أرمني غزير معظمه أدب ديني وتاريخي .

وظت تلك البلاد خاضعة بالاسم إلى سلطان الحلفاء من عام ٦٤٢ م إلى عام ١٠٤٦ م ، ولكنها كانت طوال هذه المدة صاحبة السياة على نفسها مستمسكة بمسيحيتها . وأقامت أسرة البجرتوني Bagrtuni في القرن التاسع الميلادى أسرة حاكمة اتخذر ثيسها لقب « أمير الأمراء » ، وأنشأت لها عاصمة ف T نى Ani ، وظلت البلاد فى عهدها أجيالاعدة تنعم بالتقدم والسلام النسبى . وكان أشوت Ashot الثالث (٩٥٢ – ٩٧٧) أسراً محبوباً ، شاد كثيراً من الكنائس ، والمستشفيات والأديرة ، والملاجئ ، ولم يكن يجلس للطعام (كما يقول الرواة) إلا إذا كان الفقراء معه على مائدته . وبلغ رخاء البلاد غايته في عهد ابنه جاجيك Gagik الأول (وما أغرب ما تبدو أسماؤنا نحن للأرمن ﴾ ؛ فقد كثرت فها المدارس ، وأثرت المدن بفضل انتشار التجارة ، وازدانت بأعمال الفن ، وأصبحت قارص مركزاً للأدب وعلوم الدين والفلسفة تنافس فها آنى . وكان في هذه المدينة الثانية قصور فخمة ، وكنيسة كبرى (حوالى عام ٩٨٠) ، جمعت بين الطرازين الفارسي والبنزنطي ؛ فكان فها مجاميع من العمد والأكتاف ، والعقود المستديرة والمستدقة في أعالها ، إلى غير هذه من الحصائص التي دخلت فها بعد في الفن القوطي . ولما أن دمر زلزال قبة أياصوفيا بالقسطنطينية في عام ٩٨٩ عهد إمبراطور بيز نطية إلى تار دات Tardat مهندس كنيسة آنى أن أعيد بناوها ، وكان ذلك واجباً من أشق الواجبات وأعظمها خطورة(٢٢)

الباب لحادى عيشر

أحوال البلاد الإسلامية

(1.04 - 144)

الفيرل لأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل – ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته . فن وراء المظاهر الحارجية لحاشية الملوك والقصور ، والهياكل ، والمدارس ، والآداب ، والترف ، والفنون ، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين في الحضارة ، الإنسان الصياد يأتي بالصيد من الغاب ؛ والحطاب يقطع الأشجار منها ؛ والراعي يرعى قطعانه ويربيها ؛ والفلاح يمهد الأرض ، ويحرثها ، ويزرعها ، ويحصد غلابها ، ويعني بالحداثق ، والكروم ، ويربى النحل ، والدواجن والطيور ، والمرأة تنهمك في مئات الصنائع اليدوية والأعمال المنزلية ؛ والعامل ينقب عن المعادن في باطن الأرض ، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن ؛ والصانع ينتح السلع والأدوات ، والبائع المنازل ، أو صاحب الحانوت ، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق الحائل ، أو صاحب الحانوت ، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما ، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة ؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية ، والمواد الأولية ، والعقه ل لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع . أو لئال الصايرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المهالة المتأرجحة حضارة العالم المزعزعة .

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين في بلاد الإسلام. فكان الرجال يربون الماشية ، والخيل ، والإبل ، والمعز ، والفيلة ، والكلاب ؛ ويسطون على عسل النحل ، وابن الإبل ، والمعز ، والبقر ؛ وينتجون ماثة نوع من الحبوب ، والخضر والفاكهة ، والنقل ، والأزهار . لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي ، وأدخلوها في بلاد الشام ، وآسية الصغرى ، وفلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية(١) . كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروها فى جميع أنحاء الشرق الأدنى ، ومن تلك البلاد نقلهما الصليبيون إلى أوطائهم ٢٦) ؛ وكان العرب أول من زرع القطن فى أوروبا^(٣) ، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جدب قاحل بفضل وسائل الرى المنظم ؛ ولم يجر الحلفاء في الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية للمشروعات الحرة ، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الرى الرئيسية وتتعهدها بالصيانة والتطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمين عند بغداد . وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمىر القرى المخربة والضياع التي هجرها سكانها . وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يعد في أثناء القرن العاشر « إحدى الجنات الأرضية الأربع » - وكانت الثلاث الأخرى هي جنوبي فارس ، وجنوبي العراق ، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشام.

وكانالذهبوالفضة، والحديد، والرصاص، والزثبق، والإثمد، والكبريت، وحجر الفتيلة (الأسبستوس)، والرخام، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض، وكان الغواصون يستخرجون اللؤلؤ من الحايج الفارسي؛ واستخدم

العرب النفط والقار في بعض أعمالهم ، فقد وجد بين محفوظات هرون الرشيد ورقة سجل فنها ئمن النفط والعشب اللذين استخدما في حرق جثة جعفر (١) . وكانت الصناعة لا تزال في مُرحلة العمل اليدوى ، يقوم بها الأهلون فى البيوت والحوانيت'، وينتظمون فى طوائف . وقل أن تعثر فى البلاد الإسلامية في ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث ، ولا نجد دليلا واضحآ على ارتقاء الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحن الهوائية . فالمسعودى أحد مورخى القرن العاشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين في فارس وبلاد الشرق الأدنى ، مع أننا لانجد أثراً لها فى أوروبا قبل القرن الثانى عشر ، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامي إلى أعدائه الصليبين (٥) . وكان العرب على جانب كبر من المهارة الآلية الفنية ، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التي أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش . وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة بابآ يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ، ثم ينسحبون ويغلقون الباب ٢٠٠ : وكان الإنتاج بطيئاً ، ولكن الصانع كان في وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف وأدوات كاملة الصنع ، وكاد يجعل من كل صناعة فنا . واشتهرت المنسوجات الفارسية ، والشامية ، والمصرية بجمالها الفني الرائع الذي كان يتطلب من الصناع مهارة وصبراً ؛ فاشتهرت الموصل بنسيج القطن الرفيع « الموصلين » ، ودمشق بنسيج التيل « الدمقس » ، وعدن بالصوف . واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المستى ؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذى لا يدانيه زجاج في رقته وصفائه ، وبغداد بزجاجها وخزفها ، واأرى بخزفها ، وإبرها ، وأمشاطها ؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون ، وفارس بالرواءح العطرية والطنافس . وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعي والتجارى. لم تصل إلها بلاد أوروبا الغربية قبل الةرن الساس عشر^(۷) .

وكانت أهم وسائل النقل البرى هي ظهور الإبل ، والحيل والبغال والرجال ، لكن الحصان كان بوجه عامأتمن من أن يستخدم في حمل الأثقال ، وفيه يقول أعرابي « لا تسمه حصاني ، بل سمه ولدي ؛ فهو في عدوه أسرع من الربح ومن طرفة العين . . . وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها ع(٨) . ومن أجل هذا كان الجمل « سفينة الصحراء » يحمل معظم تجارة العرب ، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إنى ٤,٧٠٠ جمل تخترق بلاد العالم الإسلامي . وكانت طرق كبرى تتشعع من بغداد وتمر بالرى ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، إلى كاشغر وحدود بلاد الصن ؛ أو إلى البصرة فشنزار ؛ أو إلى الكوفة فالمدينة ، ومكة وعدن ؛ أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق. وأنشئت النزل ، والخانات ، والمضايف ، وصهاريج الماء في الطرق ليستقى منها المسافرون والدواب. وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل في الأنهار والقنوات . وقد فكر هرون الرشيد في حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ، ولكن يحيى البرمكى لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية (١) . وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد ، حيث يبلغ عرضه ٧٥٠ قدماً ، ثلاثة جسور محملة على قوارب .

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين ، وكان من المزايا الاقتصادية التي يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذي كان فيا مضى مقسها بين أربع دول ، فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت في داخلها جميع العوائد الجمركية وغير هامن العوائدتجارية ، هذا إلى أن العرب لم يكونو اكأشر اف الأوربيين يسخرون من التجارويز دروتهم ، ولحذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين والبهود والفرس في نقل البضائع من المنتج إلى المسهلك بأقل ما يمكن من الربح لكلهما ، فغصت المدائن والبلدان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون فعصت المدائن والبلدان على المسهلك المقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون

الجائلون ينادونعلىسلعهم أمام النوافذ الشبكية ، والحوانيت تعرض بضائعها ،. أو تتردد فمها أصداء المساومات ، والموالد والأسواق تغص بالمتاجر والتجار ، . والبائعين ، والمشترين ، والشعراء ؛ والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر ؛ وكانت الثغور أمثال بغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة ، والإسكندرية ، تبعث بالتجار يجوبون البحار . وظلت التجارة الإسلامية هي المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبيَّة ، تنتقل من الشام ومصر في أحد الطرفين إلى تونس ، وصقلية ، ومراكش وأسيانيا في الطرف الآخر ، وتمر في طريقها ببلاد اليونان ، وإيطاليا ، وغالة . وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة ، وتجاوزت بحر الخزر إلى منغوليا ، وصعدت في نهر الڤلجا Volga من أستر اخان إلى نوفجرود ؛ وفنلندة ، واسكنديناوة ، وألمانيا حيث تركت آلافاً من قطع النقود الإسلامية . ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفائنهم من الحليج الفارسي إلى الهند وسرنديب ، نم اجتازت المضيق الذي يفصل بينهما ، وسارت بإز اءالساحل الصيني إلى خنفو (كنتون) ، واستقرت فى هذا الثغر جالية إسلامية وبهودية فى القرن الثامن الميلادى(١٠٠ ۽ ووصل هذا النشاط النجارى الذى بعث الحياة قوية فى جميع أنحام البلاد إلى غايته في القرن العاشر أي في الوقت الذي تدهورت فيه أحوال أوربا إلى الدرك الأسفل ؛ ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبقت آثارها واضحة في كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فها ألفاظاً مثل bazaar, cravan, magazine, tariff**

وكانت الدولة تترك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حدكبر. وكان الحلفاء الأولون يستخدمون النقود البيز نطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك في عام ١٩٥ عملة عربية من الذهب

^{- (*)} اللفظان الأولان من أصل عربي وهما التعريفة والمخزن ، الثالث والرابع من أصل. فارسى . (المترجم)

هي الدينار وأخرى من الفضة هي الدرهم . ويصف ابن حوقل (حوالي ٩٧٥). صكا كان تعهداً بالدفع قيمته ٢٠٠٠ وينار مصدراً إلى تاجر في مراكش ؛ وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check ؛ وكان ذوو المال يستثمرون أموالهم في الأسفار البحرية والبرية ، ومع أن الربا محرم في الإسلام فإن المشتغلين بالشئون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها في هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوربيون فها بعد .

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشرا رغم هذا التحريم ؛ ولم يكد يمضى على موت عمر بن الحطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا فى ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء (١١) م ويقال إن يحيى البرمكى عرض سبعة آلاف ألف درهم (٥٠٠، ٥٠ دولار أمريكى) منا لصندوق للآلى مصنوع من الحجارة الكريمة ، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا التمن ؛ وإن الحليفة المكتفى ، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التى يوردها مؤرخو العرب ، ترك حين وفاته ما قيمته ٥٠٠، ٥٠، دوبار (٤٠٠، ٥٠، ٥٠) دولار أمريكى) من الجواهر والعطور (٢١) . ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بدرة من اللؤلو ، ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحتوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق فى عبد المدعوين كرات من المسك تحتوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق فى عبد

^(•) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الرومانى ديناريوس ، وكان يحتوى على ٥ ه جراماً من اللهب. أو ١٩٥ و من الأوقية : أو ما قيمته و٢٧٥ دولار حسب قيمة اللهب فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ . وسنقدره نحن فى هذا الباب تقديراً تقريباً بسه ٧٠٤ دولارات . أما كلمة درهم فهى مشتقة من كلمة درخمة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة وتبلغ قيمتها نحو ب بهم من الدولار الأمريكي . ولما كان مقدار ما فى الدرهم من الفضة قد تغير كثيراً فإن تقديرة لقيمته تقريبي بطبيعة الحال .

أو جواد ، أو ضيعة ، أو هدية أخرى (١٣) . ولما أن صادر المقتدر و معدد المقتدر ا

وكان مركز العبيد في الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادي . ولربما كان عددهم في الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر منه في المسيحية حيث كان أرقاء الأرض يحلون محل العبيد . ويقول الرواة إن بيت الحليفة المقتدر كان يضم ١١،٠٠٠ من الخصيان ، وإن موسى بن نصير قبض فى إفريقية على ٠٠٠ر ٣٠٠ أسير ، وفي أسبانيا على ٢٠٠٠ر ٣٠ « عذراء » وباع الجميع فى أسواق الرقيق ؛ وإن قتابة قبض فى سجديانا على ٢٠٠٠ أسير . وخليق بنا أن نشر في هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فها كثيراً كما هي عادة المؤرخين العرب ، وإلى أن من واجبنا ألا نأخذها كما هي وقدعمل الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسن حال الأرقاء ، فقصر الاسترقاق المشروع على من يؤسرون في الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم . أما المسلم فلا يجوز أن يسترق (كما لم يكن يجوز فى الدين المسيحي أن يسترق المسيحي) . ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من يقبض علمهم في الغارات ــ كالزنوج من بلاد الشرق ، ومن أو اسط أفريقية ؟ والأتراك أو الصينيين من التركستان ، والبيض من الروسيا وإيطاليا ، وأسبانيا . وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده ، واكنه كان في العادة يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل فى المصانع الأوروبية في القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع ، لأنه كان آمن على حياته منه (١٥) ، وكان الأرقاء يقومون بمعظم الأعمال الدنيا في المزارع ، وبأكثر الأعمال اليدوية التي لا تحتاج إلى مهارة في المدن . وكانوا يعملون خدماً في البيوت ، وكان من رجالهم خصيان ومن النساء جوار في الحريم . وكانت كثرة الراقصات ، والمغنيات والممثلات من الجواري . وكان ابن الجارية من سيدها ، وابن المرأة الحرة من عبدها ، حراً من ساعة مولده . وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناوهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة . وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجواري الذين كان لهم شأن عظم في الحياة العقلية والسياسية في العالم الإسلامي ، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوي والمماليك في مصر .

ولم يبلغ استغلال العال في بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه في البلاد الوثنية أو المسيحية ، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار ، ولا يكسب إلا ما يكني لابتياع خرقة تستر حقويه ، أو إقامة كوخ يعيش فيه ، أو الحصول على طعام لا يكاديةيم أوده . وكان المتسولون كثيرين في البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن ، ولايزال الكثيرون منهم مخادعين مدمين ؛ ولكن الأسيوى الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته في العمل البطيء ، وقل أن يوجد في الناس من يضارعه في تكييف نفسه لمظروف التعطل عن العمل. وكانت الصدقات كثيرة متعددة ، وكان في وسع الفقير إذا صاقت به السبل أن ينام في أحسن بناء في المدينة ــ وهو مسجدها ، ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم تخمد جمرتها قط ، وكاَن لهيبها يندلع من آن إلى آن فى البلاد الإسلامية (٧٧٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٨ ، . ٨٣٨) في ثورات عنيفة . وكانت هذه الثورات تستتر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا في البلاد الإسلامية شيئًا واحداً . وكان منهم شيع كالخرمية والمحيدة تعتنق آراء مزدك الفارسي الشيوعية ؛ ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أى « العلم الأحمر »(١٦) ؛ وقام فى عام ٧٧٧ رجل قى خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل فى جسمه ، وإنه بعث

ليعيد شيوعية مزدك . واجتمعت حوله عدة طوائف ، وهزم كثيراً من الجيوش التي أرسلت القبض عليه ، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس ، ثم قبض عليه أخبراً (٧٨٦) وأعدم . وأثار بابك الحراني الفتنة نفسها في عام ٨٣٨ وجمع حوله طائفة سميت المحمرة ، واستولى بها على آزربيجان ، وظلت في قبضته اثنتين وعشرين سنة ، وهزم عدة بجيوش ، وقتل (على حد قول الطبرى) ، ، ٥٠٥ بجندى وأسير قبل أن بهزم ، وأمر الحليفة المعتصم جلاد بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً ، ثم خزق أمام قصر الحليفة ، وحملوا رأسه إلى خراسان وطافوا به في مدنها (١٩٥٠) ، غير أحرار وغير أكفاء . . .

وكانت أهم (حروب الأرقاء) في الشرق هي التي أثار عجاجها رجل عربي اسمه على (*) ادعى أنه من نسل على بن أبي طالب زوج فاطمة بنت النبي . وتفصيل ذلك أن عدداً كبراً من الزنوج كانوا يعملون في كسح السباخ بالقرب من البصرة ، فأخذ على هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة ، ويحرضهم على أن يثوروا معه على ساداتهم ، ويعدهم بالتحرر من الرق وبالثروة — وأن يكونوا هم مالكين للعبيد . وأثرت فيهم دعوته . ، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد ، وهزموا الجيوش التي سيرت لقتالهم ، وأنشأوا لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعاتهم ، وسجون لأسراهم ، ومساجد لصلواتهم (٨٦٩) . وعرض أصاب العمل أن يؤدوا لعلى خسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقنعهم عبانه العودة ، فأي نوحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عبهم ، ولكنهم حين نفدت مؤونهم هاجموا بلدة الأبلة ، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ، مؤونهم هاجوها وأشعلوا فيها النار (٨٧٠) . وتشجع على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق بلاد أدرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعرف العرب المراق المر

^(*) اخمه على بن محمد . (المترجم)

حتى دق أبواب بغداد نفسها . وتعطلت التجارة ، وقل الطعام فى العاصمة :
وفى عام ١٨٧١ استولى المهلبى قائد الزنوج على البصرة ، وذبح ثلثائة ألف من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال البيض بعضهم من بنى هاشم أنفسهم — إذ صدقنا أقوال المورخين . وظلت نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت فى خلالها عدة جيوش لتقام أظفارها ، وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو ، فخرج على على كثيرون من رجاله ، وانضموا إلى جيوش الحكومة . ثم حوصر من بقى مثم م وضيق عليهم الحناق ، وسلط عليهم الرصاص المصهور و النار اليونانية » ، مشاعل من النفط الملهب ، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير الموقق إلى مدينة الثوار ، وتغلب على ما لقيه من المقاومة ، وقتل علياً وحمل رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته (أسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته (أسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته المقومات الاقتصادية والسياسية فى البلاد الشرقية الإسلامية . وانتهز أحمد بن طولون والى مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية ،

الفصل الشائي الإيسان

يلى المال والنساء فى شهوات الإنسان رغبته فى النجاة من العذاب فى الدار الآخرة . فإذا امتلأت المعدة بالطعام ، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية ، وجد متسعاً من الوقت ينصرف فيه إلى الله .

ولقد كان المسلمون كثيرى التفكير في ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعتهم ، وحكومتهم ، قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويُعطلب الجزء الثانى من هذًا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به ، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، والبعث ، والقضاء والقدر ، ويوم الحساب . وقواعد الإسلام يعد الشهادتين هي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت. ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحى ٥ ولكل أمة رسول» (سورة يونس ٤٨) . ويعتقد بعض المسلمين أن عدة أولئك الرسل ۲۲٤۰۰ ، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله . ولهذا فإن على المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل ، ويعتقد أن ما ورد فهما من وحي الله ، فإذا ما اختلفا عن القرآن في شيء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد . وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتبالساوية ، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسله . والمسلمون ا يعتقلون أن محمداً بشر من خلق الله ، ولكن احترامهم إياه لايقل عن احترام النصاري للمسح ، وفي ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين إنه لو كان حياً في زمان النبي لما تركه يطأ الأرض بقدمه المباركة ولحمله على كتفيه أينها أراد .

والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد في القرآن وحده ، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسن النبوية التي احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون . ذلك أن المسلمين قد واجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جواباً صريحاً في القرآن . كذلك وردت في القرآن آيات متشابهات يخيي معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح . ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبي أو الصحابة وما قالوه في أمثال هذه الموضوعات . ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايهم إلى جمع هذه الأحاديث ، وامتنعوا عن تدوينها في القرن الأول من الهجرة (**) . وأنشأوا مدارس ولم يكن من غير المألوف أن يسافر الواحد منهم من الأنداس إلى بلاد

^(﴿) يقول المؤلف إن المسلمين امتنموا عن تدوين أحاديث الرسول في القرن الأول الهجرى، والحق أنه كان من الصحابة من لايرى تدوين الحديث لكى تكون الهمة مقصورة على القرآن وحده ، ولكن من الحق أيضاً أن تدوين الحديث بدئ منذ فجر الإسلام في القرن الأول ، بل أن بعض ذلك يرجع إلى عهد الرسول نفسه .

لقد جاء في سحيح البخاري أن الرسول أمر فكتبت خطبته التي خطبها يوم فتج مكة ، وفي هذا الباب أيضا نجد أبا هريرة يقول : ما من أحد أحفظ مني لحديث رسول الله صلى عليه وسلم ولا أكثر مني رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبى صلى الله عليه رسلم ولم أكن أكتب . وفي سنن أبي داور ومسند الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شيء أسمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وسلم أريد حفظه فهتي قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الغضب والرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى عليه وسلم فقال : « اكتب ، فوالذي ففسي بيده ما خرج منه إلا حتى ٤ وأوماً بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك ، واجع مسند أحمد ، ج ٢ : ٢٢٠ و ١٩٣ ، سنن أبي داود ، ج ٢ : ٢٢٠ وجامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ، ج ١ : ٢١٠ و ١٩٠ ، سنن أبي داود ، ج ٢ : ٢٢٠ وجامع بيان العلم عبد القدوس ، الرسالة المحمدية طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٧ ه ص ٥٠ وما بعدها .

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته . وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السنن الشفوية إلى جانب القرآن شبهة بالمشنا والجارا اللذين تجمعا حول التوراة ، وفعل البخارى بهذه الأحاديث في عام ٨٧ ما فعل يهودا هاناسي بشرائع اليهود غير المكتوبة في عام ٨٩ ، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامي من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو سيائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقدها ٧٢٧ ونشرها في صحيحة منسوبة في سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبي نفسه .

تُدُنّى الكثير من أحاديث النبي ضوءا جديداً على العقائد الإسلامية . نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتى بمعجزات ، ولكن ثمة أحاديث تروى بعض ما قام به من خوارق العادات : كيف أطعم عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكنى شخصاً واحداً ، وكيف أخرج الشياطين من جسم بعض الناس ، وكيف أنزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة ، وكيف مسس فيابه ضرع ماعز جافة فأدرت اللهن ، وكيف شُفيى المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه .

و عش بعض الأحاديث على حب الأعداء ، وإن كانت آراء عمد في هذه الناحية أشد من آراء المسيح . وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل علمها بعض التعديل (**) كما يعزى إلى عمد حديث يروى قصص الزراع ، وضيوف العرس وعمال الكرم ، وقصارى القول أن رواة الأحاديث قد وصفوا النبي بخير ما نجده في المسيحية من فضائل على الرغم من زوجاته التسع ، ويقول بعض النقاد المسلمين : إن كثيراً من الأحاديث قد دستها على النبي الدعاوة الأموية أو العباسية أو غيرها . وقد اعترف ابن العوجاء الذي أعدم في الكوفة سنة ٢٧٧ أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين الأحاديث المصيحة .

^(*) الصلاة الربانية عند المسيحيين هي التي تبدأ بقولم : أبانا الذي في السموات . . . النع »

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة فى إحدى المجبوعات المتفق على صحبا ، من الصفات التى يمثاز بها المسلمون المتمسكون بديبهم والذين يطلق عليهم اسم السنيين . ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جريل الني عن ماهية الإسلام فيجيبه الني بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الذكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج هي الواجباب الأربعة المفروضة على كل مسلم ، وهي مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله « أركان الإسلام الحمسة » .

ولابد أن يسبق الصلاة الوضوء ، وإذ كانت الصلاة تؤدى خس مرات في اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق . فالإسلام كالهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الحلق ، وها في هذه الناحية يعملان بالمبدإ القائل إن الإنسان لا يعقل الشيء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين : وكان النبي يحدر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ، وعث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة ، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء ، أما تلك الفرائض فهي : غسل الوجه واليدين والقدمين (ورسورة المائدة ٢) وعلى الحدنب أن يستحم ، وعلى المرأة التي خرجت من المحيض ، أو الوضع ، أن تنظهر قبل الصلاة . ويصعد الوذن في بلاد الإسلام المئذنة عند طلوع الفجر ، وفي منتصف النهار ، ووقت العصر ، وعند غروب الشمس ، وفي المساء ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله ألم الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أل محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أل محمداً رسول الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا محمداً رسول الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أله مداً رسول الله ، أشهد أله و أله الله ، أشهد أله و أله الله و أله الله الله و أله و أ

⁽ الآرجم) ومسع الرأس . (الآرجم)

أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ألا ما أقوى هذه الدعوة ، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس ، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة ، وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله في سكون الليل ، ولما أحلى وقع صوت المؤذنين على الآذان ، آذان المسلمين وغير المسلمين ، وهم يدعون النفوس الحبيسة في الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل ، وتتصل به ذلك الاتصال الروجي الجليل . فني هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم في جميع بقاع الأرض أن يقف كل عمل أيا كان ، ويتطهر ، ويولى وجهه نحو مكة والكعبة ويقيم الصلوات القصيرة ، بنفس الصورة الدقيقة التي يؤديها بها فيره من المسلمين ، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة في حركتها الظاهرة حول الأرض .

فن أمكنه وقته ، وشاءت إرادته ، ذهب إلى المسجد يؤدى الصلاة ، والمساجد تظل فى العادة مفتوحة الأبواب طول النهار ، يؤمها كل مسلم صالح أو زندين ليتوضأ أو يصلى أو يستريح . وهناك محت سقفها الظليلة كان المدرسون يعلمون التلامية ، والقضاة يفصلون فى الحصومات ، والحلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها ليتحدثوا فى كل ما يعنهم ، وي تتمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا فى الأعمال التجارية والمالية فى بعض الأحيان . ذلك أن المسجد كان كالبيعة عند اليهود ، والكنيسة عند المسيحين ، مركز الحياة اليومية ، والبيت العام المهجدم كله . وفى يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها يقوم المؤذن ويصلى على النبى ويدعو الأسرته وإلى الصحابة ، ويدعوم يقوم المؤذن ويصلى على النبى ويدعو الأسرته وإلى الصحابة ، ويدعوم

المسلمين إلى الصلاة (**). ويستحب في هذا اليوم أن يستحم المصلون ، ويلبسوا أثواباً نظيفة ، ويتعطروا ، قبل المجيء إلى المسجد ، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن علمم أن يتوضأوا في المسجد (***).

وُقد جرت العادة أن تبتى النساء في بيوتهن حنن يذهب الرجال إلى المساجد ، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن ! التوجه بأرو إحهم كلها إلى الله . ويترك المصلون أحديثهم عند باب المسجد ، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب ، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنبًا إلى جنب صفا واحدًا أو عدة صفوف ، وولوا وجههم نحو المحراب. الذى يعنن موضع القبلة أو اتجاه مكة . ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن ، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات . وليس في صلاة المسلمين أناشيد ، أو مواكب ، أو قداس ، أو مقاعد مستأجرة ، ذلك أن الدين والدولة شيء واحد عند المسلمين ؛ وهذا فإن الشتون الدينية ينفق علمها من الأموال العامة . وليس الإمام كاهنا كالقسعند المسيحيين بلهو رجلعادى يكسب قوته بعمل دنيوى يوَّديه، ويعن في المسجد فترة من الزمان، ويتقاضي أجراً قليلا ليوم المصلن (+) ؟ فالدين الإسلامي لا يعترف بالكهانة والقسوسة . والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أزاد منهم أن يؤدى عمله المعنادكما يؤديه فى أى يوم آخر. وحسهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

^(﴿) يحدث هذا أحياناً ولكن الآذان الشرعى مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادة . (ى)

^(**) ليس على المسلم أن يُتوضأ في المسجد بل الذي عليه أن يكون متوضئا قبل الصلاة في البيت أو في المسجد عل حد سواء .

^(†) ومن الأثمة من لا يتقاضى أجراً . وفى الصلوات الحسس يستطيع أى إنسان أن يؤم. المصلين إن كان أهلا لهذه الإمامة . (المترجم)

المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية ، وتألفت قلوبهم من حيث الايشعرون باشتراكهم في هذه الشعائر العامة .

والواجب الثانى المفروض على المسلم هو أداء الزكاة . لقد كان النبى ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح ، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحا اجتماعيا اشمأزت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقر عامة الشعب ، ويبدو أن معظم أتباعه في أولى الأمر كانوا من الفقراء .

وكان من أول ما قام به من الأعمال في المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف في المائة على جميع الأملاك المنقولة ، لمعونة الفقراء (*). وكان في الدولة الإسلامية موظفون يختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها . وكان جزء من حصيلتها ينفق في بناء المساجد ، وفي أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيوش . ولكن الحرب كانت تأتى بالغنائم التي تزيد كثيراً من نصيب الفقراء . وما أكثر ما يُروى من قصص المسلمين الأسخياء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء ، فالحسن بن على مثلا يروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات في حياته وأنه في مرتين وهمهم كل ما يملك .

والواجب الثالث على المسلمين هو صوم رمضان. ونقول هنا إن الحمر ، والميتة ، والدم ، ولحم الجنزير ، والكلب ، محرمة بوجه عام على المسلمين ، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية ، فهو يبيح أكل الطعام المحرم . عند الضرورة ، وسئل محمد مرة عن جن لذيذ يحتوى على لحم محرم ، فقال

 ^(*) فرخمت الزكاء بالمدينة حقا وفى السنة الثانية من الهجرة ، ولكمها لاتسمى ضريبة بل تسمى « زكاة » ومعى الزكاة فى اللغة : الطهارة والتماء والبركة ، وإخراج المقدار الواجب شرعا يطهر به مال المزكى وينميه حقا .

أما المقدار الذي ذكره المؤلف وهو اثنان ونصف في المائة فهو زكاة المال النقدي ، وفي سائر الأموال كالزروع والثمار والحيوان مقادير أخره محددة معروفة في كتب الفقه . (ي)

ظلسائل : ٥ اذكروا اسم الله وكلوا(*) ٥ . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم الرهبنة على المسلمين (سورة الأعراف ٣٢) فقد أحل للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فها . ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوىبذلك إرادتهم من جهة ، ولتصح به أجسامهم من جهة أخرى . وكان النبي بعد أن أقام في المدينة بضعة أشهر قد رأى البهود يصومون صومهم السنوى فأمر أتباعه أن يحذوا حدوهم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام ، فلما تبين أنه لم يستعلهم إليه استبدل به صوم رمضان ، فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوما في بعض السنين وثلاثون في بعضها الآخر أمسك المسلمون في أثناء النهار عن الطعام والشراب ، والتدخين وعن الصلات الجنسية . وأبيح الإفطار للمرضى ، والمسافرين المتعبين ، والصغار ، والشيوخ الضعاف ، والحاملات والمراضع ، ولما فرض الصيام في أول الأمر كان شهر رمضان في فصل الشتاء حين يقصر النهار ، ولكن رمضان يقع في فصل الصيف كل ثلاث وثلاثين سنة ، فيطول ويشتد الظمأ في حر البلاد الشرقية حتى يكون أشبه شيء بالعذاب . ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام . ويفطر المسلمون أثناء الليل فيأكلون ، ويشربون ، ويدخنون ، ويباشرون النساء حتى مطلع الفجر ، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل تؤممها الجاهير ليَّأْكُلُوا ويستمتعوا ، والفقراء يعملون كعادتهم في أيام الصوم ، أما الأغنياء فَقَى وسِعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم في أثناء النهار .

ويقضى الأتقياء الصالحون الليالى العشر الأخيرة من رمضان فى المساجد

^(﴿) عن ابن عبّاس قال : جيء إلى النبس صلى الله عليه وسلم بجبنة في غزاة فقال : أين صنعت هذه ؟ قالوا : بفارس ، ونحن نرى أنه يجعل فيها ميئة ، فقال : اطعنوا فيها يسكين ، وأذكروا اسم الله وكاوا . رواء أحمد والبزار والطبراني ، وواضح هنا أن ذلك كان نضرورة وهي النزاة . (المترَجم)

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبي في إحدى هذه الليالى ، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خبر من ألف شهر ، وإذ كانوا لا يعرفون أى الليالى العشر هي ليلة القدر فإن كثيراً من المسلين يحيونها كلها . فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر ، فيستحمون ، ويلبسون ثياباً جديدة ، ومنى به بعضهم بعضا ، ويخرجون الزكاة ، والهدايا ويزورون قبور الموتى .

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحنج . ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة فى بلاد الشرق ، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون فى يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان قبل النبي بزمن طويل يحجون إلى الكعبة ، وأقر الإسلام هذه السنّة القديمة ، وكان هذا الإقرار من الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية . ويدلك أصبحت الكعبة ، بعد أن طهرت من الأصنام ، بيت الله . وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها ، كما استطاعوا (قلم) ولكن سرعان ما فمن هذا بأنه يعنى مرة فى العمر . ولما أن انتشر الإسلام فى أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم ، وفى مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط .

وقد وصفدوتي Doughty، وصفا لايضارعه فىروعته وصفسواه ، منظر قافلة الحجاج وهى تجتاز الصحراء فى حر الشمس اللافح، ولهيب الرمال المحرقة ،. وتتألف من سبعة اللاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد ، راجلين.

 ⁽ س الحج إلا مرة واحدة في العمر .

ولعل المؤلف قد أغد قوله هذا من إضافة « من استطاع إليه سبيلا » إلى الركن. الخامس من أركان الإضلام ، وهو فهم خاطئ بلا شك ، إذ المقصود بهذه العبارة أن يؤدى. الغريضة من يستطيع ، أى من "مكنه من أدائها حالته العبسمية ومواره وغيرها من طروفه . (المترجم)

أو ممتطين صهوة الجياد ، أو ظهور الجمير ، أو البغال ، أو الهوادج الفخمة ، ولكن كثرتهم الغالبة تهتز على ظهور الإبل ، وتنحى بأجسامها في كل خطوة من خطواتها الطويلة . . . وتسجد خمسن مرة في كل دقيقة أرادت ذلك أو لم ترده في اتجاه مكة ، مجتازة ثلاثين ميلا في اليوم ، وخمسن ميلا في بعض الأحيان ، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها الستريح . وفي هذا السير الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون ، ومنهم من يموتون فيتركون (*) تنهشهم السباع المترصدة في الطريق ، أو يحتضرون فيتركون الموتوا على مهل ، ويزور الحجاج في المدينة قبر النبي ، ويشهدون قبر أبي بكر وقبر عمر في مسجد الرسول ، ويعتقد بعضهم أن في جواز هذه القبور مكان احتفظ به لعيسي بن مرسم .

فإذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها حرم مقدس. ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثواياً بيضاء غير مخيطة ، ويركبون أو يسيرون على أقدامهم مسافة طويلة ، يبحثون عن مساكن لحم في أحياء المدينة (١٩١٤). ويفرض عليهم طوال إقامتهم في مكة أن يمتنعوا عن جميع المنازعات ، وعن العلاقات الحنسية ، وعن كل ما هو حرام (١٠) ، وتصبح البلدة

⁽ م) لا شك فى أن هذا الوصف لا ينطبق كله على الكثرة الغالبة من الحجاج فى هذه الأيام أيام الطائرات والسيارات والعلرق المعبدة ووسائل الراحة المهيأة لحميع الحجاج . (المترجم) في الرحم) يحتاج هذا الوصف إلى شيء من الدقة ، فإن كون مكة حرما مقدسا لايمنع أن يدخلها الحجاج بقوافلهم ، بل هذا ما يحدث فعلا ، ثم إن الإحرام يكون قبل ذلك لا بعده وله مواقيت - وأمكنة معينة ممروفة لايجاوزها الحاج إلا محرما مهما كان البلد الآبى منه ، وأقربها إلى « مكة » بينه وبينها مرحلتان (راجع مثلا دور الحكام المقاضي مثلا خسرو الحنفي ج ١ ص ٢١٨) .

^(†) ليس فرضا على الحبناج الامتناع عن الصلات الجنسية طول مدة إقامته بمكة ، بل ذلك يكون ما دام محرما فقط ، كما هو معروف في كتب الفقه (انظر التعليق السابق) هذا وليس الامتناع عن الهرمات مقصورا على أيام الحج ، بل هو مفروض على المسلمين في جميع الأوقات . (ى)

المقدسة في أشهر الحج ملتى المسلمين من كافة الأمم ، والأجناس والطبقات ، يشتركون كلهم على قدم المساواة في مناسك الحج وفي الصلاة ، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنبات شغلهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التي فوق الجدران ، وعما فيه من عقود وعمد . وعند بثر زمزم التي يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين ، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومها يكن تأثيره ، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى وطنه ليشرب منه في بعض أيامه وحين تحضره الوفاة (**) . ويصل الحجاج الحر الأمر ، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب ، إلى قلب المسجد ، إلى الكعبة في سقفه ، ومكسوة جدرانه الحارجية بكسوة من الحرير الثمين ، وفي أحد أركانه الحجر الأسود الشهير . ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ، ويقبل الحجر الأسود أو يلمسه أو ينحني تعظيا له . ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها في داخل المسجد غير عابتين بما عانوا من شدة التعب والسهر ، يجلسون على أبسطته يتحدثون ، ويصلون ويفكرون في دهشة ونشوق في الغرض الذي جاءوا من أجله .

وفى اليوم الثانى (** يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة ، وهما فى خارج المدينة ، إحياء لذكرى هاجر وهى تُبحث عن الماء لتروى به ولدها . وفى اليوم السابع يخرج من يبغون و الحج الأكبر ، إلى جبل عرفات الذى يبعد عن

^(*) من الحجاج من يصر على التزود من ماه زمزم والاحتفاظ بثى منه في عودته إلى. بلده ولكنا لانعلم ولا نظن أن منهم من يستبقى شيئا منه لهشربه حين تحضره الوقاة . (ى > (**) السمى بين الصفا والمروة لا يكون في اليوم الثاني من الوصول إلى مكة ، بل إن هذا السمى واجب يوم وصوله إليها وطوافة بالكعبة بالمسجد الحرام . وهذا الطواف يسمى طوافعه القدوم أو طواف التحية أيضا (راجع الكتاب السابق ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٤) . (ى)

كة مسرة سبع ساعات – وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات (على على مقون وهم عائدون في منتصف الطريق ويقضون ليلة في المؤدلفة . . وفي اليوم الثامن بهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاثة أعمدة ، اعتقاداً مهم بأن إبراهم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حيا حاول أن يثنيه عن ذبح ولده . . . وفي اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرها من الماشية ذات القرون ، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات (على) وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبي نفسه في مثل ذلك الوقت من حياته ، والمسلمون في جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح في هذا اليوم العاشر من شهر العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح في هذا اليوم العاشر من شهر شعورهم ويقصون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا في الرمال ، وبذلك ينتهي ألحج الأكبر ، ولكن الحجاج في العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل الحج الأكبر ، ولكن الحجاج في العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى مخيم القافلة . وهناك يعودون إلى حالهم الأولى ويلبسون أنا يعودوا إلى معنم القافلة . وهناك يعودون إلى حالهم الأولى ويلبسون على صالح .

ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة . فهى تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم ، وتمكن الصلة مهذا العمل العاطني الحياعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين ، شأنها في هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم ، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى رومة . فالحج وما ينطوى عليه من مناسك التي

^(•) يخطب الإمام في موسم لميج ثلات خطب ، ولكل منها مناسبة يعلم الحجاج فيها ما هم مقبلون عليه من الحج وأعمائه وليس منها خطبة واحدة تدوم ثلاث ساعات ، والذين بدرسون المفقه الإسلامي وسيرة الرسول . ، يعرفون أن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم . كانت متجمع بين الإيجاز وكل ما تجب معرفته .

⁽ه. ه) . لا تكون الأضعية في اليوم الثامن من ذي الحجة بل تكون في اليوم العاشر أي. يوم العيد كما هو معروف .

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء ، وبين البربر وزنوج إفريقية ، والشوام ، والفرس ، والأتراك ، والتتار ، والهنود المسلمين ، والصينيين والمصريين ، وغيرهم من الشعوب الإسلامية — يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة ، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة العربية ، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام ، وقد ببدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التي لا تنطبق على العقل . ولكن المسلم يبتسم حين يرى أمثال هذه العادة في الأديان الأخرى ، ويهوله أن يرى المسيحين في إحدى شعائرهم ﴿ يأكلون الله » . فالمسلمون ويهوله أن يرى المسيحين في إحدى شعائرهم ﴿ يأكلون الله » . فالمسلمون ورحى ، وفي الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام . ووحى ، وفي الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام .

والأديان جميعها مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فها طائفة من الحرافات لا صلة بيها وبن مبادئها الأولى ، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التي خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح في كفاحها للخلود . لهذا نرى أن معظم المسلمن (المحلون بالسحر الخبوءة ، يشكون في قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز الخبوءة ، وغرس الحب في النفوس وتعذيب الأعداء ، وشفاء المرضى ، واثقاء الحسد . ومنهم من يعتقد في قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك العقائد هي الحور الذي تدور عليه قصص ألف ليلة . ففيها ترى الأرواح في كل المحان بحسات ما لا يشهن من الأبناء ويلبس معظم المسلمين مما المبين من الأبناء ويلبس معظم المسلمين من المبين المروب وعيم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون نصف المسيحين تما مم الرد عنهم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون نصف المسيحين تما مم الرد عنهم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون

^(﴿) يقصد المؤلف بقوله معظم المسلمين غير المتعلمين . ويلاحظ أنه يقول : إن هذه كلها المست من الدين بل هي من الحرافات التي لا صلة بينها وبين مبادئه الأولى . (المترجم) (﴿ ﴿) أَصِيحَ مَن هَذَا أَنْ يَقُولُ : عامة المسلمين أو جهالهم الذين بؤمنون بالسحر كما يؤمن و يه الجهال في كل أمة . (المترجم)

أن من الأيام ما هو معد ومنها ما هو نحسن ، وأن الأحلام قد تنبي عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان فى الأحلام . ويؤمن العامة فى مختلف بلاد المسيحية بالتنجيم ؛ مختلف بلاد المسيحية بالتنجيم ؛ فقد رسمت خرائط للسياء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوراً على معرفة اتجاه القبلة فى المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، هذا و فاك وقت مولده :

والدين الإسلامي (١٩٥٠)، وإن بدا للعالم الحارجي وحدة قوية شاملة خالية من الفروق في شعائره وعقائده ، قد انقسم من أقدم العهود شيماً لا تقل في عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية . ومنها المرجئة التي تعتقد أن ذوو النزعة الحربية المتزمتة الدمقراطية ، ومنها المرجئة التي تعتقد أن المسلم لا يقضي عليه بالعذاب الدائم في الدار الآخرة ، وألجرية التي تنكر حرية الإرادة ، وتعتقد أن الإنسان مسير في كل شيء وفق ما قدر له منذ الأزل ، والقدرية التي تومن بحرية الإرادة وتدافع عنها ، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها ، وحسينا أن نُحييً فيها إخلاصها لمبادئها وسعة علمها . لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم في التاريخ ، تلك هي طائفة الشيعة . فهولاء قضوا على الحلاقة الأموية ، واستولوا على بلاد الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الآثر في الأدب والفلسفة » الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الآثر في الأدب والفلسفة » ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل على وولده الحسن وأسرته ، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمداً نبياً له ورسولا ، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الحلفاء ما عدا علياً ، هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الحلفاء ما عدا علياً ،

مغتصبون لاحق لهم إنى الحلافة ؟ وقد اغتبطوا حن ولى على الحلافة ، وحزنوا لمقتله ، وروعوا لمقتل الحسن . وأصبح على والحسن بعد موتهما في رأيهم من أولياء الله الصالحين ، وهم يعظمون ضريحهما تعظيا لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول . ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليود والمسيحين الحاصة بالمسيح المنتظر ، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس اى تجسد القديسين مراراً بعد موتهم حفقالت إن أبناء على هم الأثمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية . وهي ترى أن الإمام الرضا ، ثامن أولئك الأثمة الذي يقوم ضريحه في مشهد بشهالي فارس ، هو « مجد العالم الشيعي » : وقد حدث في عام ٧٧٨ أن اختنى الإمام الثاني عشر محمد بن حسن وهو في الثامنة عشرة ، فاعتقد الشيعة أنه لم يمت ، ولكنه سيعود في الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة ؟

وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء (**) يفوق عداءها لمن يعيش في البلاد الإسلامية من الكفرة ، شأنها في هذا شأن الفرق المختلفة في سائر الأدبان (بيبهها و ولقد كان أهل الذمة المسيخيون ، والزردشتيون ، والبهود ، والصابئون ، يستمتعون في عهد الحلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام . فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زى ذي لون حاص وأداء فرضة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله و تتر اوح بن دينار وأربعة دنانير (من ٥٧ر٤ إلى ١٩ دولاراً أمريكياً) . ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حل السلاح ، ويعني منها الرهبان

^(*) إذا كان العداء قد استحكم في يوم من الآيام بين بعض الفرق والبعض الآخر فإنه لم يكن بالشدة التي يصفه بها المؤلف ، ومها يكن هذا العداء في الماضي فإنها الآن تعيش في وثام وقلما يعرف الرجل العادي إلى أي الفرق ينتمي زملاوه ومواطنوه . (المترجم) (**) لا نعلم من تاريخ الإسلام وما نشأ فيه من قرق مختلفة ، أن فرقة من هذه الفرق كانت تشمر نحو غيرها بعداء يفوق عدامها الكفرة الذين يعيشون في البلاد الإسلامية . (ي)

والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ، والعمي والشديدو الفقر . وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيا – ولا تفرض عليهم الزكاة الحالغ قلىرها اثنين ونصف في المائة من الدخل السنوى ، وكان لحم على الحكومة أن تحميهم ، ولم تكن تقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية ، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم ، وقضائهم وقوانينهم ، كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم ، وقضائهم وقوانينهم ، الحلفاء الراشدون أشداء عليهم (*) ، وكان الأمويون يعاملونهم باللن بوجه عام ، والعباسيون يعاملونهم باللن تارة وبالقسوة تارة أخرى . وقد أخرج علم عبر بن الحطاب الهود والمسيحين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام عبر بن الحطاب الهود والمسيحين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام المقلسة ، وتعزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة «عهداً » قيد فيه حقوقهم بوجه عام ، لكن هذا العهد ، إن كان قد عقلا ، قد أغفل العمل به ، وظلت الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربي .

وكاناليهود فى بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الدين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين ، إلا أنهم فى عهدهم قد فرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حين إلى حينٍ ، غير أنهم مع هذا كانوا يعاملون على قدم المساواة

^(﴿) من العجيب أنّ يذكر الكاتب أن الخلفاء الراشدين كانوا يعاملون بالشدة اللميين الذين يعيشون في البلاد الإسلامية . إن الدين نفسه يجعل لحوّلاء اللميين كل ما لنا من حقوق ويجعل عليهم ما علينا من واجبات ، والقرآن الكريم يحثنا على مودة المخالفين لنا في الدين ما داموأ مسالمين . وعناية عمر بن الخطاب بعد الخليفة الأول أبي بكر الصديق بغير المسلمين من أهل الذمة معروفة. غير خافية . لقد جعل الفقراء المحتاجين منهم ما يكفيهم هم وعالم من بيت المسال . على أن الكاتب نفسه ذكر قبل ذلك بسطور أن أهل اللمة كانوا ينمون في عهد الأمويين بدرجة من التسامح لا نجد لها بظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام ، ومعروف أن الأمويين كانوا على عصبية شديدة أحيانا لغير العرب حتى ولو كانوا من المواني المسلمين . (ى)

مع المسيحين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفى ممارسة شعائر دينهم فى بيت المقدس ، وأثروا كثيراً فى ظل الإسلام فى آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل نحت حكم المسيحين . وكان المسيحيون في بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجُزيرُة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامي . ويحدثنا المؤرمجون أنه كان فى بلاد الإسلام فى عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار . وكان المسيخيون أحراراً في الأحتفال بأعيادهم علنا ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية فى فلسطىن ، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كَبِرَّرة فى الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر الميلادي ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذًا . وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البرنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشلم ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الدين لم يكونوا يجدُون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه ، ولقد ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية فى القرن التاسع الميلادى حرسا خاصا ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضا في الكنائس . وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم فى الزراعة ، وفى إصلاح الأراضي البور ، وكانوا يتلوقون النبيذ المعصور من عنب الأديرة ، ويستمتعون في أسفارهم بضيافتها ، وبالحت العلاقة بين الدينين فى وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان علىصدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أُصَدقائهم المسلمين. وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية تضم مثات من المسيحيين ، وقد باغ عدد الذين رقوا مهم إلى المناصب الغليا في الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود . فقد كانسرجيوس والدالة ديس يوحنا الدمشقى خازن بيت المال فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذى كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون فى بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وعلى الرغم منخطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين ، والوثنيين إلا عددا قليلًا جداً منهم ، وكثيرون من اليهود فى آسية ، ومصر وشالى أفريقية . فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة ، وكان في وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان . واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم ، ولبسوا الثياب العربية ، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام . وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلمة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى ، في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمساكا أنسياهم بعد وقت قصىر آلهتهم القدامى ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مثات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين ، وأندونيسيا ، والهند ، إلى فأرس ، والشام ، وجزيرة العرب ، ومصر وإلى مراكش ، والأندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم بوس الحياة ومتاعبها ، وأوحى إليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الأيام نحو ثلثًاثة وخمسين مليونا من الأنفس ، يوحد هذا الدين بينهم ، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية .

الفصل لثالث

الشعب

كان العرب في عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من اللولة . وكان جميع اللكور القادرين من أبناء العرب ، يخضعون ، في نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية ، يدعون إليها في أي وقت من الأوقات . وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النتي في زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى. وكان العربي يحرص أشد الحرص على أن يضيف إليه اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلاً ، وكان في بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته ومُوطَّنه الأصلي، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلا : أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدى. غير أن نقاء الدم لم يلبثأن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جوارى من أهل البلاد المفتوحة ، وأدخلوا أبناءهم منهن في زمرة العرب ؛ ولكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل . وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل ، في أثواب من الحرير الأبيض ، وسيوفهم مشرعة بأيديهم . أما العامة فكانوا يخرجون فى سراويل مننفخة ، وعمامات مطوية ، وأحذية ذات أطراف رفيعة . واحتفظ البدوى بجلبابه الفضفاض ، وشاله ومنطقته ، وقد نهمي النبي عن لبس السراويل الطويلة ، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا ، وكانت جميع طبقات الشعب تزدان بالحلى ، وكانت الإناث يستهوين الذكور يصديرياتهن ، ومناطقهن الرَّاقة ، ونُقهن (** الواسعة الزاهية اللون ، وكن يعقصن شعرهن على جباههن ، أو يرسلنه على جانبي رووسهن ، أو يجدلنه

⁽ ه) النقب جمع النقبة وهي ثوب كالإزار تجمل له حجزة مطيفة وهي akirt بالإنجليزية . (المترجم)

غدائر تنوس على ظهورهن ؛ وكن أحياناً يكثرنه بجنوط سوداء من الحرير ، وفى أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأؤهار. وأخلن بعد عام ٧١٥ يغطين بالنقاب وجوههن أسفل عيونهن ، وازداه انتشار هذه العادة تدريجاً بعد ذلك العام ، وبهذا كان فى وسع كل امرأة أن تكون قائنة جذابة ، لأن عينى المرأة العربية مهما يكن سها جميلتان تسبيان العقول . والفتاة الفربية تبلغ الحلم فى سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً فى سن الأربعين ، وهي بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء .

والمسلم لا يحترم العزوبة ، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ، ولا يرى أن هذا الامتناع حال طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأيناء : وحدود الزواج أوسع في الإسلام منها فى كثير من الأديان ، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ، ولهذا قل البغاء في أيام النبي والخالهاء الراشدين . ولكن الانهماك فى إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنبيه ، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح لهن شأن كبير في حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً , وإذ كان المقصود من الآداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم ، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور فى البلاد المسيحية ؛ فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل ، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المڤوية للباء(٢٤٠) . والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط ، واكن ازدياد النَّروة خفف عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة ، وغض الحكام البصر في كثير من الأحيان عن اللواط(٤٣) . ونشأت طائفة من المختنين المحترفين تشبهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم ، يضفرون شعورهم ، ويصبغون أظافرهم بالحناء ويرقصون الرَّقص الخليع (٤٤) . وعاقبهم سليان بن عبد الملك بإخصاء من كان في مكة من المخنثين ، وأبصر الهادى امراتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

على الفور (٥٠). ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث في بلاط هرون الرشيد، وفي قصائد شاعره المحبوب أبي نواس ولما يمض على زمن الحادى إلا بضعة أعوام. ذلك أن الرجل الذي حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج، وملهن بعده، عد إلى العلاقات الجنسية الشاذة، والمرأة التي حجها أهلها عن جميع الرجال زلت هي الآخرى فسقطت فيا سقط فيه الرجل

وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللواط في البلاد الإسلامية . لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون مها على الدوام ، وقد ثاروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزي لهــا بإثارة الشكوك التي يثيرها الله كور عادة حول فضيلة المرأة وقوة عقلها . وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهن(٤٦) ، ولكن المسلمين في الڤرن الأول من التاريخ الهجرى لم يحجبوا النساء ، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران في الشوارع جنباً إلى بجنب، ويصليان معاً في المساجد(٢٧) ، وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعاسها مصعب في ذلك فقالت و إن الله تبارك و تعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله علمهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرنى مها أحد، (٩٨٪ . ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان في أيام الوليد الثاني (٧٤٧ - ٧٤٤) . وكان منشأ عادة عزلة النساء في بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس . وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصف به الرجل فى الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال ، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه ، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن في البيوت ، فحرم عليهن أن يسرن في الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات ، وكان في وسعهن أن تتز اورن ، ولكن ذلك كان فىالعادة داخل هودج مسجف، ولم يكن أحد يراهُن خارح البيوت أثناء الليل . وكان يفصلهن عن الرجال في

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص ، ثم انتهى الأمر بمنعهن منها منعاً باتاً (٤٩) ، وأصبح الدين الذي وصف في العالم المسيحي اللاتيني بأنه لا بد منه للأناث ، وأنه ضروري لهن لا يزيد عليه في ذلك إلا الغريزة الجنسية ، نقول أصبح الدين في العالم الإسلامي ، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة ، وقفاً على الذكور دون الإناث ، وكان أشد من هذا قسوة عليهن ، متعهن من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهن منها ، فكن يبعثن إليها من يقضى حاجاتهن ، وكان البائعات المتنقلات ، وكن فى العادة من النساء يأتمن إلمهن ليعرضن عليهن بضائعهن في داخل البيوت ، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا ، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائه ، وأقاربه الأدنىن ؛ وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمع له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن : وكان في هذا النظام مرضاة للرجل ، فهو في البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع ، ويجعله في خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة . أما عن ألنساء أنفسهن ، فإنا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضَن في العزلة أو في النقاب ، بلكن يستمتعن بما في جناح الحريم من سرَّية ، وطمأنينة ، وراحة ، وكن يغضن إذا فرط أزاجهن في واجب المحافظة على عزلتهن ، ويرين فى ذلك إهانة لهن(٥٠) ؛ وظلت الزوجات الشرعيات يضطلعن من سجنهن الظاهرى بقسط موفور فى مجريات الحوادث التاريخية ، وكان لخنزران أم الرشيد ، ولزوجته زبيدة فى القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان ، وكانتا تستمتعان بكثير من الأمهة والسلطان ه

وقلهاكان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة ، وقليلا من سورالقرآن ، والفنون المنزلية . أما نساء الطبقات العليا فكن يتلقين تعليها متسع الآفاق ، يقوم به في العادة معلمون خصوصيون ، ويتلقينه أحياناً في المدارس والكليات (٥١) ، وكن يتعلمن قرض الشعر ، والموسيق ، وضروباً من أشغال

الإبرة ؛ ومنهن من تبحرن في العلوم واشتغلن بالتدريس . واشتهر عدد منهن في أعمال البر المستنبرة . وكن يربين على الحفر اللائق بعاداتهن ؛ فإذا فوجّن في الحيام أسرعن بتغطية وجوههن (الله على الحقيم عدم احتشام الأوربيات اللائي يدهين إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية ، ويعانقن الكثيرين من الزجال أثناء الرقص ؛ ويعجن من رحمة الله الذي يمهل تلك النسوة الآثمات فلا يأخذهن بذنوبهن ويهلكهن لساعتهن (٥٢) .

وكانت شون الزواج يتولاها الآباء ، كما يتولونها في معظم البلاد المتمدينة ، فقد كان من حتى الوائد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد ؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تمختار . وكانت البنات يروجن في العادة قبيل سن الثانية عشرة ، ويصبحن أمهات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومهن من كن يتزوجن في سن التاسعة أو العاشرة ، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة في سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة . وكان نقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبتى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث . وقلما كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج . وكان يدخل بها بعد تمانية أيام أو عشرة من عقده عليها ؛ وليس الزواج في حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه عليها ؛ وليس الزواج في حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه دعاء قصير ، ويصحبه في بعض الأحيان موسيقي ، ووليمة وبعض الهدايا ، وإضاءة منزل العريس والشارع الذي هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه وإضاءة منزل العريس والشارع الذي هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زجته الحاصة ، ويرفع النقاب عن وجهها وهو يقول و باسم الله الرهن الرهم و (١٥)

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر ، كان في وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هي ومؤخر صداقها . وكان معنى تعدد الزوجات

 ^(•) لاشك أن هذه إحدى الفكاهات التي يلجأ إليها المؤلف في كثير من المواضع .
 (المترجم)

في الإسلام في أكثر الأحيان أن تتلو الواحدة مهى الاخرى ، ولم يكن معناه الجمع بينهن فى وقت واحد ، ولم يكن يستطيع ذلك الجمع إلا ذوو الثر اع^{ربه)} . وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من الأزواج واحدة بعد واحدة ، ويقال إن ابن الطيب ، وهو صباغ في بغداد ، عاش إلى أن بلغ الحامسة والثمانين من العمر ، وتزوج من تسعائة زوجة (٥٦) . وكان في وسع المسلم ، فضلا عن زوجاته ، أي يكونُ له أى عند من الجواري ، وكان لمرون الرشيد عدد كبر منهن ، وكان للمتوكل أكثر مما كان لهرون(٥٧٦ ، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقي والغناء ، وفنون فتنة الرجال ، ثم يبيعونهن بأثمان عالية قد تصل إلى ماثة ألف درهم (نحو ٨٠,٠٠٠ دولار أمريكي) (٥٨) . ولكن ليس من حقنا أن نظن أن بيت الحريم كان ماخوراً خاصاً . فقد كانت الجوارى يصبحن في أغلب الأحيان أمهات ، يفخرن بمن يلدن من الأبناء ، وبعدد الذكور منهم ، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من الحب الصادق الأكيد . وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام ويرينه من الأمور الطبيعية ، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار (٥٩) ؛ وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوى من الأبناء بقدر ما تحتويه ضاحية لإحدى المدن الأمريكية . من ذلك أن أحد أبناء الوليد الأولى كان له ثمانون ولداً وعدد من إلبنات لم يذكره المؤرخون . واستتبع نظام الحريم وجود الحصيان ، وإن كان هذا محرماً فى الشريعة الإسلامية . واشترك المسيحون واليهود في استيرادهم أو تهيئتهم ، وكان الخلفاء ، والوزراء ، والكبراء يبتاعونهم بأثمان غالية ، وسرعان ما أصبحت نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الخصيان المحدودى الكفاية . وكَانَ من النتائج التي ترتبت على نظام الحريم في القرون الأولى التي تلت الفتوح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

المفتوحة ، وأن تضاعف عددهم إلى الحد الذى كانوا فى حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع . ولربما كان لهذا النظام أثره فى قوة أقدر الرجال على الإخصاب ؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المامون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الحلقية والاجتماعية ، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام ، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين .

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدره تقديس الرابطة الزوجية . والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد فى وقت واحد ، ولم يكن فى وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة ؛ ذلك أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها ، ولم تكن هذه الخيانات مما يعبأ به كثيراً من الناحية الأخلاقية . أما خيانتها هي فكان عقامها الموت ، ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبته النساء رغم هذا العقاب الصارم والتضييق الشديد . وكانت المرأة تسب وتبجل ، وتحقر وتقمع ، وتحب في معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان ، ويقول أبوالعتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما في العالم من ثراء(٢٦) . وأمثال هذا القول كثيرة وهي في بعض الأحيان صادقة . وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة ، تلك هي أنها كأنت حرة التصرف فيما تملك لاحق لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها . وكانت فى داخل بيتها الأمن تغزل وتنسج ، وتطرز ، وتدير بيتها ، وتعنى بأبنائها ، وتمارس بعض الألعاب ، وتأكل الحلوى ، وتتحدث إلى أترابها ، وتحيك الدسائس . وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوى الفائدة الاقتصادية في المجتمع الزراعي الأبوى ، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها ، وفي ذلك يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد ، (٦١٦) . ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار في داخل البيوت. وكانت القابلات تنقل إلى النساء قديمها ، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها . وقد أفرد الرازى (المتوفى سنة ٩٢٤) فى أحد كتبه فصلا لموانع الحمل ، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية(١٢٧) . وأورد ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧) فى كتاب القائور، الذائع الصيت عشرين وصفة لمنع الحمل .

وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحى فى النواحى الحلقية الحارجة عن نطاق الناحية الجنسية . فالقرآن مثلا يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعا ﴿ سُورَةُ الْمَاثِلَةُ ۚ : ٩٠ ﴾ ولكن بعض الميسر وكثيراً من الحمر ظلا ياقيين فى كلتا الحضارُتين . وانتشرُ الفسادُ والرشوة فى أعمال الحكم والقضاءُ في بلاد الإسلام في بعض العصوركما كانا منتشرين في البلاد المسيحية . ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحي في خلقة التجاري(٦٣٠ ، وفى وفائه بوعده ، وإحلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره^(١٤) ؛ ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من الشرُّك في الحروب الصليبية . والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكلب ، فهم يبيحون الكلب، إذا كان فيه نجاة من موت ، أو حسم لخصومة ، أو إدخال السرور على زوجة ، أن خدمة في الحرب لأعداء الدين(ما) . والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبشاشة ، وحديث المسلم ملىء بالتحية والمبالغة فى التأدب . والمسلمون كاليهود يحيي بعضهم بعضا ، وينحني الواحد منهم لصاحبه ويصافحه ويقول له : ١ السلام عليكم ، ، والرد الصحيح لهذه التحية هو وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وإكرام الضيف من صفاتهم العامة ، والدين الإسلامي يحث على نظافة الحسم وإن كانت النظافة عادة تتأثر باللخل ، فالفقراء يهملونها حتى تتراكم الأقذار على أجسادهم ، أما الأغنياء فيتليفون ، ويدرمون أظافرهم ، ويتعطرون . والحتان عادة متبعةعند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها في القرآن ، لأنها في رأيهم مِنَّ أسباب المحافظة على الصُّحة ، وكان الأولاد يختننون في سن الخامسة (۱۱ - ج ۲ - ۱۱)

أو السادسة (٢٦٠ . وكانت الحامات الخاصة من مميزات بيوت الأغنياء ، ولكن الحامات العامة كانت ولا تزال كثيرة في البلاد الإسلامية . فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت في القرن العاشر الميلادي تحتوى على وقلم ٢٧٠٠ مام (٢٧٠) و وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء ، وقد اشهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر ، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين ، وكان في كثير من البيوت حداثتي غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة ؛ وكانت الأزهار محببة لشعب وخاصة في فارس ، وكانت تضني على الحياة مهجة ومنعة .

يقى أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هي وسائل التسلية عندهم ؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم ، والصيل ، ومغازلة النساء ، والشعر ، والموسيق ، والغناء ، وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة ، والرقص على الحبال ، والشعوذة ، والسحر ، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز) ويدل كتاب القانون لابن سيئا على أن المسلمين كان لديهم في القرن العاشر الميلادي كل ما عندنا تقريبا من الألعاب الرياضية : الملاكمة ، والمصارعة ، والعلو ، والرمي بالنبال ، وقذف الحراب ، والحركات الرياضية الجسمية ، والمناقفة ، وركوب الحيل ، والحجف(*) ، ورفع الأثقال ، وأنواع مختلفة والمناب الورق وكعوب النرد قليلة ، وكانت ألعاب الحظ محرمة ، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب النرد قليلة ، وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار ، وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبي قد نهي عن صنع قطعه في صور الآدمين . وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبي قد نهي عن صنع قطعه في صور الآدمين . وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبي قد نهي عن صنع قطعه في صور الآدمين . وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبي قد نهي عن صنع قطعه في صور الآدمين . وكان البي المنتقرا ، يبسط عليه الحلفاء رعايتهم ، ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة في سباق . وقد ظل ضيد الحيوان مقصوراً على أربعة آلاف جواد اشتركت مرة في سباق . وقد ظل ضيد الحيوان مقصوراً على

^(*) الجحف اللعب بالكرة وهو المعروف بالبولو في هذه الأيام . (المترجم)

أرق طبقات الأشراف ، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه فى أيام الساسانيين ، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالبزاة أو الصقور . وكانت الحيوانات المصيدة تربى أحياناً وتدلل ، وكان عند بعض الأسركلاب ، وعند بعضها قردة ، وعند بعض الحلفاء آساد ونمورة يرهبون بها دعاياهم أو سفراء الدول الأجنبية .

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدنية ، شجعاناً إلى درجة التهور ، كثيرى العنف ، سريعي الانفعال ، متشككين، وكان الإسلام قد خفف من حدة هذه الصفات ، ولكن معظمها لم يكن قد انمحي بعد ؛ وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة التي كان يرتكمها بعض الخلفاء لم يكن يزيد في مجموعه على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبنزنطيون والمروڤنجيون ، وأهل الشمال ؛ ولكنه رغم هذا مما يسربل بالعار كل حضارة . وأمما يروى عن سلمان بن عبد الملك أنه في رحلة له إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، دعا رجال حاشيته ليجربوا سيوفهم في رقاب أربعائة من الروم ، أُسِيرُوا حديثاً في إحدى الحروب ، وقبل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعائة رجل ، ليتسلى الخليفة بذلك المنظر (٢٩٠) . ولما جلس المتوكل على العرش ألتى فى السجن بوزير كان قلم عامله مرة منذ بضع سنين بشيء من الاحتقار ؛ ومنع السجين من النوم عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله ، ثم سمح له أنَّ ينام أربعاً وعشرينساعة ؛ فلها عادب إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فها مسامىر ، . منعته أن يتحرك ليقضى حاجته الطبيعية ، وبتى علىهذه الحال يعانى أشدالآلام حتى مات(٧٠٠) . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال الشاذة ، أما المألوف فإن المسلم كانمثال الرقة، والإنسانية ، والتسامح ؛ وكان، إذا وصفنا أوساط الناس ، سريع الفهم ، حاد الذكاء ، سريع التهيج ، يسهل

إدخال السرور على قلبه ، والمرح على نفسه ؛ يجد الرضا في البساطة ، ويصبر على بلواه في هدوء ، ويثلقي جميع حوادث الأيام بصبر ، وكرامة ، وشم ، وكبرياء . وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل ، أخذ معه كفنه المنسوج من الكتان ، استعداداً منه في أي وقت للقاء ربه ، فإذا أمهكه المرض والتعب وهو سائر في الصحراء ، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم . ثم توضأ هو لآخر مرة ، واحتفر بنفسه حفرة يتخذها قبراً له ، ولف نفسه في مخفنه ، ونام في الحفرة ، ينتظر أن توافيه منيته ، وأن تغطى جسمه الرمال السافية (٢١٥) ي

الفيلالابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية في الثلاثين السنة التي تلت وفاة النبي جمهورية دمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذي كان مفهوما من هذه العبارة في الزمن القديم ، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين في اختيار رأس المعولة وتحديد سياسها . أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة اللبولة فئة قليلة من أعيان المدينة . ولم يكن ينتظر شيء غير هذا بطبيعة الحال ؛ ذلك أن الناس يختلفون في ذكائهم وفي ضهائرهم ، ولهذا فإن الدمقراطية في أحسن صورها لابد أن تكون نسبية ؛ ولا محيص من أن تنشأ صورة ما من صور الألجركية في المجتمعات التي لا تتيسر فيها سبل الاتصال والتي تقل فيها نسبة المتعلمين . وإذا كانت ساعد على قيام حكم الفرد ، لأن وحدة الرياسة والإسراع في اتخاذ القرارات الحكومة في عهد الأمويين ملكية صريحة ، الحلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها في عهد الأمويين ملكية صريحة ، الحلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها قوة السلاح .

كذلك كان منصب الحليفة من الوجهة النظرية منصبا دينيا أكثر مماكان منصبا سياسيا. فقد كان الحليفة قبل كل شيء رئيس مجتمع ديني هو مجتمع المسلمين ، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين ، ولهذا كانت الحلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين . لكن الحليفة لم يكن بابا أو قسا ، ولم يكن في مقدوره أن يصدر قرارات جديدة في الشتون الدينية . ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان ، ولا طبقة وراثية من

الأشراف، ولا هيئة من رجال الدين ، بلكان الذي يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده ــ وكان في وسع من يستخدمهم من العلماء (*) ويؤدي لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد . وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص في هذه الحكومة المطلقة . ذلك أنه كان في مقدور أي إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء .

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا في بلاد الشام ينظام بيزنطية الإدارى ، وفي بلاد فارس ينظام الساسانيين ، وكان لا بد أن تسبر الحياة في الشرق الأدنى على النسق القدم ، بل إن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد تخطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى في العلوم والفلسفة الإسلامية : ونشأ في عهد العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية ، والإقليمية ، والمحلية ، تسعره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلا باغتيال الجالسين على العرش ، أو بالثورات التي تحدث في داخل القصر . وكان على رأس النظام الإداري الحاجب أو رئيس التشريفات ، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات فى القصر ، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكمه فيمن يدخلون على الخليفة . وكان يليه في مرتبته ، ولكن يفوقه في السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير ؛ وهو الذي يعنن موظفي الحكومة ، ويشرفعليهم ، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها . وكانأهم الدواوين ديون الخراج، والحسابات، والشرطة، والبريد، والنظر في المظالم وهو الذي أصبح بمثابة محكمة ترفع إلىها الأحكام القضائية والإدارية ، وكان يلي الجيش فى الأهميّة عند الحليفة ديوان الحراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

⁽م) لاتنك فى أن فى هذا الحكم الشامل مغالاة كثيرة . فالتاريخ الإِسلامى يفيض والشواهد الدالة على ما لرجال الدين من مواقف مشرفة شد الخلفاء ، لاتوا بسببها كثيراً من المنت والاضطهاد . (المترجم)

البيزنطية في عنادهم وشدهم ؛ وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القومى لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام . وكان إيراد بلاد الحلافة كل عام في عهد هرون الرشيد يزيد على ٢٠٠٠ و ٢٠٠٠ درهم (نحو ٠٠٠ و ٢٠٠٠ رباك أمريكي) فضلا عما أضيف إليه في ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عديدها (٧٣) . ولم يكن ثمة دَيْن قومى ، بل حدث عكس هذا في عام ٢٨٦ إذ كان في الحزانة رصيد يبلغ ٢٠٠٠ و ١٠٠٠ درهم .

وكان البريد العام ، كما كان في عهد الفرس والرومان ، لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص ، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات ، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحلين . وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها النجار والحجاج ، تحوى أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كلُّ وأحد منها عن الآخر ، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب ، وكان الحمام يدرب ويستخدم في نقل الرسائل ــ وكان هذا أول استخدام له معروف في التأريخ (٨٣٧) . وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار ؛ وكان- في بغداد ألف وسبعاثة « امرأة عجوز » يعملن جاسوسات . غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين ابتزاز الأموال العامة أو الارتشاء . فقد كان الولاة في بلاد العرب ، كمَّا كانوا في بلاد الرومان ، يرون أن سنى خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا يه سلم المناصب ، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب . وكان الحلفاء فى بعضْ الأحيان يرغمونهم على أن يردُّوا ما اغتصبوه ، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يخلفونهم ، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر ٧٠٠ر ٧٠٠ر ٧٦ درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله . وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية ، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء ، وقد ورد في أحد الأحاديث أن النبي نفسه كان يرى أن اثنين على

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون فى النار (٢٢).

وكان المفروض أن الشريعة التي تمكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن. ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين ، كاكانا عند المبود ، شيئاً واحداً . فكل جريمة خطيئة ، وكل خطيئة جريمة ، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين . فلها أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها في القرآن وضع بعض المشترعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً ، وبهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامي (*) ، وكان من المصادفات الغريبة المتكررة أن هذه الأحاديث تردد أصداء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبزنطية ، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنا وجمارا النبود وأحكامهما (١٤٠٤) . وكانت الزيادة المطردة في هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء في البلاد في هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء في البلاد والتعظيم ما لا يقل هما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين . وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم في فرنسا في القرن الثاني عشر ، فقد تحالفوا وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم في فرنسا في القرن الثاني عشر ، فقد تحالفوا مع الملكية ، وأبدوا حكم العباسيين المطلق ، ونالوا جزاءهم على هذا التأييد .

ونشأت فى البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب : أولاها مذهب أبى حنيفة أبن ثابت (المتوفى عام ٧٦٧) ، وقد أحدث انقلاباً كبيراً فى الشريعة الإسلامية باتباع مبدإ العباس فى تفسير القرآن . وهو يرىأن القانون الذى سن فى أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يوخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعى أو حضرى . وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

^(*) لسنا ننكر أن هناك أحاديث منحولة ولكننا نعثقد أن الأحاديث الصحيحة السند معين لا ينفس التشريم . (المترجم)

ويشبه هذا ما فعله هلل فى فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون . ومن أقوال أبى حنيفة في هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق ، فهي تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التي أوجدتها(٧٠٠ . وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يجيز هذه الفلسفة الحرة التقدمية في التشريع ، وهو مالك بن أنس (٧١٥ ــ ٧٩٥) . وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبعاثة من الأحاديث التشريعية ، ويقول إنه لما كانت كثرة هذه الأحاديث قد صدرت في المدينة ، فإن إجماع أهل المدينة هو الذي يجب أن يؤخذ به في تفسير الحديث والقرآن.. ويرى محمد الشافعي (٧٦٧ ــ ٧٢٠) الذي عاش في بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة ، وأن الإجماع في كل بلاد الإسلام هو المحك الأخير للشرائع والسنة والحقيقة . ويرى تلميذه أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغي ، وأنشأ مذهباً آخر أساسه أن القرآن والحديث وحدها يجب أن يكونا أساس التشريع . وندد بمذهب المعتزلة العقلي في الفلسفة ، وألنَّى به المأمون في السجن لتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة ، ولكنه استمسك بآرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته .

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة ، التي يعترف بها أهل السنة في الإسلام ، من الاتفاق في التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف في المبادئ ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذي ظل قائماً مائة عام . فهي كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله ، وبأن كل شريعة خليقة بأن يحكم بها الجنس البشرى الذي لا يخضع بغطرته للقانون ، يجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله . وهي كلها تسرف في وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافا لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودي ، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعال السواك ، وسنن الزواج ، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

والنساء ، والطريقة الصحيحة لتصفيف الشعر ، ويروى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد في القرآن أو الحديث ما يعرف منه الطريقة المصحيحة التي يأكله بها(٢٧) . ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامي ، ولكن اختلاف الآراء في القانون الواحد وتجاوز منفذى القانون عن مخالفته في بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى . غير أنه رغم هذا ، ورغم انتشار مذهب أبي حنيفة وما فيه من تسامح وحرية ، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هي النزعة المحافظة والاستمساك القوى بالسنن استمساكا يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية ، والآداب الشخصية والتفكر (٥٠) .

ولا يسعنا إلا أن نسلم سمع هذه التحفظات بن الحلفاء الأولين من أي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم ، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله . ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء ، أو أن يخربوا كل شيء ، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشيال من الأوربيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب . ولما أن فتح عمرو مصر أبي أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين ، وأيده الحليفة في هذا الرأى وأمره أن يتركها في أيدى الشعب يتعهدها فتثمر (٧٧٧) . وفي زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضي ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الحسور حول وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الحسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قيل الفتح الإسلامي صوراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جناناً فيحاء ؛ وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملا وحجارة فأصبحت خصبة ، غنية ، عامرة بالسكان (٢٨٥) . وما من شك

^(﴿) وهذا ما لا نوافق طيه المؤلف وما لا يتفق مع الواقع ، فالإسلام بشهادة كثيرين من علماء الغرب سبح لا يمطل التفكير أو الاقتصاد أو الآداب . (المترجم)

فى أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بتى فى عهد الحكومات الإسلامية كما يبتى فى عهود كل الحكومات ، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ، وهيئوا الفرص لذوى المواهب ونشروا الرخاء مدى ستة قرون فى أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ، وازدهرت العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والفنون ازدهارا جعل آسية الغربية مدى خسة قرون أقاليم العالم كله حضارة .

الفصرالخامس

المسدن

يجدر. بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشأوا هذه الحضارة وميزوها عن غيرها من الحضارات ، ونصف أعمال هؤلاء الرجال ، أن نصور لأنفسنا البيئة الى كانوا يعيشون فيها . إن الحضارة ريفية فى أصولها وقواعدها ، ولكنها مدنية فى صورتها ؛ إذ لا بد أن يجتمع الناس فى المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضا .

ولقدكانت البلدان الإسلامية جميعا تقريباً غير كبيرة في سعتها لا يزيد سكان الواحدة منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك ، يحشرون في رقعة من الأرض ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار ، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل ، ذات بيوت صغيرة مطلبة بالحص ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار . وكان جلال المدينة كله محصوراً في مسجدها ، ولكن كانت تقوم في أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجال والمعرفة والسعادة

وكانت مكة والمدينة ، ولا تزالان ، في نظر المسلمين مدينتين مقدستين ، لأن في أولاهما الكعبة التي كان العرب يقدسونها في الزمن القديم ، كما أن فيها مسقط وأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولأن الثانية هي المكان الذي هاجر إليه وأقام فيه . وقد جدد الوليد الثاني بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخا ذا روعة وجمال : وأرسل إمبر اطور بيز نطية بناء على طلب الوليد ، وفي نظير ثمانين الف دينار ، أربعين حملا من أحجار الفسيفساء ، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الصناع من مصر وبلاد اليونان ، حتى لقد شكا المسلمون من أن مسجد



شكل ٢) منار المسجد الأقصى ببيت المقدس مصنوع من المشب

خراج مصر في تشييد عدد صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف ، وشيد في الطرف الجنوبي من المدينة (٦٩١ – ٦٩٤) المسجد الأقصى . وقد دمر زلزال هذا المسجد في عام ٧٤٦ ، ثم أعيد بناؤه فى عام ٧٨٥ ، وأدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة ، واكن القبلة لاتزال كما كانت في أيام عبد الملك ، كما أن معظم العمد مأخوذة من باسلقا چستنیان الَّنی کانت قائمة فی أورشلیم ، ویری المقدسی أن بیت المقدس أجمل من المسجد الأموى العظيم المقام في دمشق ، ويقول المسلمون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإنه صلَّى فيه معهم ، وإنهُ رأى بالقرب منه الصَّخرة (التي يعتقد بنو إسرائيل أنها سرة الدنيا) والتي أراد إبراهيم أن يضحى عندها يإسمق (** ، والتي تلتي عندها موسى تابوت العهد ، والتي شاد عندها سليمان وهيرو.د هيكليهما . ويعتقد بعض المسلمين أن النبي صعد عندها إلى السياء ، وأن الإنسان لو أوتى إيماناً قوياً لأبصر في الصخر آثار قدميه . ولما أن استولى عبدالله بن الزبير علي مكة فى عام ٦٨٤ وعلى ما يدخل فيها من إيراد. الحج أراد عبد الملك أن يجتلب إلى الشام أموال الحجاج ، وأن يحج الناس إلى الصخرة بدل أن يحجوا إلى الكعبة ، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخي (٦٩١) (قبة الصخرة ، الشهيرة على الطراز البيزنطي ـــ السوورى ، وسرعان ما أضحت هذه القبة « رابعة عجائب العالم الإسلامي، (والثلاث الأخرى هي مساجد مكة والمدينة ودعشق) . ولم يكن هذا البناء في أول أمره مسجداً ، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة ؛ وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم « مسجد عمر » . ويبلغ ارتفاع القبة ١١٧ قدماً ، وهي قائمة على بناء ذي ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة . وييلغ محيط هذا البناء ٢٨ﻫ قدما . والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

⁽ ه) الذي يعتقده المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق . (المترجم)

الأصفر المدهب ذى النقوش البارزة . وللبناء أربعة أبواب جميلة — عتباتها مصفحة بالبرنز — تؤدى إلى الداخل الذى تقسمه صفوف من العمد المتخدة من المرمر المصقول ، متتالية ومتحدة فى المركز ، إلى أشكال مثمنة الأضلاع كل مها أصغر من الذى فى خارجه . وهذه العمد الفخمة من الآثار الرومانية القديمة ، وتيجانها ببزنطية الطراز . وتمتاز الأجزاء التي بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء ، التي تصور أشجاراً لا تقل فى جماله عن تصوير كوربية Courbet . وأجمل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة . وعلى الطنف التي فوق العمد الحارجية فقش بالحط الكوفى ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء ، أمر به صلاح الدين فى عام ١١٨٧ ، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المهارية الفذة . وتحيط العمد سده الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التي يبلغ عيطها مائتي قدم . وقد وصفها المقدسي بقوله :

« فإذا بزغت علمها الشمس أشرقت القبة، وتلألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الحملة لم أرف الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة، (٨٠٠).

وقد أخفق عبد الملك فيا كان يسعى إليه من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة ، ولو أنه نجح فيا كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التي كانت تتنافس في الاستحواذ على روح الإنسان في العصور الوسطى .

ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم تكن عاصمة ولاية فلسطين ، بل نالت الشرف بلدة الرملة . وكانت في الأماكن التي تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة في عهود الإسلام الأولى . ومن تلك المدن عكا التي كتب عبا المقدسي في عام عمم يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة . وكتب الإدريسي في عام ١١٧٤ عن صيدا يقول إنهامدينة متر امية الأطراف تحيطها الحداثق والأشجار، ووصف البعقوبي في عام ١٩٨ مدينة صورباتها بلدة جيلة مشيدة على صخرة ،

بارزة فى البحر، ويقول ناصرخسرو فى عام ١٠٤٧ إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أوست، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضاً فى أسواقها النظيفة (٨١٥). وكان لطر ابلس القائمة فى شهالها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة . واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة . وكتب ياقوت الرحالة المسلم فى عام ١٢٧٤ عن الناصرة يقول : « فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ! . . . وكان أهلها عبروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلا ، (٨٢٥)

ويصف اليعقوبي بعلبك بأنها من أجمل بلدان الشام ، ويضيف المقدسي إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء . وكانت أنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها في عظمتها إلا دمشق وحدها . وقد امتلكها المسلمون من عام ٦٣٥ إلى عام ٩٦٤ ، ثم استولى علمها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأحير حتى عام ١٠٨٤ . ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنائسها الكثيرة الفخمة ، وبما في بيوتها الجميلة من شرفات عالية ، وبحداثقها وبساتينها الغناء ، ويقولون إن الماء يدخل في كل بيت من بيوتها . وكانت طرسوس من كبريات المدن ؛ ويقدر ابن حوقل (٩٧٨) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف ، وقد استعادها نقفور إميراطور الروم في عام ٩٦٥، وهدم جميع ما فيها من المساجد ، وحرق جميع المصاحف ، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل. ويصفها المقدسي بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة ، ذات شوارع تظللها الأشجار ، وتقوم على جانبها الحوانيت ويؤدى كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد . وكان في هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور ، ومنىر تبتهج العين لروئيته . وكان بالقرب منه خمس مدارس ، وبهارستان ، وست کنائس مسیحیة . وکتب

⁽ ﷺ) هذه هي ترجمة النض كما أورده المؤلف أما النص كما نجاء في كتاب معجم البلدان لياقوت فهو « · . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » .

اليعقوبي فى عام ٨٩١ يقول إن حمص أكبر مدن الشام ، وكتب الاصطخرى فى عام ٨٩٠ يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة . ويقوَل المقدسي إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة (٨٣٠) .

ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق رومى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها في موضع أقرب إلى وسطهامن مكة أو بيت المقدس. وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم — وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين . وكان يلتي عندها خمسة أنهار ، تجعل الإقليم الذي من خلفها « جنة الشرق » بحق ، وتمد بالماء مائة فسقية ، ومائة حمام عام ، ومائة وعشرين ألف بستان (۱۸۸) ، ثم تجرى نحو الغرب إلى « وادى البنفسج » الذي يبلغ طوله اثني عشر ميلا وعرضه ثلاثة أميال . ويقول الإدريسي إن « مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسها مكانا ، وأعدلها هواء ، وأطبها ثرى ، وأكثرها مياها ، وأغزرها فواكه ، وأعمها خصبا ، وأوفرها مالا وأكثرها جندآ (۱۸۵) ...

وفى قلب هذه المدينة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذى شاده معاوية الأول ، والذى يلمع فيه الذهب والرخام ، وتتلألاً فى أرضه وعلى جدرانه الفسيفساء ، والذى تلطف جوه الفساق والشلالات التي يتدفق منها الماء على الدوام . وفى الناحية الشهالية من المدينة يقوم مسجدها العظيم وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسائة مسجد فى المدينة ، والأثر الوحيد الباقى من حمشق الأموية . وكان موضعه فى أيام الرومان يزدان بهيكل لحويتر ، ثم أقام شيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩) . وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالى عام ٧٠٥ أن يعدل بناء الكنيسة

⁽ م) ويضيف إلى ذلك « ولها جبال ومزارع تعرف بالفوطة . . . ويها ضياع كالمدن (ولم يقل الإدريسي إنها أجل بلاد (الله) اللغ كما قال المؤلف) . (المترجم)

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه فى ذلك المكان ، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد في أي مكان يختارونه ليقيموا فيه كنيسة جديدة . ولكن المسيحيين احتجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته ، وقالوا إنه قله ورد فى كتبهم أن من يجرو على هدم تلك الكنيسة سيموت مختنقا ؛ ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه . ويقول المؤرخون إن جميع خراج الأرض في الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد ، هذا إلى المال الكثير الذي أعطى للمسيحين لينشئوا به كنيسة جديدة . وجيء بالصناع والفنانين من الهند ، وفارس ، والقسطنطينية ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، وكان من استخدم في بنائه من العالَ اثنى عشر ألف عامل ، أتموه في ثمان سنين . والرحالة المسلمون مجمعون على أنه أفخم بناء فى بلاد المسلمين ، ويرى المهدى والمأمون من الخلفاء العباسيين ــ وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق ــ أنه لا يضارعه بناء غيره في جميع أنحاء العالم . ويتكون البناء من سور محصن ، فى داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام . ويقوم المسجد نفسه في الجهة الجنوبية من هذا المكان المتسع ، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن ــ منها واحدة هي أقدم ما شيد من المآذن في الإسلام ، وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الروماني ، وما من شك في أنهما قد تأثرا بطراز أياصوفيا . وكان السقفوالقبة ــ ويبلغ طول قطرها خسن قدما - مكفتن بصفائح الرصاص . أما داخل المسجد الذي يبلغ طوله ٤٢٩ قدماً فيشتمل على صفين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من طرقات . وتيجان هذه العمدكور نثية الطرازمكفتة بصفائح الذهب : ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حذاء الفرس ، وهذا الطرزالثانى من العقود أول ما أقيم من نوعه فى بلاد الإسلام (*). وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس ، كما غطيت جدرانه بالفسيفساء ، المصنوعة من الرخام الملون وبالقاشائى المطعم بالميناء ، وفى داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات . وفى أحد جدرانه المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكا من الزجاج الملون ومن اثنى عشر ألف قنديل . ويصفه أحد الرحالة بقوله : « ولو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سبنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى » (***) .

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لم : « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ فى بلادى إن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالا »(†).

وإذا اتجه الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الحليفة هرون الرشيد ؛ فإذا عبر نهر دجلة وصل

^(﴿) وأقدم ما عرف من العقود المصنوعة على شكل حداء الفرس عقد في هيكل في كهضه ببلدة نازك في الهند لعل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد (٨٦٠) . ثم استخدم هذا الطراز في كنيسة مسيخية شيدت في نصيبين بالعراق عام ٣٥٩ م .

^(†) وأتلفت النار أجزاء كثيرة من مسجد دمشق العظيم فى عام ١٠٦٩ ثم جدد بناؤه ، ولكن تيمور لنك أحرقه حتى لم يكد يبقى منه شىء فى عام ١٤٠٠ . ثم أعيد بناؤه مرة أخرى ، ثم أتلفته النيران إتلافاً شديداً فى عام ١٨٩٤ . وبعد هذا حل الحص والجمير محل النقوش القديمة . وفى وسع الإنسان أن يشاهد حتى الآن النقش الذى كان يعلو إسكفة الكنيسة المسيحية ، والذى لم يمحه المسلمون . وقص هذا النقش هو «علكتك أيما المسيح عملكة محالدة » وسلطانك باق إلى أبد الدهر ه (٨٨) .

إلى الموصل ، وعلى مسافة منها فى اتجاه الشمال الشرق أيضاً تقع مدينة تبريز التي بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذي نتحدث عنه . وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (ركانت لا تزال وقئذ بلدة صغيرة) ، ثم تليها دامغان وبعدها ــ فى شرق بحر الخزز ــ تقع جرجان . وكانت هذه البلدة الأخبرة فى القرن العاشر الميلادي قاعدة إحدى الولايات الإسلامية ، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المثقفين ، أشهرهم كالهم شمس المعالى قابوس ، الشاعر العالم الذي استضاف ابن سيناء في بلاطه ، والذي ترك وراءه مدفناً له على شكل برج ضخم يعلو فى الحو ١٦٧ قدماً يعرف باسم جنبادى قابوس ، وهو البناء الوحيد الذي بتى حتى الآن من تلك المدينة التي بلغت في أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان . وعلى الطريق الشمالى المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور ، التي لا يزال الناس يرددون اسمها في شعر عمر الخيام ، وتلبها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة ؛ ثم مرو التي كانت في وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى ؛ ثم بخارى وسمرقند ـــ وكاثنا فى العادة بعيدتين عن منال أيدى الجباة . وعلى سلاسِل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة . ويحدثنا الشعراء عن قصور أمبرها محمود الغزنوى الفخمة ، وعن أبراجها العالية التي تطاول قمر السماء. ولايزال يةوم فيها حتى اليوم « برج النصر » الذى شاده السلطان محمود ، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثانى . وكان الإنسان إذا رجع نحو الغوب فى القرن الحادى عشر التي بنحو اثنتي عشرة مدينة زاهرة في إيران - هراة ، شبراز (ذات الحدائق الغناء الذائعة الصيت والمسجد العظيم) ، ويزد ، وإصفهان ، وكاشان ، وقزوين ، وقوم وهمذان ، وكرمنشاه ، وسامانا ؛ ثم التَّى في العراق بمدينتي البصرة والكوفة ألعامرتين بالسكان. وكان السائح یشاهد فی کل مکان یمر به قبابا براقة ، ومآذن متلألثة ، ومدارس ، ودوراً للكتب ، وقصوراً ، وحدائق ، وبهارستانات ، وحمامات ، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء . ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد التي يتغني بها الشاعر الأتورى في شعر فارسي يقول :

طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن ، التي لا يستطيع إنسان أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها ، إن أرباضها لتنافس في جمالها قبة السهاء الزرقاء ، وإن مناخها ليضارع نسيم السهاء الذي يبعث الحياة في الأجسام ، وأحجارها تضارع في تلألؤها الماس والياقوت . . . وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بُلخ ؛ وجنائها المليئة بالحور العين لتعدل في ذلك كشمير ، وآلاف القوارب ترقص وتتلألأ فوق الماء تلألؤ أشعة الشمس في الهواء (٢٥٥) .

وكان في موقع بغداد مدينة بابلية قديمة ، وهي لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، وقد عثر في عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الآجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر : وازدهرت المدينة القديمة في عهذ الملوك الساسانيين ، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامي عدة أديرة مسيحية ، معظمها للنساطرة ، ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان· تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو في الصيف ، خال من البعوض الذي يكثر في البصرة والكوفة ، ولعل الحليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين ، اللتين كانتا في ذلك الوقت البعيد غاصتين بالصعاليك النوريين ؛ وما من شك في أنه وجد في موقعها هٰذا ميزة حربية ، فهو موقع أمين في داخل البلاد ، ولكنه على اتصال مائى بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات . الكبرى المتصلة به ؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخيلج الفارسي وبجميع ثغور العالم . من أجل هذا كله نقل مقرُه هو من الهاشمية كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد ، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة أسوار دائرية وخندق ، واستبدل ببغداد اسمها القدم ومعناه « هبة الله » اسما جديداً هو مدينة السلام ، واستخدم مائة ألف من العال في بناء أربعة تمصور عظيمة من الآجر له ولأهله وللواوين الحكومة : وكان يقوم في وسط

المدينة قصر الخليفة المسمى « بالباب الذهبى » نسبة إلى بابه المذهب أو « القبة المخضراء » نسبة إلى قبته البراقة ، ثم شاد المنصور فى خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم « قصر الحلد » ، وكان هرون الرشيد يقيم فى هذا القصر معظم أيامه . وكان فى وسع من يقيم فى هذين القصرين أن يرى من نوافذها مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التى جاءت بها من نصف العالم المعروف .

وفى عام ٧٦٨ أنشأ المنصور قصراً ومسجداً على ضفة النهر الشرقية الفارسية لكي يستطيع ولده المهدى أن يتخذ له في القصر مسكناً مستقلا . وسرعان ما نشأت حولهذين الصرحين ضاحية جميلة هي ضاحية الرصافة ﴿ ﴾ التي كان يُصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب . وكان معظم الخلفاء الذينجاءوا بعد المأمون يقيمون في هذه الضاحية ، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها في اتساعهاو ثراثها ، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فإنما يعنون بها الرصافة نفسها . وكانت شوارع ضيقة ملتوية ، أنشئت على هذا النحو لتقى الأهلين من وهج الشمس وتقوم على جانبها الحوانيت الصاخبة ، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء ، وكان لكل طائفة من طوائف الصناع شارعها الحاص أو سوقها الحاصة ـ فهذا حي باثعي العطور ، وذاك حي صانعي السلال ، وهنا حي صانعي الأسلاك ، وهناك حي الصيارفة مستبدلي النقود ، وذاك حي البزازين ، وهذا حي الوراقين وما إلى ذلك . وكانت بيوت الأهلمن تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورأتها . وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الإغنياء مقامة من اللبن ، تبتي ما بني صاحبها حياً ولكنها لا تلوم كثيراً بعده . وليس لدينا إحصاء لسكان المدينة موثوق به ، والراجع أنهم كانوا يبلغون

⁽ه) الرصافة ككناسة بلد بالشام وعلة بينداد ، ويلد بالبصرة ، وبلد بالأقدلس ، وبلد بأفريقية . ` المترجم)

وبينا كان الفقراء يواسون أنفسهم في حياتهم الشاقة بأملهم في نعيم الدار الآخرة ، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة . ذلك أنهم شادوا في بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة ، والبيوت ذات الحداثق ، واللور التي تبدو بسيطة من الحارج ولكنها كانت في الداخل وصف لها بقلم أبي الفداء لا يكاد يصدقه العقل يقول فيه إن قصر الحليفة في بغداد قد فرشت على أرضه ، ، ، ر ٢٧ طنفسة ، وعلقت على جدرانه وكانت قصور الحليفة وأسرته ومساكن الوزير وروساء دواوين الحكومة تشغل في المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع (٤٠٠ . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكي هجرة الطبقة الموسرة إلى بغداد حين شاد لنفسه في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصراً فخماً كانت عظمته من أسباب هلاكه . وقد حاول جعفر أن يتقي حسد هرون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون ؛ وقبل الرشيد المدينة لابنه ، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم في المامور المنصور المنصر المنصور المنصور المنصر المنصور المنصر المنصر المنصر المنصر المنصر المنصر المنصر المنصر ال

^(﴿) أَى أَكْثَر من سَمَائة قدان . (المترجم)

وهرون تنهار ، أقيمت في مكانها قصور أخرى : وقد أنفق -المعتمد على قصره المعروف « بقصر الثريا ، (۸۹۲) ٠٠٠ر ٤٠٠ دينار (أي ما يقرب من ۰۰۰ ر ۱٫۹۰۰ ریال أمریکی) : وفی وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان في اسطبلاته ٩٠٠٠ من الإبل والبغال(٩٢) ، وشاد المكتفى يجواره « قصر التاج » (٩٠٢) ؛ وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة . وشاد المقتدر « بهو الشجرة » وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان في البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب ، على أوراقها وأغصائها الفضية تجثم طيور من الفضة ، تنطق ألسنتها بأناشيد آلية . وبز سلاطين آل بويه جميع أولئك الحلفاء فأنفقوا ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم في بناء قصر المعزية ، وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة ، حتى إذا استقبل المقتدر في عام ٩١٧ سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصرآ ، وإيواناتها ذات العمد الرخامية ، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطئها الحصر تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والجدران ، وعشرات المثات من السياس ذوى الحلل الراقة ، وسروج الخيول الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وما فى الحداثق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرىوالأليف ، وما للخلفاء مِن قوارب لا تقل عن القصور أيهة وفخامة تجرى في نهر دجلة وتنتظر أهواء الحليفة :

وكانت الطبقات العليا تعيش فى وسط هذا النعيم عيشة الترف، واللهو، والقلق، والدسائس. فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الحيل أو لعب الجحفة، ويحتسون الحمر المعتقة المحرمة، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصى البلاد بأغلى الأنمان، ويرتدون هم ونساؤهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب، ويعطرون ثيابهم، وشعرهم، ولحاهم، ويستنشقون رائعة العنبر والكندر، ويزينون رؤوسهم، وآذانهم، ورقابهم، ومعاصمهم،

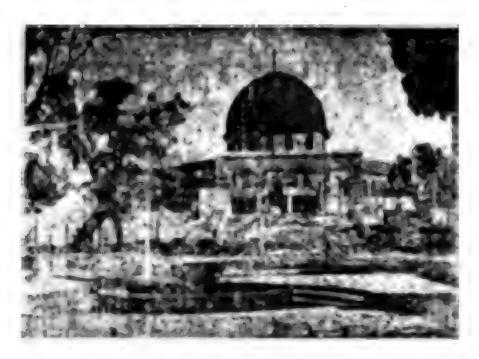
وسيقانهم بالحلى الثمينة . ويقول شاعر يتغزل فى فتاة إن رنىن خلاخيلها قلم سلبه عقله(٩٣) . ولم تكن النساء في العادة يحضرن مجتمعات الرجال ، وكان يحل محلهن الشعراء ، والمطربون ، والسيار الفكهون ، وما من شك فى أنهم كانوا يتحدثون عن الحب؛ وكانتُ الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح الرجال أسرى لهن . وفي المجتمعات التي كانت أكثر من هذه أدبآكان الناس يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم . ومنهم من أنشأوا ندوات فلسفية كإخوان الصفا ، ويحدثنا المؤرخون عن نادى قائم حوالي. عام ٧٩٠ مؤلف من عشرة أعضاء ، واحد من السنيين ، وآخر من الشيعة ، وثالث من الخوارج ، ورابع من المانوية (*) ؛ ومن شاعر غزلي ، وفيلسوف مادی ، ومسیحی ، وبهودی ، وصابئی ، وزردشتی . ویقول للورخون إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل ، والفكاهة الحلوة ، والنقاش الهادي الذي يمتاز بالأدب والمجاملة (**)(٩٤) . ويمكن القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامي كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الرقى؛ وما من شك في أن الشرق من عهد قورش إلى لي هونج تشانج قد فاق الغرب في الرقة والكياسة ؛ وكان من المظاهر التي تشرف بها الحياة في بغداد أن الفنون والعلوم التي لايحرمها الإسلام كانتكلها بلا استثناء تجد فها من يشجعها ويأخذ بناصرها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة في جميع الأنحاء ، وأن الهواءكان يردد أصداء الشعراء .

ولا يحدثنا المؤرخون بالشيء الكثير عن حياة الدهماء ، وكل ما نستطيع أن نفتر ضه هو أمهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرحالفخم بخدماتهم وكدحهم .

^(﴿) أُتباع مانى وهو رجل من أهل إكبانانا (همذان) (٢١٥ – ٢٧٦) ، وكان. يقول إن كل شيء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الحمير والشر .

^(* *) ما أشبه هذا بالمجتبغ الحيالى الذى يحدثنا عنه لويس دكنس فى كتابيه « معرض الآراء الحديثة » و « العدالة و الحرية » وقد ترجا إلى اللغة العربية . (المترجم)

فبيناكان الأغنياء يلهون بالآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والعلم ، كان عامة الشعب السلج يستمعون إلى المغنين في الشوارع ، أو يعزفون على أعوادهم وينشدون أغانهم . وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبدل من ضجيج الشوارع ورائحتها ؛ وكان الناس في أيام الأعياد يتزاورون ، ويتبادلون المحدايا ، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلانه منها ، ويطعمون في علاك الأيام بشهية أقوى من شهية الذين يطعمون في صحاف اللهب . وحتى الفقير نفسه كان له حظ في جلال الخليفة وفخامة المسجد ، ولم يكن محروماً من دريهمات من دنانير الحراج الذي كان يرد إلى بغداد . وكان يسير فخوراً من معتزاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة ، وكان في قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه .



(شكل ١) قبة الصخرة في المسجد الأقصى



(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق



(شكل ؛) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام

البات الثاني عيث أ الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية

1 . OA - 744

الفصل لأول

التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به ، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول : « من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء »(١) .

ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية فى بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ، ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا فى بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام. فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين و أشهد أن لاإله إلاالله وأن محمداً رسول الله وفا في الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء ، وبعض البنات ، وجميع الأولاد ، عدا أبناء الاغنياء (الذين كان لهم معلمون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة في العادة بأحد المساجد ، وفي بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة في الحلاء. وكان التعليم في هذه المدارس عادة بالحجان ، فإن لم يكن فقد كان ألمعلم يتناول من والد الطفل أجره تافها يستطيع أداءه جميع الناس ، فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

' مصنع للورق فى بلاد الإسلام فى بغداد عام ٧٩٤ على يد الفبضل بن يحيى وزير هرون الرشيد . ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسيانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا . وقبل هذا نجد الورق مستخدما في بلاد الصنن منذ عام ١٠٥ م ، ثم نجده فی مكة سنة ٧٠٧ ، وفی مصر سنة ٨٠٠ ، وفی أسپانيا سنة ٩٥٠ ، وفى القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفى صقلية سنة ١١٠٢ ، وفي إيطالبا سنة ١١٥٤ ، وفي ألمانيا سنة ١٢٢٨ ، وفي إنجلتر ا سنة ١٣٠٩ (٧) . ويسر هذا الاختراع تأليف الكتب فى كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبي إنه كان في بغداد على أيامه (٨٩١) أكثر من مائة بائع للكتب ، كانت حوانيتهم تستخدم ، فضلا عن بيع الكتب ، لنسخها ، وكتابة الخط المزخرف ، كما ً كانت ندوات أدبية . وكان كثير من الطلاب بحصاون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات ، وبيعها لنجار الكتب ، ونسمع فى القرن العاشر الميلادى عن أناس يجمعون توقيعات العظاء وخطوطهم ، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثمانا عالية للمخطوطات النادرة (^(٨) . ولم يكن المؤلفون يحصلون على شيء من بيع كتبهم ؛ وكانوا يعتمدون في معاشهم على وسائل للرزق أثبت من هذه وأقوى أساساً ، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوى المال أو الحسب والنسب .

وكانت فى معظم المساجد مكتبات ، كما كان فى معظم المدن دور عامة المكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وكان فى مدينة الموصل عام ٩٥٠ مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين ، يجد فيها من يومونها حاجتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التى اشتملت عليها مكتبة الرى العامة عشر مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطى رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ؛ وقضى ياقوت الجغرافي فى مكتبتى مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التى يتطلبها كتابه معجم البلدان . ولما أن

دمر المغول بغداد كان فها ست وثلاثون مكتبة عامة (^{٩)} ، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة ، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتني الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب . ودعا سلطان بخارى طبيبا مشهوراً ليقيم في بلاطه فأبي محتجاً بأنه يحتاج إلى أربعانة حمل لمينقل عليها كتبه (١٠٠) . وُلما مات الواقدى ترك وراءه سيّائة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه . « وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة هر١٢٦ . ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم ـــ اللهم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج ... ما بلغه في بلاد الإسلام فى القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر . فنى هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الدين ، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ؛ وكان بلاط منات الأمراء يرددون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ؛ ولم يكن أحد يجرو على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون . وسرعان ما استوعب العرب ذوو البديهة الوقادة ثقافة الأمم التي فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثرة الغالبة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم فى العلوم والآداب . وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هولاء الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء .

وقد قوى علماء الإسلام فى ذلك العهد دعائم الأدب العربى الممتاز بدر اسائهم الواسعة للنحو الذى جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس ؛ وبما وضعوه من المعاجم التى جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات فى دقة و نظام ؛ و بموسوعاتهم ، ومختصراتهم ، وكتبهم الجامعة ، التى جمعت كثيراً من أشتات الآداب والعلوم

لولاها لخسرها العالم ؛ وبمؤلفاتهم فى النصوص. ، والأدب ، والنقله التاريخى ، ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام ، وحسبنا أن نعترف بقضلهم ونمجد أعمالهم .

وأكثر من تحتفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون ، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التي لولاهم لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمپليون . ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام ٧٦٧) كاتب سيرة النبي ؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣) فكانت أقدم كتاب عربى منثور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا ــ إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه . وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة في سبر الأولياء الصالحين ، والفلاسفة ، والوزراء ، والمشرعين ، والأطباء ، والحطاطين ، وكبار الحكام ، والعشاق ، والعلماء . وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ للعالم ، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحت إليه أن يجعل نصيب الدين الذي ينتمي إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحير المتواضع الذي يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أى دين في كتاب تاريخ جامع لأحداث الدهر الكثيرة . وأخرج محمد بن النديم في عام ٩٨٧ كتابه « فرهرست العلوم » أرخ فيه لكل كتاب ظهر في اللغة العربية ، مؤلفاً كان أو مترجماً ، في كل فرع من فروع العلم ، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفها ، ذكر فها فضائل كل مؤلف وعيوبه . وفي وسع القارى أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامي في أيامه إذا عرف أن الكتب التي ذكرها ــ على ما نعلم ــ لم يبق منها الآن واحد في الألف(١٣) .

وشبيه بليني فى الغرب أبو جعفر محمد الطبرى (۸۳۸ – ۹۲۳) عند. المسلمين (۱۹ مر ۸۳۸) المسلمين (۱۹ مر ۱۹ من المؤلفين المسلمين ، ولد فى طبارستان الواقعة فى جنوب بحر قزوين . وبعد أن ظل عدة

صنين يطوف فى بلاد العرب والشام ومصر ، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه ، استقر في بغداد واشتغل بالقضاء . ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه كتاب أخبار الأمم والملوك قص فيه تاريخ العالم من بنم الخليقة إلى عام ٩١٣ . والجزء الباق إلى الآن من هذا الكتاب يشمُّل خسة عشر مجلداً كبراً ، ويقول المؤرخون إن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباق . ويرى الطيرى ، كما يرى بوسويه Boussuct ، يد الله في كل حادثة تقع في العالم ، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله ﴿ في امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته » وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم ، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض(١٦) . ونهج الطبرى نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ البهود ، وقال إن مرم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جريل نَفْخ في كمها)(١٧) . وختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء . أما الجزء الثانى فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول ، وفيه يقص تاريخ فارس في عهد الساسانيين قصصاً مقبولا حياً ، ذا روعة في يعض المواضع : ويتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام ، وهي في العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل مها إلى من شاهدها بعينه ، أو وقعت في أيامه . وفضل هذه الطريقة أنها تعني بذكر المصادر ؛ ولكن الطىرى لايحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها ' قصة موحدة متصلة ، ولهذا فإن تاريخه يبنى أكداساً من ثمار الجهد المضي لا عملا من أعمال الفن.

ويرى المسعودى ، وهو أعظم من جاء بعد الطبرى من المؤرخين ، أن الطبرى أعظم من سبقه منهم . كان أبو الحسن على المسعودى من أصل عربى في بغداد؛ وجاب بلاد سوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب، وزنجبار ، وفارس ، وأو اسط آسية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

الصن : وقد جمع ثمار رحلاته هذه في موسوعة تشتمل على ثلاثين مجلداً ، رآها علماء الإسلام أنفسهم ، وهم المعروفون بغزارة مادتهم ، أطول مما يطبقون ؛ ثم نشر موجزاً لها كان هو الآخر أطول مما يجب ، ولعله رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذى يصرفونه في القراءة مثل ما يجله هو منه ليصرفة في الكتابة ، فاختصر كتابه مرة أخرى إلى الحد الذي نعرفه الآن وسماه بدلك الاسم الغريب « صروح الرهب ومعاديه الجوهر . و درس المسعودي جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين إلى فرنسا من النواحي الجغرافية والنباتية ، والحيوانية ، والتاريخية ، كما درس عادات أهلها ، وأديانهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، فكان فى العالم الإسلامى كما كان پلنى وهيرودوت فى العالم الغربي . ولم يوجز المسعودي في كتابته إلى الحد الذي يجعلها عقيمة جافة ، بل كان ني بعض الأحيان يتبسط فيها ، وينطلق على سجيته ، فلا يحاجز نفسه عن أن يروى بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية . وكان متشككاً بعض الشيء في الدين ، ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه 🤉 وقد لخص فى آخر سنة من حياته آزاءه في العلم ، والتاريخ ، والفلسفة في كتاب الاستذكار لما صر في سائر الأعمار؛ وكتاب ذخارُ العلوم وما في سائر الدهور • وقد أشاد إلى تطود الكاثنات من الجاد إلى النبات ، ومن النبأت إلى الحيوات ، ومن الحيوان- إلى الإنسان(١٨٠) : ولعل هذه الآراء قد جرته إلى المشاكل؛ مع المحافظات من أهل بغداد ، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة المدينة التي ولله فيها وشب وترعرع ، وجاء إلى القاهرة وهو آسف على فراق موطنه . وقال في هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس جميعاً ويباعد بينهم . . . وإن الله يبارك للأمم إذا أحب أبناؤها مواطنهم ، وإن

من أمارات التقى والاستقامة أن يحن الإنسان إلى مسقط رأسه ، ومن علامات النبل وكرم المحتد أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه(١٩) .

ووافته المنية فى القاهرة بعد عشر سنين قضاها بعيداً عن بلده .

وخبر ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم فى اتساع دائرة جهودهم ، ونواحى نشاطهم ، واهتمامهم ، وأنهم يربطون ألجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صححياً ، وأنهم لا يفوتهم شيء مما يتصل ببني الإنسان ، وأنهم يعلون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين في العالم المسيحي . ولكنهم مع هذا كله كثيراً ما يضلون في دياجير السياسة ، والحرب ، والبلاغة اللفظية ؛ وقلما يعنون ببحث العلل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسانية التي تتحكم في الحوادث ، وإن مجلداتهم الضخمة لتعوزها الطريقة البنائية المنتظمة ، فلسنا نجد فها إلا أكداساً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة ــ عن الأمم ، والحادثات ، والشخصيات ، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً (*) دقيقاً نزيهاً ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً ، مصدره شدة تقواهم واستمساكهم بالدين ، على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلا قد تكون حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة . ومن أجل هذا تهبط قصتهم في بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال ، وتمتلئ بالندر ، وأخبار المعجزات ، وبالأساطير . وكما أن في وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جين Gibbon على الدوأم) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى ، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذيلا موجزآ للحروب الصليبية ، كذلك اقتضب كثيرون من المؤرخين المسلمين. تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبي محمدً : على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربي أن يصدر

^(﴿) لا شُكَ أَن الكاتب ينظر إلى هؤلاء المؤرخين بمين هذه الأيام ويقيمهم بمؤرخي القرن العشرين . (الماترجم)

على الشرق حكماً صحيحاً نزيها ؟ إن اللغة العربية تفقد جمالها في الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها ، وإن الموضوعات التي تمتلئ بها صحائف المؤرخين المسلمين ، وهي التي تبدو ذات روعة وجمال لبني أوطانهم ، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب اللين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حتى الفهم .

الفصل لثّاني العسلوم (*)

لم يدخر المسلمون في هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً في العمل على إيجاد هذا التفاهم الذي أشرنا إليه في الفصل السابق : فلقد أدرك الخلفاء تأخر العرب في العلم والفلسفة كما أدركو إ ما خلفه اليونانُ من ثروة علمية غزيرة فى بلاد الشام . لقد كان بنؤ أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية ، أو الصابئية ، أو الفارسية ، قائمة في الإسكندرية ، وبىروت ، وأنطاكية ، وحران ، ونصيبين ، وغنديسابور لم يمسوها بأذى ، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب في الفلسفة والعلم ، معظمها فى ترجمته السريانية . واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية ، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدى النساطرة المسيحيين أوالبهود . وشجع الأمراء من بني أمية وبني فلعباس هذه الاستدانة العامية المثمرة ، وأرسل المنصور ، والمأمون ، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية ــ وأرسلوهم فى بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقلمين ــ يطلبون إليهم أنْ يمدوهم بالكتب اليونانية ، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية . وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس في الهندسة إلى أيدى المسلمين . وأنشأ المأمون في بغداد هام ۸۳۰ بیت الحسکمة و هو عجمع علمی ، ومرصد فلکی ، ومکتبة عامة ،

⁽ و) واجب على كل كاتب عن العلوم علد المسلمين أن يسجل ما هو مدين به إلى چورج سارتن Geroge Sarton صاحب كتاب و المدخل في تاريخ العلوم » . فليس هذا الكتاب القيم من أجل الأعمال في تاريخ البحث العلمي فحسب ، بل إنه فوق ذلك قد أدى خسمة تجل عن التقدير إذ كشف عن غني الثقافة الإسلامية واتساع مداها ، وإن العلماء في كل مكان ليرجون من صميم قلوبهم أن يقدم كل ما يستطاع تقديمه من المعونة لإتمام هذا العمل الجليل .

وأنفق فى إنشائه مائتى ألف دينار (نحو ٢٠٠٠، ٩٥٠ ريال أمريكى). وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال-. ويقول ابن خلدون (٢٠) إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمى باليقظة الإسلامية الكبرى التى اهتزت بها أرجاؤه والتى تشبه فى أسبابها — وهى انتشار التجارة ، وإعادة كشف كنوز اليونان — وفى نتائجها — وهى ازدهار العلوم والفنون — نقول إنها تشبه فى أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى ،

ودامت هذه الأعمال ، أعمال الترجمة المخصبة المثمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ ، وفي هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية ، واليونانية ، والفهلوية ، والسنسكريتية . وكان على رأس أولئك الترجمين المقيمين في بيت الحكمة طبيب نسطوري هو حنين بن إسحق (٨٠٩ – ٨٧٣) : وقد ترجم وحده ــ كما يقول هو نفسه ــ إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية ، وإلى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة أخرى . ويفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وترجم حنين فضلا عن تلك الرسائل السالفة الذكز. كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغورياس) والطبيعة ، والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وكتب الجمهورية ، وطياوس ، والقوانين لأفلاطون ؛ و همهم أبقراط ، وكتاب الأقرباذين لديوسقريدس Dioscorides وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية . وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً , ولما ولى الخلافة المتوكل عينه طبيبا لبلاطه ، ولكنه زج به سنة فى السجن سين أبى أن يركب له دواء يقضى به علىحياة عدو له مع أن الحليفة أنذره بالموت إن لم يفعل . وكان ابنه إسمق بن حنين يساعد أباه في أعمال الترجمة ، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو كتب الميتافيزيقا ، والنفس ، وفى نوالد الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسى ، وهو كتاب كان له أثر كبير فى الفلسفة الإسلامية .

ولم يحل عام ٨٥٠ بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة فى علوم الرياضة ، والفلك ، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية . وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطى على كتاب بطليموس فى الفلك ، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥ ، ٦ ، ٧ من الخرولمات لأپولونيوسالىرجاوىApollonius of Perga وكتابالهيل لهبرو الإسكندرى وكتاب الخصائص الآلية للهواء والعازات لفيلون البزنطى. ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعلهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر أليونانى والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية ، فقد سار المسلمون في ركاب القرس في هذه النواحي من النشاط العلمي والأدبي بدل أن يسروا في ركاب البونان . وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدى المسلمين إلا في الصورة التي أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة : فقد وصلت إلَّيها كتب أفلاطُّون كما فسرها پورفيرى Porphyry ، ووصلت كتب أرسطو. ممسوخة في صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوچيا أرسطوطاليس ، وقله ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش في القرن الخامس أو السادس ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه . ولم يكد العرب يتركون كتابًا من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية ، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة في كثير من المواضع ؛ ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن ، ولحأوا إلى الشروح التي كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان في صورتها الأصلية . ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

الحقة إلى أيدى المسلمين إلا ما كان منها في المنطق وعلم الطبيعة .

وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالا مستمرآ من مصر ، والهند ، وبايل ، عن طريق بلاد اليونان وبنزنطية ، إلى بلاد الإسلام في الشرق وفي أسپانيا ، ومنها إلى شمالي أوربا وأمريكا ، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأنا في تاريخ العالم . لقد كانت علوم اليونان حية في بلاد الشام حن أقبل علمها العرب فاتحين ، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها يسبب ما اكتنفها قبلئذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد فى الحكم . وكان الراهب سڤىرس سبخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين إحدى مدن أعالى الفرات يكتب باليونانية رسائل في الفلك ، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية في حارج بلاد الهند . (٦٦٢) . لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتى الهند في هذا في المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان . فني عام ٧٧٣ أمر المنصور بترجة السدهنة وهي رسائل هندية في علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق . م . وربما كانت هذه الرسائل هي الوسيلة التي وصلت بها الأرقام « العربية » (الصفر من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام(٢١٦) . فني عام ٨١٣ إستخدم الخوارزمي الأرقام الهندية فى جداوله الرياضية ؛ ثم نشر فى عام ٨٢٥ رسالة تعرف فى اللاتينيه باسم Algoritmi de numero Indorum و أى الخوارزمي عن أرقام الهنود » . وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على العبدِّية العشريَّة . وفي عام ٩٧٦ قال محمد بن أحمد في مفاتيم العلوم إنه إذا لم يظهر فى العمليات الحسابية رقم فى مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف (٢٢) . وسمى المسلمون هذه الدائرة وصفراً ،

^(•) يسمى الإفرنج هذه الأرقام بالعربية لأنهم أخذوها من العرب ولكن العرب أقفسهم يسمونها بالأرقام الهندية لأنهم أخذوها عن الهنود . (المترجم)

أى خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية Cipher ؛ وحور العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero .

ويدين علم الحر ، الذي نجد أصوله في مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليوناني من رجال القرن الثالث ، باسمه إلى العرب ، الدين ارتقوا مهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات . وأبرز الشخصيات في هذا الميدان العلميُّ هي شخصية محمد بن موسى (٧٨٠ ــ ٥٥٠) المعروف بالحوارزمي نسبة إلى مسقط رأسه فى خوارزم (خيوة الحديثة) الواقعة شرقى بحر الخزر، وقد كتب الخوارزمي رسائل قيمة في علوم خمسة : كتب عن الأرقام الهندية ، وجمع أزياجاً فلكية ، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت في بلاد الأندلس الإسلامية هي المعمول بها في جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان فى الصين ؛ وهو الذى وضع أقدم الجداول المعروفة فى حساب المثلثات ، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون ، وأورد فى كتابه مساب الجبر والمقابلة حلولا تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية . ولقد ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ، لكن جرارد الكريمونائى Gerard of Cremona ترجمه في الةرن الثانى عشر ﴿ وظلت ترجمته تدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، ومنه أخذ الغرب كلمة. الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف . واشتهر نابت بن قرة (۸۲٦ ــ ۹۰۱) ، فضلا عما ترجمه من الكتب الكثيرة ، بمؤلفاته في الفلك والطب ، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين . وارتتى أبو عبد الله البتانى (٨٥٠ – ٩٢٩) وهو رجل صابعي من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albategnus ، بعلم حساب المثلثاث إلى أبعد من مبادثه التي كان علمًا في أيام هيارخوس وبطلميوس ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات في حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هيارخوس . وهو الذي صاغ

حساب المثلثات النسب بالصورة التي نستخدمها الآن في جوهرها .

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السهاوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكي ، ويدرسوا كلف الشمس. واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد . وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخسن ميلا وثلثي ميل ــ وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر . ومُن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل . ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الحبرة والتجارب العلمية ، وكانوا يسرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة ، وكتب أحدهم ــالفرغاني من أهل فرغانة وهي ولا يةوراء جيحون (حوالي عام ٨٦٠) ــ كتاباً فى الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوربا وغربى آسية سبعاثة عام . وأوسع منه شهرة البتانى الذى ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها . وقد وصل مهذه الأرصاد إلى كثير من « المعاملات » الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام ... منها تقديره زيوح الاعتدالين^(*) بـ ٥ر٥٤ في العام ، وميل مستوى الفلك بـ ٥٥ ۲۳° (۲۲۲) . ومنهم أبو الوفا الذي كان بعمل تحت رعاية سلاطن بني بويه الأولىن حكام بغداد والذي كشف (كما يقول سادلو Sadilot وإن كان قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو براهي Tycho Brahe بسيّاتة عام (٢٤) . وقد أقيمت للفاكيين المسلمين آلات غالية الثمن لم تقتصر على الاسطرلاب ، والكرات ذوات الحلق التي كانت معروفة لليونان الأقدمن ، بل كانت تشمل كذلك آلات لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدما ، وآلات سدس نصف قطرها تمانون قدماً . وقد أدخل المسلمون على الاسطرلاب تحسينات كثيرة ،

Procession of the Equinoxes (*)

ووصل منهم إلى أوربا فى القرن العاشر الميلادى ، وظل شائع الاستعال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه ، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً .

وهذا الاهتام العظيم بتصوير الساء قد فاقه اهتامه بتصوير أقاليم الأرض المسلمين كانوا يعيشون على فلح الأرض وعلى التجارة فى أقاليمها المختلفة . فقد حمل سليان التاجر — الذى عاش حوالى عام ١٨٠ سلعه إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكتب أحد المؤرخين غير المعروفين (٥٥١) وصفاً لرحلة سليان هذا ، كان هو أقدم وصف عربى لبلاد الصين ، وكتبه قبل رحموت ماركو پولو Marco Polo بأربعاثة وخسة وعشرين عاما . وقى ذلك القرن نفسه كتب ابن خردذبه وصفاً لبلاد الهند ، وسيلان ، وجزائر الهند الشرقية ، وبلاد الصين ، ويبدو أنه اعتمد فيا كتب على رحلاته فى تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه . ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية ، وبلاد اليعقوبى ، من أهل أرمينية وخراسان فى عام ١٩٨ كتاب البلداري وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من اللول الأجنبية وصفاً خليقاً بالثقة . وزار محمد المقدسى جميع البلاد الإسلامية فضلا عن بلاد الأندلس ، ولاقى فى أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد ، ثم كتب عام الملاد الإسلامية قبل كتاب أمسي التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وهو أعظم كتاب فى جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيرونى عن الهند :

ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣ ــ ١٠٤٨) العالم الإسلامى فى أحسن صورة له . فقد كان البيرونى فيلسوفا ، ومؤرخاً ، ورحالة ، وجغرافياً، ولغوياً ، ورياضياً ، وفلكياً ، وشاعرا ، وعالماً فى الطبيعيات ــ وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان من هذه الميادين . وكان عند المسلمين كما كان ليوناردو دافمنشى ، عند المسلمين كما كان ليوناردو دافمنشى ، عند

الغربين ۽ وقد ولد كما ولد الخوارزمي بالقرب من مدينة جنوي الحالية ، وتمثل فيه:كما تمثل في الخوارزمي زعامة موطنه في غرب بحر قزوين من الناحية العلمية في هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التي بلغ فيها العلم ذروته . وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً في بلاطهم . وسمع محمود الغزنوي بكثرة من كان في خوارزم من الشعراء والفلاسفة ، فطلب إلى أسرها أن يبعث إليه بالبيروني ، وابن سينا ، وغرهما من العلماء ؛ وأدرك الأمر أن هذا أمر واجب الطاعة (١٠١٨) ، وُسَافَرِ البِيرُونَى ليحيا حياة الجدُّ والهُدُوء والعزة والكرامة في بلاد المليك المحارب فاتح الهند . ولعل البىرونى قد دخل الهند فى ركاب محمود نفسه ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف فى الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وآثارها القديمة ، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذى لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له . ويقال إن رجلا من شمالي آسية زار محموداً ووصف له إقلما ادعى أنه رآه بعينه ، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبدآً . ولم يصدق محمود هذا القول ، وغضب على الرجل وأوشك أن يزجه فى السجن لحرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول ، فما كان من البيروني إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحا أقنع به الملك وأنجى الزائر (٣٦) م وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ ينفح البيرونى بالهدايا والأموال ، وكثيراً ما كان البيرونى نفسه يردها إلى بيت المال لزيادتها على حاجنه .

وكان أولِمؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم الأثار الباقية في التقاويم والأعباد عند الفرس، وأهل الشام، واليونان، واليهود، والمسيحيين، والصابتين، والزردشتيين، والعرب: والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة، مرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية، وكان البيروني يميل إلى مذهب الشيعة، وكان ذا نزعة متشككة خالية من المباهاة والادعاء؛ غير أنه ظل يحتفظ

بقسط من الوطنية الفارسية ، وأنحى باللائمة على العرب لقضائهم على ماكان في العهد الساساني من حضارة عظيمة (٢٧٧). أما فيا عدا هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية ، الحجد في البحث العلمي ، النقادة للزوايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) ، المدقق ، النزيه ، ذي الضمير الحي في أحكامه ، وكثيراً ماكان يعترف بجهله ، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تنكشف له الحقيقة . وقد قال في مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن في بعض كتبه « . . . بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الحلق ، والأمباب المعمية لصاحبا عن الحق ، وهي كالعادة المألوقة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، المطلوب بالرياسة ، وأشباه ذلك وبغير ذلك ، لا يتأتي لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد » .

وبينا كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها ، كان البرونى يقضى السنن الطوال فى دراسة شعوبها ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وثقافتهم ، ومختلف طوائفهم . وأثمرت هذه الدراسة كتابه تاريخ الهند الذى نشره فى عام ١٠٣٠ والذى يعد أعظم مؤلفاته . وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره ، وذكر أنواع الكذابين الذين ألفوا كتبا فى التاريخ (٢٨). ولم يخص تاريخ الهند السياسى إلا بحيز صغير فى كتابه ولكنه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلا من فصوله وخص أديانها بأحد عشر . وكان من أهم ما سحر لبه البهاجافاه جيئا وأدرك ما بين تصوف الفدانتا ، والصوفية ، والفيئاغورية الحديثة ، والأفلاطونية الحديثة من تشابه . وأورد مقتطفات من كتابات مفكرى الهنود ، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان ، وفضل آراء اليونان عن آراء الهنود ، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط ، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام (٢٩٠) . ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكأنما أراد أن يوفى بلينه للهند العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكأنما أراد أن يوفى بلينه للهند

فترجم إلى السنسكريتية كتاب أصول الهندسة لإقليدس و المجسطى لبطليموس.

وكادت عنايته تشمل جميع العلوم ، فقد كتب عن الأرقام الهندية أو في بحث في العصور الوسطى ؛ وكتب رسالة عن الاسطرلاب ، وداثرة فلك البروج ، وذات الحلق ، ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود . ولم يكن يخالجه أدنى شك في كرية الأرض ، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها ، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تلور حول محورها مرة في كل يوم ، وحول الشمس مرة في كل عام ، بنفس السهولة التي تفسر بها إذا افترضنا العكس(٣٠) . وقال إن وادى نهر السند ربما كان في وقت من الأوقات قاع بحر(٣١) ، وألف كتاباً ضخا فى الحجارة وصف فيه عدداً عظما من الأحجار والمعادن من النواحي الطبيعية وشرح قيمتها النجارية والطبية . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيغه(٣٣) . وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الإلتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة ، كما تحدث في القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحبات الرمَل . ووضع في الهندسة حلولا لنظريات سميت فيا بعد باسمه . وألف موسوعة فى الفلك ، والتنجيم ، والعلوم الرياضية ؛ وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأوانى المستط فَقَرْ٣٣٪ . وألف تواريخ حكم السلطان محمود ، وسبكتجين ، وتاريخا لخوارزم . ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ العلماء . وإن كثرة مؤلفاته في الجيل الذي ظهر فيه ابن سينا ، وابن الهيثم ، والفردوسي لتدل على أن الفترة الواقعة في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر هي التي بلغت فها الثقافة الإسلامية ذروتها ، وهي التي وصل فها الفكر في العصور الوسطى إلى أعلى درجانه .

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونّان ــ على ما نعلم ــ على الخيرة الصناعية والفروض الغامضة . فقلد اخترعوا الأنبيق وسموه سهذا الاسم ، وحلاوا عدداً لا يحصي من المواد تحليلا كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات في الحجارة ، ومنزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها ، ودرسوا مثات من العقاقير الطبية ، وركبوا مثات منها(*) . وكان علم تحويل المعادن إلى ذهب ، الذي أخذه المسلمون من مصر هو الذي أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق ، عن طريق مثات الكشوف التي تبينوها مصادفة ، وبفضل الطريقة التى جروا عليها فى اشتغالم بهذا العلم وهى أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة . ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين في ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع فى نهاية أمرها إلى أصول واحدة ، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر. وكان الهدف الذي يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن « الحسيسة » كالحديد ، أو النحاس ، أوالوصاص ، أوالقصدير إلى فضة ، أو ذهب . وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة ـ يدأبون على البحث عنها ولا يصلون إليها ــ إذا عرجت مها تلك المعادن العلاج الصحيح ، حلث فيها التغير المطلوب . وكان الدم ، والشعر ، والبراز ، وغير ها من المواد تعاليج ﴿ « بكواشف » متنوعة ، وتعرض لعمليات التكليس ، والتصعيد ، وللضوء ، والنار ، علما أن يكون فها ذلك الإكسير السحرى(٢٦). وكان الاعتقاد السائد أن الذي يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

⁽ م) الكحول كلمة عربية ولكن هذه المادة ليست من مختر عات العرب. وقد ذكر أول ما ذكر في مؤلف إيطالى ظهر في القرن التاسم أو العاشر (٣٠) الميلادى ، وكان الكحل عند المسلمين مسحوقاً تطل به الحواجب.

يطيل حياته : وكان أشهر الكيميائيين المسلمين جابر بن حيان (٧٠٢ – ٧٠٥) المعروف عند الأوربيين باسم جبير Gebir . وكان جابر ابن عقار كوفى ، اشتغل بالطب ، ولكنه كان يقضى معظم وقته مع الأنابيق والبوادق . ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ، ولكنها فى الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم فى القرن العاشر : وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التى لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل فى تقدم علم الكيمياء فى أوربا : وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم ، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثليائة عام لا يرفع فيها رأسه .

وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين في ذلك العصر، ومن هذه الآثار كتاب النبات لأبي حنيفة الدينورى الذى رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاقير أخرى كثيرة. وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إبتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهارا نادرة جميلة المنظر(٢٧٧)؛ وشرح عمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة ١٨٨) نظرية في التطور شبهة بنظرية المسعودي فقال إن الحياة قد ارتقت من الجاد إلى النبات، ومن النبات إلى الحيوان، ثم من الحيوان إلى الإنسان(٢٨٠)؛ واعتنق الشاعر الصوفى جلال الدين هذه النظرية، ولم يضف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً في الماضى، فإن الناس في المرحلة الثانية سيصبحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله(٢٩٠) ه.

الفصار كشاكث

الطب

وما فتى الناس في هذه الأثناء يحبون الحياة ، وينفقون الأموال الطائلة فى تأخير ساعة الموت ، وإن كانوا دائمي الافتراء علمها والتنديد مها . ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون من الطب إلا معلومات بدائية ، ولم يكن لدمهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذي لا يغني . فلما أن ازدادت الثروة نشأت في الشام وفارس طائفة من الأطباء ، واسعة العلم ، عظيمة المقدرة ، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند . . وإذكان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء في كتب جالينوس ، أو على دراسة الجرحي من الناس ؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامي هو الجراحة ، وكان أقواها هو الطب العلاجي وخواص العقاقير الطبية . وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر ، والكافور ، وخيار الشنبر ، والقرنفل العطرى ، والزئبق ، والسنالمكي ، والمر ، وأدخلوا في الأدوية مستحضرات طبية جديدة ــ منها أنواع الشراب ، والجلاب ، وماء الورد وما إليها . وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استبراد العقاقير العربية . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات ، وهم الَّذين أنشأوا أول مدرسة للصيدلة ، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمي التحمس في دعوتهم إلى الاستحام ، وخاصة عند الإصابة بالحميات(٢٦) ، وإلى استخدام حمام البخار ؛ ولا يكاد الطب الحديث بزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبة ؛ وقداستخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الحراحية (٤٢) ؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

المخدرات على النوم العميق^(٣) ؛ ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا كانت قائمة في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت(٤٤٠) ، ويلوح أنها أنشئت على نمط المجمع العلمي والمستشفى الفارسي الذي كان في جنديسابور ؛ وأنشئ أول بهارستان معروف لنا فى بغداد فى أيام هرون الرشيد ، ثم أنشئت فيها حمسة أخرى فى القرن العاشر الميلادى ؛ ويحدثنا المؤرخون فى عام ٩١٨ عن مدير لها في بغداد (٥٠) : وكان أعظم بهارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبها هو البهارستان الذي أنشي من مشق عام ٧٠٦ ؛ وفي عام ٩٧٨ كان به أربعة وعشرون طبيبًا . وكانت البيارستانات أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب ؛ ولم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة .كذلك كان الصيادلة ، والحلاقون ، والمجبرون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم . وقد نظم على ابن عيسى الوزير – الطبيب ــ هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون في مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (٩٣١) ؛ وكان أطباء يذهبون فى كليوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها ؛ وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية . غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلق فى معظم الأماكن ما هى خايقة به مَن العناية ، ودليلنا على ذلك أن أربعين. وباء اجتاحت في أربعة قرون هذا البلد أو ذاك من بلاد الإسلام .

 بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس. وجاء بعد جبريل في بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر ، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (۷۷۷ – ۸۵۷) ، الذي درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، ومنهم حنين بن إسحاق ، المترجم ، صاحب كتاب العشر مقابوت في العين ، وهو أقدم كتاب دراسي منظم في طب العيون ؛ وعلى بن عهسي أعظم أطباء العيون المسلمين ، وقد ظل كتابه تذكرة السكمالين يدرس في أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازى (٩٢٦ – ٩٢٦) اشتهر بن الأوربين باسم رازيس Rhases . وكان أبو بكر كمعظم كبارالعلماء والشعراء في وقته فارسياً يكتب بالعربية . وكان مولده في بلدة الرى القريبة من طهران ، ودرس الكيمياء بنوعيها ، والطب فى بغداد ، وألف ١٣١ كتاباً نصفها في الطب ، ضاع معظمها . ومن أشهر كتبه كتاب الحاوى وهو كتاب في عشرين مجلداً ، ويبحث في كل فرع من فروع الطب . وقله ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber cntinens ، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض ، وكان من الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية فى جامعة باريس عام ١٣٦٤(١٨) . وكانت رسالته فى الجدرى والحصبة آية فى الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق ، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، وأون مجهود يبذل للتفرقة بن هذين المرضين . وفى وسعنا أن تحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين على ١٤٩٨ ، ١٨٦٦ . وأشهر كتب الرازى كلها كتاب طبي في عشر مجلدات يسمى كتاب المنصوري آهداه إلى أحد أمراء خراسان . وقد ترجمه جرار الكريمونى إلى اللغة اللاتينية . وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين ياسم Nonus Almansoris المسادس عشر . وقد كشف الرازى طرقا جديدة فى العلاج كرهم الزئبق ، السادس عشر . وقد كشف الرازى طرقا جديدة فى العلاج كرهم الزئبق ، واستخدام أمعاء الحيوان فى التقطيب . وهدأ من تحمس الأطباء لتحليل البول فى عصر أقبل فيه الأطباء على تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض ، دون أن يروه فى بعض الأحيان . ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « فى أن الطبيب الحاذق ليس مو طرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « فى أن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس فى الوسع » ورسالته الأخرى علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعدر الطبيب فى ذلك » . ولقد علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعدر الطبيب فى ذلك » . ولقد كان الرازى بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريرى والثمانين من عمره .

وقد علقت فى مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين ها: الرازى وابن سينا . وكان أبو على الحسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه ، وتشهد سبرته التى كتبها بيده – وذلك النوع من السبر نادر فى الأدب العربى – بكثرة ما كان محدث فى العصور الوسطى من تقلب فى حياة العلماء والحكماء . فقد كان ابن سينا ابن أحد العبيارفة فى بخارى ، وتلتى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر العبيارفة فى بخارى ، وتلتى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر فيا ينطوى عليه عقله العلمى من نزعة صوفية . ويقول أعنه ابن خلكان بشيء من المغالاة المألوفة عتد المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عره وكان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والحير والمقابلة و(٥٠) .

وقد تعلم الطب من غير مدرس، وأخلوهوشاب يعالج المرضى من غير أجر

وشتى وهو فى السابعة عشرة من عمره نوح بن منصور أمىر بخارى من مرضه ، وعين فى منصب فى بلاطه ، وكان يقضى فى الدرس ساعات طوالا فى مكتبة السلطان الضخمة . ولما قضى على سلطان السامانيين في أواخر القرن العاشر الميلادي لجأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمبر خوارزم . ولما استدعى محمود الغزنوى ابن سينا والبيرونى وغيرهما من جهابذة العلماء فى بلاط المأمون ، لم يطع ابن سينا أمره ، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء . وهبت علمهما عاصفة رملية مات فها زميله ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان يعد أن قاسي كثيرًا من الصعاب ، وفيها عين في منصب في بلاط قالبوس . ونشر محمود الغزنوى في بلاد الفرس صورة لابن سينا ، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية ، ولكن قابوس حماه بمن عيون الأمس . ولما قتل قابوس دعى ابن سينا لعلاج أمر همذان ، وشنى الأمير على يديه فاتخذه وزيراً له ، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه ، فقبض عليه ، ونهب بيته ، وأراد أن يقتله . واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبيُّ في بيت صيدلى ، وبدأ وهو فى غبثه يؤلف كتبه التي كانت سبباً في شهرته . وبينا هو يدبر لنفسه أمر الفرار سراً من همذان قبض عليه ابن الأمر وزج به في السجن حيث قضى علمة أشهر واصل فيها التأليف . واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن ، وتخفى في زى أحد رجال الطرق الصوفية ، وبعد عدة مغامرات لا تتسم لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ في بلاط علاء الدولة البويهي أمير إصفهان ، ورحب به الأمير وكرمه ، وهنا التف حوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخلوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمعر نفسه . ويستدل من بعض القصص التي وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب ، كما يستمتع بملاذ الدرس . غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس ، والتعلم ، والشئون العامة ، وينقل لنا ، ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلي جدتها: اجعل غذاءك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طعام واحفظ منيك ما استطعت فإنه ماء الحياة يراق في الأرحام

وأثرت حياة الكدح فى صحته فمات فى السابعة والخمسين من عمره وهو مسافر إلى همذان ، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم .

ولقد وجد ابن سينا في صروف حياته ، في مناصبه أو في سجنه ، متسعاً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن كل فرع تقريبا من فروع العلم والفلسفة . هذا إلى أن له قصائد من الشعر الحيد وصلت إلينا مها خس عشرة قصيدة انزلقت واحدة مها إلى رباعيات عمر الحيام ، ومها قصيدته العينية في النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم علوى ومطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع (*) ولا يزال الطلاب في بلاد الشرق الإسلامي حتى اليوم يحفظونها عن ظهر قلب . وقد ترجم كتاب إقليدس في الهندسة ووضع عدة أزياج فلكية ، وابتكر آلة شبهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم . وله دراسات مبتكرة في الحركة ، والطاقة ، والفراغ ، والضوء ، والحرارة ، والكثافة النوعية . وله رسالة في المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر علم طبقات الأرض عند الأوربيين . وقد كتب فيها عن تكوين الجبال كتابة تعد أنموذجا للوضوح في العلم . فقد قال إن الجبال قد تنشأ من سببين مختلفين : فقد تكون نتيجة اضطرابات في القشرة الأرضية كما يحدث في أثناء الزلازل العنيفة ، وقد تكون نتيجة لفعل المياه التي تشق لنفسها طريقا جديدا بنحت الأودية . ذلك أن طبقات الأرض مختلفة في أنواعها ؛ فنها الهش وهنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول

^(*) ومنها :

وهی التی سفرت ولم :تتبرقع کرهت فراقك و هی ذات ثفجع

محجوبة عن كل مقلة عارف وصلت عل كره إليك ور_بما

الكنهما تتركان صخور النوع الثانى على حالها . وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال . . . ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات الماثية في كثير من الجبال يدل على أن المياه هي أهم الأسباب التي أحدثت هذه النتائج (٢٠).

ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولها كتاب الشفاء رشفاء النفس) ، وهو موسوعة في ثمانية عشر مجلدآ في العلوم الرياضية ، والطبيعة ، إوما وراء الطبيعة ، وعلوم الدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والموسيق ؛ وثانهما كتاب القانور. في الطب ، وهو بحث ضخم في وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والعلاج ، والأقرباذين ، يتطرق من حين إلى حين إلى . الموضوعات الفلسفية . وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى في بعض الأحيان إلى درجة كبرة في البلاغة ، واكن شغفه الشديد بالتصنيف والتميز يصبح عنده آفة لابجد لها الرئيس دواء . ويبدأ المؤلف بتحذير لايشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يخفظ عن ظاهر قلب(١٥٢) هذا الكتاب الذي يحتوى ألف ألف كلُّمة . والطب في رأيه هو فن إزالة العقبات التي تعترض طريق عمل الطبيعة السوى . وهو يبحث أولا فى الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها ، وتشخيصها ، وطرق علاجها . وفى الكتاب فصول عن طرق الوقاية والوسائل الصحية العامة والحاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، والحجامة ، والكى ، والاستحام ، والتدليُك . وهو ينصح بالتنفس العميق ، وبالصياح من حبن إلى حبن لتقوية الرئتين والصدر ... واللهاة . ويلخص الكتاب الثاني ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث في بعض الأمراض وطبائعها ، وفيه بحوث قيمة ممتازة عن النّهاب البلورا والدُّ بيلة (*) ، والنز لات المعوية ، والأمراض التناسلية ، وفساد الشهوة ، والأمراض العصبية ، بما فها العشق ،

^(﴿) هذا هو الاسم الذي يطلقه ابن سيئا على هذا المرض ويسميه أبو القاسم الزهراوي الذبيلة بالذال المنقوطة وهو ممروف بالأمهييما أي تجمع الصديد في حوف البلورا . (المترجم)

ويبحث الكتاب الرابع فى الحميات ، وفى الجراخة ، وأدهان التجميل ، ووسائل العناية بالشعر والجلد . وفى الكتاب الرابع الحاص بعلم العقاقير الطبية – تعليات مفصلة عن طرق طبخ سبعائة وستين نوعاً من العقاقير . وحل كتاب القانون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر محل كتب الرازى وجالينوس ، وأصبح هو الذى يعتمد عليه فى دراسة الطب فى المدارس الأوربية . وقد احتفظ فيها بمكانته العالية ، وظل الأساتذة يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه فى جامعتى منهلييه ولوڤان إلى أواسط القرن السابع عشر .

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى ، وأن الرازى أعظم أطبائها ، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها ، وابن الهيثم أعظم علمائها في البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها . تلك أسماء خسة لا يعرف عنها العالم المسيحى في الوقت الحاضر إلاالقليل ، وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى ، وليس في وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً ما تلوثت بالأوهام شأنها في هذا شأن سائر العصور الوسطى ، وأن تفوقها كلها — عدا علم البصريات — يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التي تجمعت كلها — عدا علم البصريات — يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التي تجمعت لديها أكثر من تفوقها في الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة ؛ لكنها مهما يكن قصورها في هذه الناحية قد نمت في علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية ، وهي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره . ولما أن أعلن روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوربا بعد أن أعلنها جابر بخمسائة عام كان الذي هذاه إليها هو النور المدى أضاء له السبيل من عرب الأندلس ، وليس طذا الضياء نفسه إلاقبساً من نور المسلمين في الشرق .

الفصل لرابع

الفلسيفة

لقد استعار الإسلام في الفلسفة ، كما استعار في الطب ، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية ، ثم رد هذا الدين إلى أوربا المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية . وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثرة هي التي أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة ، وإلى فلسفات الكندي ، والفاراني ، وابن سينا ، وابن رشد . فقد جاءت أفكار الهند إلى بلاد الإسلام عن طريق غزنة وفارس ، وكان للآراء الزردشتية والمودية عن الحشر والحساب بعض الأثر في الفلسفة الإسلامية ؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل في بلاد الشرق الأدني في صفات الله ، وفي طبيعة المسيح وكلمة الله ، وفى الجرية والقدرية ، والوحى والعقل. لكن العامل الذي كان له أكبر الأثر في التفكير الإسلامي في آسية _ كما كان له أكبر الأثر في إيطاليا أيام النهضة _ هو كشف T ثار اليونان الفكرية من جديد ؛ فقد أدى هذا الكشف ــ وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك في صحبها ــ إلى ظهور عالم جديد : عالم كان الناس يفكرون فيه فى كل شيء ولا يخشون الكتب المقدسة ، ولا يرون أن السهاء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً (*) أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التي لا تستند إلى قانون من قوانين العقـــل ، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

⁽a) لم يكن هذا التفكير مقصوراً على اليونان وحدهم ، بل قد جاء به القرآن نفسه في عدة آيات : «وما خلقنا الساء والأرض وما بينهما لاعبين » : سورة الأنبياء : ١٦٠ ؛ وسورة ص : ٢٧ وسورة الحجر : ٨٥ ؛ وسورة الدمحان : ٣٨ .

يحكمها جميعاً وتنضح آثاره في كل جزء من أجزاء الكون. وقد افتين المسلمون بالمنطق اليوناني في صورته الكاملة الواضحة التي جاء بها كتاب أو رغافوره (الوّلة الفكرية) لأرسطو وبعد أن أتبح لهم الفراغ الذي لا بد منه للتفكير، ووجدوا فيه الأدوات التي يحتاجونها لتفكيرهم ؛ وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لبهم بهجة الفلسفة المحببة كما سلبت لب الشباب في أيام أفلاطون. وسرعان ما أخذ صرح العقائد التعسفية يتصدع وينهار، كما أنهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسيخرية ثالتر اللاذعة.

وكانت البداية التقريبية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خال القرآن. ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها هي حكمة الله الأبدية ، وما جاء به الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي : وفي البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء يه كان وبغيره لم يكن شيء مماكان ه⁽⁷⁰⁾ ، وعقيدة المسيحيين العارفين (⁴⁾ وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية ويقولون إنها هي أداة الحلق الفعالة ، وعقيدة المهود في أزلية التوراة ــكل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة المؤلدة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً في عقل الله ، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهرون في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهرون عاصرامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

^(*) القائلين بأن الحلامن بالمرفة لا بالإيمان . (المترجم)

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التي يحاولون بها التوفيق بن العقل والدين اسم السكلام أى المنطق . وقد بدا لهم أن من السخف أن توخذ بحرفيها العبارات الواردة القرآن والتي تقول إن لله يدبن وقدمين ، وإنه يغضب ويكره ، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعرى ، إذا كان يتفق مع أغراض النبي الأخلاقية والسياسية في أيام الرسالة ، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنبرون في أيامهم ، وإن العقل البشرى عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته الحقة ، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هي أساس الحقائق عامة . وفضلا عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن من الحطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم من عند الله ، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيئاب ومن سيعنب .

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التي يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ؛ واغتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سرًا في بادىء الأمر عدد من العلماء والحارجين على الدين ، ثم جهر بها رجال في ندوة الحلفاء المسائية ، ثم وجدت من يدعو إليها في المحاضرات التي تلتي في المدارس والمساجد ، يل تغلبت في أماكن متفرقة على غيرها من الآراء . وافتتن المأمون نفسه بهذه المنزعة العقلية الآخذة في القوة ، وبسط عليها حمايته ، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمى . ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ، عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ، وأصدر في عام ۸۳۲ أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق في وقت بعينه ، وأتبع هذا بأمر آخر يقضى بألا يعين قاضياً في المحاكم من لا يعلن قبوله لهسذه العقيدة الجديدة أو أن

تقبل فيها شهادته , وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم .قبول عقيدة حرية الإرادة ، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين ، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وتوفى المأمون فى عام ٨٣٣ ولكن المعتصم والواثق اللذين توليا الخلافة بعده واصلا هذه الحملة الفكرية ، وقاوم الإمام ابن حنبل هذا الاضطهاد الفكرى وندد به ؛ ولما استدعى لمناقشته فى أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن توبد آراء أهل السنة ، فضرب حيى أنمى عليه ، وألتى فى السجن ، ولكنه أصبح فى أعن المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين ، وكان تعذيبه هذا من العوامل التى مهدت السبيل للانتقاض على الفلسفة الإسلامية .

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت فى ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الذى ولد فى الكوفة عام ١٠٧٨م . وكان والد الكندى من ولاة الأعمال فى المدينة ؛ وتلتى هو العلم فها وفى يغداد ، وذاعت شهرته فى الترجمة ، والعلم والفلسفة فى بلاط المأمون والمعتصم ، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله فى مجد الإسلام الفكرى فى عدد كبير من العلوم ، فلمرس كل شىء ، وكتب ٢٦٥ رسالة فى كل شىء وللحاب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والظواهر الجوية ، وتقويم البلدان ، فى الحساب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة . . . وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس فى وسع إنسان أن يصبح فيلسوفا من غير أن يكون قبل ذلك عالما فى الرياضة ؛ وحاول أن يبنى علم الصحة ، والطب ، والموسيق على نسب رياضية . وقد درس فيا درس ظاهرة المد والمؤرد ، وبحث القوانين التى تحدد سرعة الأجسام الساقطة فى الهواء ، كه والمؤرد ، وبحث القوانين التى تحدد سرعة الأجسام الساقطة فى الهواء ، كه

روجر بيكن Roger Bacon . (وقد أدهش الكندى العالم الإسلامي برسالته في الدفاع عن المسجية) (١٥٠)(*) واشترك هو وزميل له في ترجمة كتاب أرسطو فى الإلهيات (أو ثولوجيا) . وثأثر الكندى أشد التأثر مهذا الكتاب المنحول وسره كل السرور أنه يوفق بن أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة . ذلك أن فلسفة الكندى نفسه هي الأفلاطونية الجديدة . مصبوغة صبغة جديدة : فالنفس عنده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التي هي فيض من هذه النفس الثانية . وإذا استطاع الإنسان أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود . ويلوح أن الكندى قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتنق آراء أهل السنة ، ولكنه أُجلب عن أرسطو(٥٠) التفرقة بن العقل الفاعل أى العقل الإلهي ، وعقل الإنسان المنفعل الذي لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير . ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذي أثار به العالم واتخذه حجة ضد القائلين بالخلود الفردى . وانتهى الكندى بالانضهام إلى المعتزلة ، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه ، وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا من هذه العاصفة ، واسترد مكتبته ، وعاش حتى عام ۸۷۳ .

إن المجتمع الذى يرتبط فيه نظام الحكم ، والقانون ، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى فى كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعي نفسه . ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التي طغى علمها الفتح العربي

⁽ م) ليس للكندى الفيلسوف رسالة فى الدفاع عن المسيحية. أما كاتب هذه الرسالة فهو عبد المسيح بن إسحق الكندى ، وقد كنبها رداً على رسالة بعث بها إليه عبد الله بن إسهاعيل. الهاشمى يدعوه فيها إلى الإسلام ، فبعث هو إليه بهذه الرسالة يدعو عبد الله إلي النصرائية . وقد اختلط الأمر على المؤلف لتشابه الاسمين . وقد ورد ذكر الرسالتين فى كتاب الآثار الباقية للبيرونى . (المترجم)

وهي الفلسفة اليونانية والمسيحية الغنوسطية ، والقومية الفارسية ، والشيوعية المزدكية ؛ وكان نشاطها عنيفاً '، فأخذت تجادل في القرآن ، وجهر شاعر فارسى بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه ، فكان جزاوًه على قوله هذا ـ قطع رأسه (٧٨٤) ٥ وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد أصبح وشيك الانهيار . غير أن عوامل ثلاثة في هذه الأزمة الشديدة جعلت النصر النهائى لأهل السنة : وهذه العوامل هي وجود خليفة محافظ مستمسك يدينه ،' .واشتداد ساعد الحرس التركي ، وولاء الناس الطبيعي لعقائدهم الموروثة . فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة في عام ٨٤٧ استمد العون من الشعب ومن الأتراك. وكان الترك حديثي العهد بالإسلام ، حاقدين على الفرس ، غريبن عن الفكر اليوناني ، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة لتأبيد السياسة التي ترمى إلى نصرة الدين بحد السيف. فنقض المتوكل السياسة الحرة العنيفة التي جرى عليها المأمون ، وألغى ما أصدره فيها من المراسيم ، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحدين من مناصب الدولة والوظائف التعليمية ، وحرم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة في الأدب والفلسفة ، وسَنَّ قانوناً يحمُّ القول بأن القرآن أزلى غير مخلوق ، واضطهد الشيعة وهدم مشهد الحسين في كربلاء (٨٥١) . وجدد المتوكل الأمر المعزو إلى عمر بن الحطاب ضد المسيحين ، والذي وسعه هرون الرشيد حتى شمل اليهود (٨٥٠) ، ثم أهمل العمل به بعيد صدوره ، جدد المتوكل هذا الأمر ففرض على اليهود والمسيحيين أن يليسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من غيرهم من أفراد الشعب، وأن يضعوا رقعاً ملونة على أكمام أثواب عبيدهم، وألا يركبوا غبر البغال والحمير ، وأن يثبتوا صوراً خشبية للشيطان على أبواب بيوتهم ؛ وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية والبهودية الجديدة ، وحرم رفع الصليب علناً في المواكب المسيحية ، ولم يسمح لمسيحي أو يهودي آن يتلتى العلم فى المدارس الإسلامية .

واتخذرد الفعل في الجيل التالى صورة أقل صنفاً من هذه الصورة السابق

وصفها . فقد قام جماعة من العلماء السنيين وجهروا في شجاعة بقبول حكم المنطق في الجدل القائم ، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصيلة . وهولاء المشكلمور (المناطقة) في الإسلام يشبون الفلاسفة المدرسيين في أوربا في العصور الوسطى ، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك في القرن الثاني عشر بالنسبة لليهودية ، وتومس أكوناس في القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية . وظل أبو الحسن الأشعري (٨٧٣ – ٩٣٥) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين في البصرة ، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره ، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم ، وهو سلاح المنطق ، وسلط عليهم سيلا جارفاً من الجدل القوى كان له أكبر الأثر في انتصار عقائد أهل السنة . وقد آمن أبو الحسن إيماناً قويا بمبدأ الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث ، وإنه علم كلها ، وإنه يعلو على القوانين والأخلاق ، وإنه يصرف شئون خلقه كما يشاء ، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس في ذلك خطأ قط ١٠٥٠.

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلى ، ونادى كثيرون منهم بمبدل « بلاكيف » أى أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان (٢٠٠) ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل في الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون في التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بدائه يسلمون بها دون مناقشة .

و هكذا هدأت موجة الفلسفة فى بغداد ، ولكنها ثارت فى الوقت نفسه فى العواصم الإسلامية الصغرى ؛ فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابي بيتا فى يغداد ، وكان الفارابي أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأثراك . كان مولده فى فاراب إحدى ولا يات التركستان ، ودرس المنطق فى يغداد على معلمين مسيحيين

وقرأ كتاب الطبيعة لأرسطو أربعن مرة ، وكتاب النفس ماثتي مرة ، ورمى بالزندقة في بغداد ، وارتدى ملابس المتصوفة ، واعتنق مبادئهم ، وعاش كما يعيش طير الهواء . ويقول عنه ابن خلكان إنه «كان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأى مكسب ولا مسكن ، (٢١٥) .

وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابي إنه يكفيه أربعة دراهم فى اليوم « فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى » .

وقد بني من مؤلفات الفارابي تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح لأرسطو وتعليقات على آرائه . وقد لحص في كتابه إمصاء العلوم علم عصره في الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والكيمباء ، والاقتصاد ، والسياسة . وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذي أثار ثائرة الفلاسفة المسيحين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلي (أي الحنس ، والنوع ، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلا عن الجزئي ؟ وقد خدع كما خدع غيره بإلهات أرسطو فبدل الاصطاغيري العنيد (أي رجل متصوف . وطال به العمر حتى هدأت سورته العلمية واستمسك بقواعد الدين . وكان في شبابه قد جهر بنزعة لا أدرية متشككة (١٢٠) ، ثم مستعيناً على ذلك بالبراهين التي أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتي مستعيناً على ذلك بالبراهين التي أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتي استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت ، فقال إن حدوث سلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلاإذا أرجعناها في النهاية إلى كاثن من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلاإذا أرجعناها في النهاية إلى كاثن وسلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها الإإذا أرجعناها في النهاية إلى كاثن وسلسلة من الحوادث العارضة الوقوعها ، ووجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى ؛

^(*) يريد أرسطو المولود في اصطاغيرا وهي مدينة أيونية على بحر إيجة . (المترجم)

وإن الهدف النهائى للفلسفة ، وهو الهدف الذى لا يمكن بلوغه كاملا ، هو معرفة العلة الأولى ، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس . وقد استطاع الفاراني ، كما استطاع أرسطو أن يعنى بجعل أقواله عن الحلود غامضة غير مفهومة . ومات الرجل فى دمشق عام ١٩٥٠م .

ومن بين كتب الفارابي الباقية كلبها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعى به كتاب المدينة الفاضعة . ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حي ضد سائر الكائنات ؛ وهو في ذلك يشبه ما يقوله هنر Hobbs من أن الأشياء كلها ويحارب بعضها بعضاً ؛ ثم يقول إن كل كائن حي يرى في آخر الأمر أن ساثر الكائنات الحية وسائل يحقق مها أغراضِه ، ثم يعقب على هذا يقوله إن بعض الساخرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل في هذا التنافس الذي لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته ، وأعظمهم تحقيقاً لرغباته كاملة . فكيف خرج المجتمع الإنسانى إذن من هذا القانون **خانون الغاب ؟ وإذا ما أمعنا الفكر في أقوال الفاراني رأينا أنه كان بن** المسلمين اللين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز ننشة : فنهم من قال إن المجتمع قام في بادئ الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التي تعتمد على العادات والقانون ؛ ومنهم من سخر من هذا « العقد الاجماعي» وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط في تاريخ العالم ، وأكد أن المجتمع بدأ ، أو أن الدولة بدأت، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها . ويضيف هؤلاء النتشيونُ أن الدول،نفسها أدوات للتنافس ، وأنمن الطبيعي أن يقاتل بعضها بعضاً سعياً وراء سيادتها على غير ها ، وسلامتها ، وسلطانها ، وثرائها ، وأن الحرب طبيعيَّة ولامفر منوقوعها ؛ وأن الذيسيسفر عنه هذا الصراع ، لابد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزلى ، وهو أن الحق الوحيد هو القوة . ويقاوم الفار الى هذه

النزعة بأن يدعو الناس إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام (٢٠٠٠ . ويختم بحثه خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية (٢٠٠٠) .

وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابي في بغداد عام ٩٧٠ جمعيَّة من العلماء ــ معروفة لنا باسم موطن منشئها ــ الجمعية السجستانية (* ، غرضها بحث. المسائل الفلسفية . ولم تكن هــــــــــــــــــ الجمعية تسأل أعضاءها عن أصلهم أو مللهم ؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة ؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة في البحوث العلمية والعقلية لم تخب جُنُوتُهَا في عاصمة الدولة الإسلامية . وأهم من همذه الجمعية شأنا له أو بالأحرى أعظم منها أثراً ، جمعية أخرى من نوعها ، ولكنها في واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة ، أنشئت في مدينة البصرة عام ٩٨٣، ` ونعني بها جمعية إخوان الصفا(** . وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان. روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، وفقر شعوبها ، وفساد أخلاقهم ؛ فتاقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحي الأخلاقية ، والروحية ، والسياسية ؛ وخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية ، والتصوف الإسلامي ، وآراء الشيعة السياسية ، والشريعة الإسلامية . وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين. ذوى الكفايات والفضائل المختلفة ، تأتى فها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى . وفي اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إلمها عن طريق التفكير الفردى. ـ ولهذا كانوا يجتمعون فى السر ويبحثون فى حرية تامة شاملة ، وتفكير واسع.

^(﴿) منشئ هذه الجمعية هو أبوسليمان محمد بن طاهر بن بهر ام السجستان . (المترجم ﴾ (﴿ * ﴿) اسمهم الكامل ﴿ إخوان الصفاء ، ومحلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحبد » . . (المترجم)

الأفق ، وتأدب جم ، جميع مشاكل الحياة الأساسية . وأصدرت الجماعة فى آخر الأمر إحدى وخسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها ، وضمنها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية ، والفلسفة . وأولع أحد مسلمى الأندلس أثناء تجواله فى بلاد الشرق الأدنى حوالى عام ١٠٠٠ م جده الرسائل فجمعها واحتفظ بها .

ونجد فى هذه الرسائل البالغة ١١٣٤ صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر ، والزلازل ، والحسوف والكسوف، والأمواج الصوتية ، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية ، كما نجد فيها قبولا صريحاً كاملا للتنجيم والكيمياء الكاذبة ، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد . أما ما فها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجديدة كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين ؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أى الله يصدر العقل الفعال ، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس ؛ وإن جميع الأشياء المادية توجدها النفس ، وتعمل عن طريقها ؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقة حتى تتصل بالعقل الفاعل ، أو نفس العالم ، أو النفس الكلية ، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملاً ، والأخلاق هي الفن الذي تصل به النفس إلى هذا التطهير ؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه :: ويجب علينا في سعينا للتطهير أن ننسج على منوال سقراط في الأمور العقلية ، وأن ننهج نهج المسيح في الإحسان إلى الحلق عامة ، ونهج على في نبله وتواضعه . فإذا ما تحررالعقل عن طريق المعرفة ، وجب أن يحس بحريته فى أن يؤول عبارات القرآن التي تتناسب مع فهم بدو غير متحضرين يسكنون الصنحراء تأويلا مجازياً (٢٦) . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الرسائل الإحدى والحمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامى فى العصر العباسي ، وإنها أعظم تناسقاً من چميع الرسائل التي لدينا في هذا التفكير . وقد رأىعلماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها فى عام ١١٥٠، ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدٰى، وكان لها أثر شامل عميق في الفلسفة

الإسلامية والمودية ــ نشاهده في كتابات الغزالي وابن رشد ، وابن جبرول ، وهليني (٢٧٪ ؛ وتأثر مها كذلك المعرى الشاعر الفيلسوف ، ولعلها كان لها أثر في ذلك الرجل الذي بز في حياته القصيرة ما في رسائل هذه الجاعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية ، وكان أكثر من أصحابها سعة في الأفق وعمقاً في التفكر ونعني به ابن سينا . ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة في العلوم الطبيعية ، ومرجعاً ذائع الصيت في الطب ؛ وما من شك في أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه إلا إذا أضاف إليه الفلسفة . ويحدثنا أنه قرأكتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه (*) ، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفاراني عليه ، سر لهذا سرورآ عظيما وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات (٦٨) . وبتى ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه . وقد سماه في كتاب الفانو و بالفيلسوف وهو اللفظ الذي أصبح في اللغة اللاتبنية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه . وقد فصل ابن سينا فلسفته في كتاب الشفاء ثم أوجز ها في كتاب التجاة . وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقي ، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة . وقد أجاب عن السؤال الذي شغل علماء العصور الوسطى طويلا وهو: هل الكليات (كالإنسان ، والفضيلة ، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول : (١) إنها توجد « قبل الأشياء » في عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء ، (٢) وفي الأشياء بالصورة التي تتمثل فها (٣) وبعد الأشياء بأن تكون معانى مجردة في العقل البشرى . ولكن الكليات لا توجد في العالم الطبيعي منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة . وبعد مائة عام من الجدل والخصام أجاب ابلار Abélard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه .

^(﴿) إِنْ الذَى قاله ابن سينا هو ﴿ قرأت كتاب الساع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أَدِ بِمِين مرة وأرى أَن محتاج إِلَى قراءته » . (المترجم)

وَالْحَقِّ أَنْ مِيتَافِيزِيقِيةً ابنِ سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتي عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة فى الفلسفة المدرسية . وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً لمذهب أرسطو والفاراني في المادة والصورة ، والعلل الأربع ، والممكن والواجب ، والكثرة ، والواحد ، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة الممكنة المتغيرة ـــ كثرة الأشياء الفانية ـــ أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذي لا يتغير . وهو يفعل ما يفعله أفلوطين فيفكر في حل هذه المشكلة بافترًا ض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشراً في العالم السهاوى ، والمادى، والبشرى، وهو النفس. ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة في التوفيق ين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبن صفة عدم التغير الملازمة لله ، فينزع إلى الاعتقاد مع أرسطو بقدم العالم المادى ، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة المتكلمين فيعرض عليهم حلا وسطا كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو : أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقا ذاتياً لازمانياً ، أي في المرتبة والجوهر والعلة ؛ فوجود العالم يعتمد في كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له ، وهي الله ؛ ويقول ابن سينا إن كل الموحودات « ممكنة » حتى الأفلاك نفسها أى أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة . وهذه المكنات لا بد لوجودها من علة تتقدمها وتخرجها إلى الوجود ، ولهذا لا يمكن تفسنر وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود ، أي واحد قائم بذاته هو العلة الأولى لسائِر الموجودات . والله وحده هو الموجود بذاته ، وإن وجوده لهو، عن ماهيته فهو واجبالوجود . ولولاه لماكان شيء مما يمكن أن يكون . ولما كان العالم كله ممكناً أى أن وجوده ليس بذاته ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه برىء من الحسم ، وهوكالعقل ، واحد من كل وجه لاتركيب فيه . ولما كان في المخلوقات كلها عقل فلابد أن يكون في خالقها عقل أيضاً. وهذا العقل الأول يرى كل شيء ـــ الماضي والحاضر والمستقبل ـــ لافي وقت ولابالتتابع ،

بل يراه كله مرة واحدة . وحدوث هذه الأشياء هو النتيجة الزّمنية لفكرة اللازمي . ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة ، بل إن الأشياء تتطور بفعل غاتى داخلي – أى أن لها أغراضًا ومصائر فى ذاتها ، ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر ، بل إن الشر هو الثمن الذى نؤديه نظير ما لنا من حزية الإرادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الحر للكل (٢٩٥) .

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخل المباشر. والنفس لهذا السبب عينه روحانية ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك ، وأفكارنا منفصلة انفصالا واضحاً عن أعضائنا . وهي مبدأ الحركة الذاتية والنماء في الجسم ؛ وسذا المعنى تكون للكواكب نفوس . والكون كله مظهر لمبدإ الجياة العام ٢٠٠٠) ، والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلا ، بل إن سبب كل حركة من حركاته هو نفسه التي تحل فيه ، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة على الخلق والإبداع شبهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس الحالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلى ، وفي هذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين (٧١) .

ولقد بذل ابن سيناكل ما يستطيع أن يبذاه من الجهود بلتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جهرة المسلمين. فلم يكن مثل لكريشيوس يرغب في القضاء على الدين من أجل الفلسفة ، ولم يكن كالغزالي في القرن الذي بعده يريد أن يقضى على الفلسفة من أجل الدين ؛ بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده ، غير متقيد مطلقاً بالدين ؛ ويحلل الوحى في ضوء قوانين الطبيعة (٢٢) ، ولكنه يو كد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبينوا لهم قواعد الأخلاق في صور من الاستعارات والحجازات تفهمها عقولهم وتتأثرها. وبهذا المعنى يكون النبي رسول الله لأنه يضع الأسس التي يقوم عليها النظام الأخلاقي والاجتماعي (٢٧٠). ومن أجل هذا كان النبي ينادي ببعث الأجسام ، وكان في بعض الأحيان يصور الجنة تصويراً مادياً ؛ والفيلسوف ، وإن كان يشك في خلود الجسم ، يدركاً نه لوأنالنبي

قد اقتصر على تصوير الجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه ، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة . وأرقى البشروأرفعهم درجة هم اللاين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الحر ، وهو الذى لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة ؛ واكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم (٧٤) .

وكتابا الشفاء والقانوور لابن سينا هما أرق ما وصل إليه التفكير الفلسني فى العصور الوسطى ، وهما من أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى . وهو يسترشد في كثير من بحوثه في الكتابين بأرسطو والفارابي ، كما استرشد أرسطو فى كثير من بحوثه بأفلاطون . غير أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم . وفي بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء ، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو ؛ والحق أنه ليس ثمة سخيف لانجده في صحف الفلاسفة . ولسنا نجد عند ابن سينا ما نجده عند البيروني من أمانة التشكك ، وروح النقد ، واتساع الأفق ، وحرية الِعقل ؛ وهو أكثر منه أخطاء ؛ ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن تؤدى هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هي من قصر الأمد . ولقله بز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه ، وحيويته ، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السامة والملل بما يبثه فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعرالتي لا نرى عليه مأخذاً في إيرادها ، وباتساع مجاله الفلسني والعلمي اتساعاً منقطع النظير . ولقد كان ابن سينا عظم الأثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء ، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلىالأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون ، وإلى العالم المسيحي اللاتيني وفلاسفته

المدرسين؛ وإنا لندهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا فى فلسفة ألبرتس عبنس ، وتومس أكوناس ، ويسميه روچربيكن : « أكبر عبيد للفلسفة بعد أرسطو $(^{(4)})$. ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذى يتحدث به عن أفلاطون مجاملا قط كمالوف عادته حين يتحدث عن عظاء الرجال (*) .

وكاد أجل الفلسفة العربية فى الشرق ينقضى بموت ابن سينا ؛ ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية ، وارتياع رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة ، وانتصار نزعة الغز الى الصوفية ، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير . وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠ – ١٠٥٠) التى از دهر فيها التفكير الإسلامى ناقصاً كل النقص . ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية فى العلوم ، والآداب ، والفلسفة لا تز ال مخبوءة فى مكتبات المعالم الإسلامى . فني اسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء العالم الإسلامى . فني اسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير ؛ وفى القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، وبغداد ودهلى ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهارس لها (***) ؛ وفى ودهلى ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهارس لها (***) ؛ وفى الأسكور بال بالقرب من ملريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء مافيها من

⁽ ه) احتفل فى عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا حسب التاريخ الهجرى وأقيم له قبر رائع فى همذان ونشرت مصر بهذه المناسبة بعض مؤلفاته . (المترجم)

^(**) مما نسجله بمزيد الحمد للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية أنها عنيت عناية كبيرة بالبحث عن هذه المخطوطات في مكتبات العالم الإسلامي ، فأرسلت الوفود العلمية لتصوير ما يوجد منها في تلك المكتبات ، وهي جادة في هذا العمل الحليل. لكننا نرجو أن تقوم وزارات المعارف في الدول الإسلامية بنصيبها فيه ؛ فإنه في اعتقادانا أوسع من أن تضطلع به الإدارة الثقافية وحدها . (المترجم)

مخطوطات إسلامية في العلوم ، والآداب ، والشريعة ، والفلسفة (٢٧) ، وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي في تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً صغيراً بما بتي من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقي إلا قسما ضئيلا مما أثبتناه في هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم . وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ العقل البشرى . .

الفصل لخامس

التصوف والإلحساد

يلتنى الدين والفلسفة فى أعلى درجاتهما فى معنى وحدة الكون وفى تأمل هذه الوحدة . والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق ، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الحادث الفرد إلى القانون العام ، قد يكون فى وسعها أن تصل إلى هذه الرويا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشها فى النفس الكلية . وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة ، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهائية خاسئاً وهو حسير ، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد ، والتقشف ، والتفانى فى العبادة ، والتجرد من كل رغبة أنانية ، وإفناء الجزء فى الكل إفناء كاملا .

ويرجع التصوف الإسلامي إلى أصول كثيرة: منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس، وغنوطسية مصروالشام، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين، وتأثير الرهبان المسيحين الزاهدين المنتشرين في جميع بلاد المسلمين. وقد وجدت في العالم الإسلامي، كما وجدت في العالم الإسلامي، كما وجدت في العالم الإسلامي، أقلية تقية تعارض في تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادي ومصالحه ، فكانوا ينددون بترف الحلفاء ، والوزراء، والتجار، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبي بكر وعمر بن الحطاب . وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أيا كان بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لم غقبة تحول بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لم غقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التي تسموفيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العلية : فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

مع ذات الله نفسها . واز دهرت حركة التصوف في بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قربها من بلاد الهند ، كما ازدهرت في جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التي وضبعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينة إلى فارس في عام ٥٢٩. وكلمة صوفى الثي تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التي كانوا يرتدونها (*). وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين يمبادئها المتحمسين لها ، ومن كبار الشعراء ، والقائلُن بوحدة الوجود ، والزهاد ، والمشعوذين ، والكثيرى الزوجات . وكانت مبادئهم تختلف ياختلاف الأوقات والبيئات ؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة في قلوبنا ، بعد أن نتخلي عن جميع الشهوات الجسمية والانقطاع إلى الله(٧٨) . ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً ، فقالوا إن كل ما نراه في العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه . ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان ، أو خفيف أوراق الشجر ، أو خرير الماء ، أو تغريد الطبر ، أو هبوب الريح ، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شيه له(٧٩).

والحق أن الصوفى يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية ، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله . وعلى هذا فالله هو كل شيء ، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله ، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه (١٨٠). وعلى هذا فكل نفس هي الله ؛ والصوفى الكامل يجهر في غير مواربة بأنه و هو نفس الذات الإلهية » . ويقول أبو يزيد (حوالى عام ٩٠٠) : و إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني »(١٨)(**) . ويقول الحسين

^(﴿) فى كتاب الأستاذ رينولد أ . نيكولسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي قصل قيم في سبب هذه التسمية فليرجم إليه من يريد التوسع في هذا البحث . (المترجم) (﴿ ﴿ ﴿) يَقُولُ الْأُسْتَاذُ نَيْكُلسُونَ إِنْ فَي نُسِبَةً هذه الأقوال إلى أبى يزيد بعض الشك . انظر ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي السالفة الذكر . (المترجم)

ابن منصور الحلاج :

وقبض على الحلاج لمغالاته فى عقيدته الصوفية ، وضرب ماثة سوط وألتى فى النار حتى مات (٩٢٢) . ويدعى أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا إليه بعد أن خدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين ، واتخذه كثيرون من الضوفية وليهم وحاميهم .

ويعتقد الصوفى كما يعتقد الهندوسى أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد منه لكى ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام . والتطهير يكون بضروب من التفانى فى الطاعات ، والتأمل والنظر والتدبر ، والصلاة ، وإطاعة المريد لأستاذه الصوفى أو معلمه ، والتجرد الكامل من جميع الشهوات البدنية ، بما فيها التجرد من شهوة النجاة ، والاتحاد الصوفى مع الله . والصوفى الكامل يحب الله لذاته لا رغبة فى ثواب ولا خوفاً من عقاب . وفى ذلك يقول أبو القاسم إن المعطى خير من العطية (٢٨٥) . والصوفى عادة يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية ، ومنهم من يتخذه نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على من يتخذه نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على ومن فنيت نفسه فناء تاما فى هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل (٤٨٥). ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين ، وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج . وفى ذلك يقول أحد المتصوفة

^(*) يذكر ابن الندم صاحب الفهرست أغاء ٣٥ كتاباً للحلاج منها كتاب نور النور التجليات ، وكتاب علم البقاء والفناء ، وكتاب كيف كان وكيف يكون ، وكتاب لا كيف ـ (المترجم)

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا فتتجه نحو وجه الحبيب(٨٥) .

وظل الصوفية يعيشون فى الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم . بل إنهم كانوا لا يرون أن للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية . وفى ذلك يقول أبو سعيد إن الولى الحقيقي يسير بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ، ولا ينسى الله لحظة واحدة (٨٧).

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غير هم بشيء سوى بساطة حياتهم ، وتقواهم وخشوعهم ، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين المسيحيين . وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقي والصلاح ، وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التي أصبح لها شأن عظم عند الصوفية المتأخرين . ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم ، وإن كان الزهد في ذلك الوقت من الأمور النادرة ، وكان يلتى كثيراً من المقاومة . وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود فى بداية الإسلام . ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (٧١٧ – ٨٠١) . وكانت فى شباسها جارية اشتريت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد هالة من النور فوق رأسها وهي قائمة للصلاة . وأبت رابعة أن تتزوج وعاشت عيشة الزهد ، وإنكار الذات ، وفعل الخبر . وسئلت في يوم من الأيام « هل تكرهن الشيطان ؟ » ، فأجابت : « إن حي الله قد منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان » . ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الذائعة الصيت : « إلهي ! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقني بالنار ، أو طمعاً ني الجنة فحرَّمها على ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرميي (1 4 - 7 - 17)

من مشاهدة وجهك ؛ إلهى ! كل ما قدرَّته لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأصدقاتك ، لأنى لا أسعى الا لله وحدك (١٩٥٠)(*).

ولنخر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبى الحبر (٩٦٧ ــ ٩٠٤٩) . ولد هذا الرجل في مهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا ؛ ويروى عنه أنه قال في هذا الفيلسوُّف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو (٨٨) . وقد أولع في صباه بالأدب البذيء ، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع في يوم من الأيام درساً لأبي على يدور حول قوله تعالى « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فتح فى قلبه باب الإيمان وكأنما انتزع من نفسه فجمع كتبه كلها وأحرقها ثم آوى إلى ركن فى بيته ، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله . ولقد كان تكرار لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبيلا محببة إلى « الفناء » ويقصدون به انتقال الصوفى عن نفسه في حال وجده . وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقشف ، فلم يلبس إلا قيصاً واحداً ، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى ، ولم يذَّق الطعام إلا وقت الغروب . ولم يكنُّ طعامه إلا كسرة من الحيز ، وثم يرقد على فراش لينام ، وحفر فى جدار بيته حفرة ، لا تزيد حن يقف فيها على طوله وعرضه ، وكثيراً ما كان يحبس نفسه فها . ويسد أذنيه لكيلا تصل إلىهما أصوات من الحارج . وكان في بعض الليالي يربط نفسه بحبل ويتدلى برأسه في بثر ، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض ــ هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه . وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية ، فكان يتسول لهم ، وينظف

⁽ج) نقلنا هذا النص عن «تذكرة الأولياء للمطار ، والذي أورده المؤلف هو الجزء الثانى ، وقد أضفنا نحن الجزء الأول إتماماً للفائدة . (المترجم)

لهم خلواتهم وفضلاتهم . ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقدار ، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه « أليس الله بكاف عبده ؟ » . ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراق الكامل وبدأ يخطب الناس ، والتف حوله كثيرون من الأنقياء المخلصين ، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلطخون وجوههم بروث حماره لتحل عليهم بركته (٨٩٠) . وقد ترك أثره في التصوف بأن أنشأ خانقاه للدراويش ووضع لها طائفة من القواعد جعلتها نموذجاً لأبناء الطائفة في القرن الذي بعده .

وكان أبو سعيد يعلم الناس ، كما علمهم القديس أوغسطين ، أن رحمة الله ، لا أعمال العبد الصالحة ، هي سبيل النجاة ؛ ولكنه كان يعني بالنجاة ، التحرر الروحي ، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة ، ويقول إن الله يفتح المإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة ثم يأتي بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره ... ثم يفتح له الله بعدئل باب الحب ، ولكنه لا ينفك يقول في نفسه « أحب » . . . ثم يفتح له باب التوحيد . . . وعنده يدرك أن الله كل شيء وأن كل شيء منه وإليه . . . ويعرف أنه غير محق في قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط ويعرف أنه غير محق في قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله . . . لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها . وهذا قد أحسن إلى حسل الله ، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعداني في الشر . . . وهذا قد أحسن إلى حسك شيء على الخالق . إن عليك أن تعرف هذا ، وهذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل فإذا قلته فاثبت عليه . . . قل الله واثبت على هذا القول (٩٠٠) .

وتظهر هذه العقيدة الهندية – الإمرسونية (**) في بعض الأقوال المنسوبة إلى أبي سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكا فها!

^(•) أي التي هي مزيج من عقائد الهند وإمرسن الفيلسوف الأمريكي . (المترجم)

وسألته : (لمن يكون جمالك ؟ » فقال: (لى » لأنه لاموجود سواى ؛ أنا الحب ، والمحبوب ، والحب كلها فى واحد ، أنا الجمال ، والمرآة ، والعينان اللتان تريان(٩١) ،

وإذا لم يكن عند المسلمين ، كما كان عند المسيحيين ، كهانة تثبت. لهوالاء الأبطال الصالحن قداستهم ، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه القداسة ، ولم يحلّ القرن الثاني عشر الميلادي حتى غلبت عواطف الشعب الطبيعية ، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا التقديس ضرباً من الوثنية . وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين إبراهيم ابن أدهم (القرن الثامن ؟) ، وهو الذي يسميه لى هنت Leigh Hunt في قصيدة له مشهورة أبو بن أدهم Abou ben Adhem . ويعزو خيال العامة إلى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كشف عن أعينهم الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس ، ويقرعون الأفكار ، ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس ، بل إنهم يبالغون في مقدرتهم. فيقولون إن في وسعهم أن يبتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم من ذلك أذى ، وأن يخترقوا النيران من غير أن يحترقوا بها ، وأن يمشوا على الماء ، ويطيروا في الهواء ، ويجتازوا المسافات الشاسعة في محمضة عين . ويروى أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب ما يروى من نوعها في هذه الأيام (٩٢) . وهكذا يحدث على توالى الأيام أن الدين (*)الذي يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان ، يتشكل ثم يتشكل بتأثير حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم ، حتى يصبح التوحيد الذي يجيء به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذي يعتقده عامة الشعب .

وقبل المسلمون منأهل السنة الصوفية فيحظيرة الدين الإسلامي، وأفسحوا

⁽ه) لا حاجة إلى التنبيه بأن الكاتب لا يقصد بهذا ديناً مميناً بل يشير إلى الأديان بوجه عام . (المترجم)

لهم مجالا كبيراً في عقائدهم وأقوالهم : ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائفُ المارقة التي تخفي تحت ستار العقائد الدينية آراء سياسية ثورية ، أو تدعو إلى الفوضي الأخلاقية والقانونية . ومن بن هذه الطوائف الثورية التي مزجت في عقائدها الدين بالسياسة طائفة « الإسماعيلية » ، ويذكر القارى ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن على رأس كل جيل من أبناء على إلى الجيل الثانى عشر إماماً أو زعيا ، وإن هذا الإمام يختار من يخلفه فى هذه الزعامة . وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده . ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر ، فخلعه جعفر عن الإمامة واختار بدله موسى الإمام السابع (حوالى عام ٧٦٠) : ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأثمة . وظلت طائبة « الإسماعيلية ، هذه نحو ماثة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها ، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعون إلى عقيدة الطائفة فى بلاد الإسلام . وكان يطلب إلى المبتدئ قبل الدخول في الطائفة أن يقسم بألا يفشي شيئاً من أسرارها ، وأن يطبع الزعيم الأكبر للطائفة في كل ما يأمره به . وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطني وآخر ظاهري. وكان يقال لمن يدخل في مذهبهم إنه. بعد أن يمر بتسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب ، وينكشف له التعليم أو العقيدة الحفية (الله هو كِل شيء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون . وفي المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شيء ، وإن أحلمًا لا يستطيع أن يعبده(٩٣) ؛ وقد انضم إلى طائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيوعية ، دفعهم إلى هذا ما تقول - يه من أن مهدياً سيظهر في وقت من الأوقات ، ويبسط على الأرض عهدا مِن المساواة ، والعدالة ، والحب الأخوى . وقد أوضحت هذه الطائفة الآخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم في الإسلام سيطرت في وقت من الأوقات على شمالى إفريقية ومصر ، وأسست الحلافة الفاطمية ، وقامت في أواخر

القرن التاسع بحركة كادت تقضى على الخلافة العباسية :

ولما مات عبد الله القداح في عام ١٧٤ تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراق اشهر باسم حمدان قرمط ، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس في آسية يسمون أتباعها فى وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه : وكان يرمى إلى القضاء على قوة العرب ، وإعادة الدولة الفارسية ؛ وضم إليه خفية آلافا من المؤيدين ، والأعوان ، وفرض علمهم أن يخرجوا عن خمس أملاكهم ودخلهم ليصبح ملكا عاما للجاعة . ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية في تلك الحركة التي كانت في ظاهر أمرها نوعا من الصوفية الدينية . فكان القرامطة يقواون بشيوعية الملك والنساء (٩٤) ، وقد نظموا العال في طوائف للحرف ، ونادو ا بالمساواة بن كافة الناس ، وأخذوا يفسرون القرآن تفسراً مجازياً لا يتقيدون فيه بأقوال أهل السنة . وكانوا يتحللون من الشعائرالدينية ومن الصيام ، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة (٩٥٠ ۽ وبلغ من أمرهم أن أقاموا في عام ٨٩٩ دولة مستقلة على الشاطئ الغربى للخليج الفارسي ، وهزموا جيش الحليفة في عام ٩٠٠ ، وأفنوه عن آخره ، ولم ينج من القتل جندى واحلم. وفي عام ٩٠٢ اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق ، وفي عام ٩٧٤ نهبوا البصرة ثم الكوفة ؛ وفى عام ٩٣٠ نهبوا مكة نفسها ، وقتلوا ثلاثين ألفا من المسلمين ، وعادوا بكثير من الغنائم ، منها كسوة الكعبة ، والخجر الأسود (الله عبر أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفدت قوة تلك الحركة ؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التي كانت تهدد الملكك والنظام العام ؛ وِلكن مبادئها وأساليها العنيفة انتقلت في القرن التالى إلى إسماعيلية ألمَوت (١٩٠٠ ، وهم المعروفون بالحشاشن ه

^(﴿) وأُعيد الحجر إلى الكعبة في عام ٥٥١ بأمر الخليفة الفاطمي المنصور .

^(**) ويسمى أيضاً عش النسر . (المترجم)

الفيرالتاس

الأدب

لقد كان في الحياة والدين في الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمسرحيات ، أما الأدب الإسلامي فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة ، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية ، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية ، فقد كانت معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقروونه وهم صامتون ، ولم يكن في وسع من يهتمون بنتاج الحيال أن يرقوا إلى الدرجة التي يستطيعون أن يركزوا فيها عقولم ذلك التركيز الذي لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة الحلقات ، أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبي البشر ، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها في حماسة الأطفال وتشوفهم ، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً ، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا ، وقصص ألف ليلة وليلة . وقد نقلت القصص الأولى من المند إلى فارس في القرن السادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها ترخمت إلى اللغة العربية في القرن الشادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، وبقيت المرجمة العربية ، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى ،

يحدثنا المسعودى (المتوفى عام ١٩٥٥) فى مروج الدُهب عن تتاب فارسى يدعى هرَاراً فسانة أو ألف قصة وعن ترجمته العربية ألف ليلة وليلة ؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب ألف ليلة وليلة ، وخطة الكتاب كما يصفها المسعودى هى الحطة التى مجدها فى كتاب ألف ليعة وليلة العربى ، وكان هذا

الإطار المحتوى على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن فى بلاد الهند ، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولا فى العالم الشرق ، ولربما كانت كل مجموعة منها تحتلف فى محتوياتها عن غيرها من المجموعات ، ولسنا واثقين أن أية قصة فى المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التى تحتويها المجموعة التى يحدثنا عنها المسعودى . وحدث بعد سنين قلائل من عام ١٧٠٠ أن أرسل مخطوط غيركامل ، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام ١٥٣٦ ، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسى أنطوان جالان ما قبل عام ١٥٣٦ ، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب ، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية ، ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بداءة ، فأصدر فى باريس عام ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية علم ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وغيح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وعن مصباح وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحرى ، وعن مصباح علاء الدين ، وعن على بابا واللصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص علاء الدين ، وعن على بابا واللصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص المقداس (وهو أيضاً كتاب شرق) (*)

والبنر الأدبى فى الكتب الإسلامية صورة من الشعر. ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى ، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف، واللغة العربية التى كانت فى الوقت الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر معنى لتشابه أواخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف ؛ ولهذا فإن النثر الأدبى كثيراً ما يكون مسجوعاً ؛ وكان الوعاظ ، والخطباء ، والقصاصون ، يلجأون إلى النثر المسجع ، وبهذا كتب بديع الزمان الهمذانى و المتوفى عام ١٠٠٨) مقاماته ـ وهي قبصصكان يرويها لجماعات مختلفة عن وغد

^(*) والقرآن بطبيعة الحال وهو الذي يقرؤه كله أو بعضه مسلمو العالم أجمعون . (المترجم)

أفاق أوتى من الذكاء والفكاهة أكثر مما أوتى من الأخلاق الطيبة : وكانت عقول أهل الشرق الأدنى فى ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن ، شأنهم فى هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة ، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى ، وكانت القصائد تكتب لكى تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص فى بلاد الإسلامين الحليفة إلى الفلاح يطرب لسهاعها . وقلها كان هناك شخص لا يقرض المشعر — كما كانت الحال عند طبقة السموراى فى بلاد اليابان . وكان من خروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتا من الشعر بدأه غير ، أو يتم مقطوعة بدأها زميله ، أو ينافس مناظراً له فى ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية . وكان الشعراء بنافس بعضهم بعضاً فى ابتداع خروب معقدة من الأوزان والقوافى ، وكان كثيرون مهم يقفون أواسط خروب معقدة من الأوزان والقوافى ، وكان كثيرون مهم يقفون أواسط العربى وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوزان والقوافى فى الشعر المعربى وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوران والقوافى فى الشعر المعربي وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوران والقوافى فى الشعر، المعربى وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوران والورى .

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور للانستشى من هذا التعميم حضارة الصن في أيام ني يو ، ودوفو ، ولا حضارة فيار Veimar حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر » — الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وثرائهم . وقد جمع أبو الفرج الإصفهاني (۸۹۷ – ۹۳۷) في أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم في كتاب الوعاني . وحسبنا دليلا على غنى الشعر العربي وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً . وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والتاس يخشون هجوهم اللاذع ، والأغنياء يبتاعون مديجهم بيتا بيتا ، والحلفاء يجيزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحو نهم بالهبات السخية إذا قالوا قيهم قصائلا من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم . ويحكي أن هشاما أراد مرة أن

يتذكر قصيدة من القصائد فأرسل في طلب حماد الشاعر الراوية ، وكان من حظه أنه يذكر هذه القصيدة بأكلها ، فلما أنشدها لهشام أجازه بجاريتين وبخسمين ألف دينار (٩٧) ، وأكبر ظننا أن أحدا من شعراء هذه الأيام أن يصدق هذه القصة ، وبعد أن كان الشعر العربي ينشد لبدو الصحراء ، أضحى الآن يوجه إلى قصور الحلفاء ورجال حاشيتهم ، وأصبح الكثير منه متكلفا ، أكثر ما يعني به هو الشكل ، شديد التأنق إلى حد التفاهة ، كثير المجاملة خاليا من الإخلاص ، ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظاء إلا قبل عهد النبوة (٩٨) ؟

والحب والحرب أكثر مواءمة للشعر من الموضوعات الدينية ، وقلها كان شعر العرب صوفى النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس) ؛ فقد كان الشاعر العربي يفضل أناشيد القتال ، والعاطفة ، والانفعالات النفسية ؛ ولما أن اختتم قرن الفتوح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية ، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة — شعرها العطر ، وعينها الشبهتين بالدرتين ، وشفتها القرمزيتين ، وأطرافها الفضية ؛ وطهرت الصحراوات وفي المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح وظهرت الصحراوات وفي المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح والمدينة في عرف الفلاسفة والشعراء يعني آداب الحب وسلوك المحبين ، وانتقل هذا المعني عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسيانيا ، ومنهما إلى القرائح بالشعر الموزون المقني .

واشتهر الحسن بن هانى باسم أبى نواس — لغدائره التى كانت تنوس على كتفيه . وكان مولده فى بلاد الفرس ، ثم رحل إلى بغداد ، ونال الحظوة عند الحليفة الرشيد ، ولعله اشترك معه فى واحدة أو اثنتين من المغامر ابت التى تعزى إليهما فى كتاب ألف ليلم وليلم . وكان أبونواس مولعاً بالحمر والنساء والغناء ،

وكثيراً ما أغضب الحليفة بإدمانه الحمر جهرة ، وبزندقته ودعارته ؛ وكثيراً ما سجنه ثم أطلقه ، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بأهداب الفضيلة ، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينها سار . ولكن أكثر ماكانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التي وصف فيها الحمر والفساد :

الله الله المسلمان المنطقى ومن الراح فاسسقى فالمستقى فإذا ما دارت الزجا جسة خدها واعطى ما ترى الصبح قد بدا فى إزار مسبيّن ما المسودن (٩٥) عاطيى كأس سلوة عن أذان المسودن (٩٥)

تكثر ما استطعت من الحطايا فإنك بالغ ربا غفروا ستبصر إن قدمت عليه عفوا وتلقى سسيداً ملكاً كبيرا تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا(١٠٠٠) وكان في بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم — فكان في بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً ، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق . واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين ، ولكنه يشتهر عند المسلمين بامم المتنبي — أى مدعى النبوة . وقد ولد هذا الشاعر في الكوفة عام و 10 ، وتلقي العلم في دمشق ، ثم ادعى النبوة ، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه ، وأقام في بلاط أمير حلب . وكان كأبي نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلي ولا يقرأ القرآن(١٠٠١) ، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترق إلى المستوى اللائق به ، فإنه كان يستمتع مها استمتاعاً يصرفه عن التفكير في الحلود . وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة في شعر بين قوة المعني وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعذر الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . ومن هذا الشعر بيته المشهور الذي كان سبباً في هلاكه وهو:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذلك أن جماعة من اللصوص هاجمته ، وأراد هو الفرار ، فذكره غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر ؛ وأراد المتنبى أن يصدق فعله قوله ؛ فحارب ومات مثخناً بجراحه (٩٦٥) (١٠٢)

وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد فى معرة النعمان القريبة من حلب أبو العلاء المعرى أعجب شعراء العرب على الإطلاق . وفقد أبو العلاء بصره فی سن الرابعة علی أثر إصابته بالجدری ، ولکنه جد فی طلب العلم ، وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التي وجدها في دور الكتب ، وطاف بأنحاء العالم الإسلامى ليستمع إلى المشهوين من العلماء ، . ثم عاد إلى مسقط رأسه . وكان دخله السنوى خلال الحمسة عشر عاما التي أعقبت عودته لا يزيد على ثلاثين ديناراً ، أي ما يعادل اثني عشر ريالا أمريكيا فى الشهر ، يشاركه فيها خادمه ومرشده . وأذاعت قصائده شهرته فى العالم الإسلامى ، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبى أن يلجأ إلى المدنيح . وزار بغداد في عام ١٠٠٨ وأكرم الشعراء والعلماء وفادته ، ولعله تأثر في العاصمة بآراء بعض المتشككة ، وهي الآثار التي تتخلل بعض قصائده . وعاد منها إلى المعرة فى عام ١٠١٠ وأصبح فيها من الأغنياء ، ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الحالية من جميع مظاهر النعيم . وكان المعرى نباتيا إلى أقصى حد ، لا يكتنى بالامتناع عن لحم الحيوان والطنر بل يمتنع كذلك عن اللبن ، والبيض ، وعسل النحل ؛ فقد كان يرى أن الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه . ولهذا السبب أيضا أنى أن يتخذ شيئا من اللباس من جلد الحيوان ، وعاب على النساء لبُس الفراء ، وأشار بلبس الأحذية الخشبية(١٠٣٥ . ومات المعرى في الرابعة والثمانين من العمر ، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن ماثة وثمانين شاعراً ساروا في جنازته ، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره (٢٠٠٦ .

وأعظم ما يشهر به فى بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها ١٥٩٢.

قصيدة والمعروفة باللزوميات . ولم يتحدث أبو العلاء في هذه القصائد عن النساء والحرب كما كان يتحدث عنهما زملاؤه من الشعراء ، بل عمد ف جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية في الحياة : هل نتبع الوحى أو العقل ؟ ــ وهل الحياة خليقة بأن يحياها الإنسان ؟ ــ هل ثمة حياة بعد الموت ؟ ــ هل يوجد إله ؟ . . . وبجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه ؛ ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذي لا يرغب فيه:

إذا. قلت المحال رفعت صوتى وإن قلت اليقن أطلت همسي (١٠٠٠) وهو يعيب في أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وإن تفعل فأنت مغرر (١٠٦٠) والمعرى بصريح العبارة متشائم ، لا أدرى ، يؤمن بالعقل دون الوحى : يرتجي الناس أن يقـــوم إمام ناطق في الكتيبة الخرســـاء كذب الظن لا إمام سوى العــقل مشيراً فى صبحه والمساء

هل صح قول من الحاكى فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار (**)

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن ديني إلى دينه دانى فأصبح قلبى قابلًا كل صورة فرعى لنزلان وبيت لأوثان ودير لرهبان وكمبسة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

^(﴿) وهنا أورد الكاتب أبياتًا أخرى قال إنها من شعر أبى العلاء ، وقال في سجل المراجم إنه نقلها من كتاب أمين الريحانى المسمى "The Quatraines of Abu el'Ala". وقد بحثنا أو لا فيما لدينا من كتب أبي العلاء : اللزوميات ، وسقط الزئد ، ورسالة الغفران فلم نعش على ـ هذه الأبيات ، وقد وجدنا تَى كتاب أمين الريحانى الأبيات التي أوردها المؤلف وما بعدها ، وقوله إنها مترجمة عن اللزوميات طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ . وأعدنا البحث فلم نعش على الأبيات في هذه الطبعة . وأخير ا وجدنا الأبيات التي نقلها مؤلف هذا الكتاب وبما جاء معدها في. كتاب أمين الريحانى وجدناها في شعر محيىي الدين بن عربي وهي :

وهو ينسدد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمآرب الإنسان الدنيثة ، والذين يملؤون المساجد بالرعب حين يخطبون ، ولكنهم ليسوا في مسلكهم خراً من الذين يحتسون الخمر في الحانات على نغات المغنى .

لا تطيعن قوماً ما ديانتهم إلا احتيال على أخذ الإتاوات إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الروسساء كذب يقال على المنابر دائماً أفلا يميد لما يقال المنبر رويدك قله غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمسد مساء تحساها فمن مزج وصرف يعسل كأنما ورد الحساء طلب الخسائسوارتي في منهر يصف الخساب لأمة ايهولها ويكون غير مصندق بقيامة أضحى يمثل في النفوس ذهولها (١٠٨٥)

ومن أقواله أن أحط الناس في وقته هم الذين يشرفون على الأماكن المقدسة في مكة . فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أي إثم في سبيل المال ، ويتصبح مستمعيه بألا يضيعوا أوقاتهم في الحيج(١٠٩) وأن يقنعوا بعالم واحذً.

وفى بطحاء مكة شر قوم وليسوا بالحاة ولا الغيارى وإن رجال شيبة سادنها إذا راحت لكعبتها الجارى قيام يدفعون الناس^(*) شفعاً إلى البيت الحرام وهم سكارى ﴿ إِذَا أَخْذُوا الزُّوائِفُ أُوبِخُوهُمْ وإن كانوا الهود أوالنصارى

والأبيات الإنجليزية الى أوردها المؤلف منقولة من كتاب أمين الريحانى ، تكاذ تكون ترجمة حرفية لحاء الأبيات. (المترجم) (🛊) ويروى يدلعون الوقد . (المرجم)

وما حجى إلى أحجار بيت كووس الخمر تشرب في ذراها وما الركن و قول ناس لست أذكرهم إلا بفياة أوثان وأنصاب لاحس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس إذا بانت عن الحسد (١١٠)

ضحكناوكانالضحك مناسفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا(*) تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك (١١١) ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة .

و إن جُعلت بحكم الله فى خزف يقضى الطهور فإنى شاكر راضى (١١٢) و هو يومن بوجود إله حكيم قادر على كل شىء ، ويعجب من الطبيب الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح .

عجبي للطبيب يلحد في الحال لق من بعد درسه التشريحا (١١٣) لكنه حتى في هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للذنيا فكيف نلومها واللوم يلحقني وأهل نحاسي عنب وخر في الإناء وشارب فن الملوم أعاصر أم حاسي ويقول في سخرية شبهة بسخرية ألمتر :

رأیت سجایا الناس فیها تظالم ولاریب فی عدل الذی خلق الظلما (۱۱۵) ثم ینفجر غضبه کما ینفجر غضب دیدرو Diderot فیقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء(١١٥)

^(🚓) ومثل هذا قوله :

ضمعكنا رئيس ما يوجب النسم لك لدينا بل ما يهيج انتحابا (المترجم)

وساءة ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه التشاوم ، فكان عند المسلمين شبيها بتيمن الأثيني (*) ، يرى أن لا أمل في إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الحلق :

كتب الشقاء على الفتى فى عبشه وليبلغن قضاءه المحتوما فا أذنب الدهر الذى أنت لائم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا (١١٦٥) رب متى أرحل عن عالمي فأنت بالناس خبير عليم رب متى أرحل عن هذه الدنيا فقد أطلت المقام ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يجتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلتي إلا صديقا واحداً أو اثنين ، وأن يجيا كما يجيا الحيوان الوديع بعيداً عن الحلق .

ويقول: لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولله قاسى العذاب والمحن حتى يبسط عليه الموت لواء السلام(١١٧):

وما العيش إلا علة بروها الردى فخلى سبيلى أنصرف لطياتى والعيش داء وموت المرء عافية إن داؤه يتوارى شخصه حسها والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتى بشفاء السقام على الموت يجتاز المعاشر كلهم مقيم بأهليه ومن يتغرب وما الأرض إلامثلناالرزق تبتغى فتأكل من هذا الأنام و تشرب كأن هلالا لاح للطعن فيهم حناه الردى وهو السنان المجرب كأن ضياء الفجر سيف يسله عليهم صباح فى المنايا ملرب وليس فى وسعنا أن ننجو من منجل الموت ، ولكن فى وسعنا أن نفوت عليه

^(*) انظر قصة تيمن الأثيني في مسرحية شيكسپير المعروفة بهذا الاسم ، أو في قصته كما رواها تشارلس لام مترجمة في كتابنا «قصص من شيكسپير » : (المترجم)

غرضه بألا نلد له أطفالاً . وفي ذلك يقول أبياتاً من الشعر لا تفترق عن أقوال المؤمنين أشد الإيمان بأقوال شوبهور :

وإذا أردتم للبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم في الأظهر (*)(١١٨)

وقد عل هو بهذه النصيحة ، وكتب بنفسه قبريته وهي أشد القبريات مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة :

ولسنا نعرف كم من المسلمين كانوا يشاركون المعرى في تشككه ؛ ذلك أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أوغير مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر ، وقد يؤدى بنا هذا إلى الاستخفاف بماكان في العصور الوسطى من تشكك في العالم الإسلامي كما حدث في العالم المسيحى. وبلغ الشعرالعربي عند المتنبي والمعرى ذروتهما ، فلما انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن صوت الفلسفة ، فصبغ هذا وذاك الشعر العربي صبغة جديدة تتسم بعدم الإخلاص ، وتصَنع العاطفة ، وتكلف الأناقة اللفظية في قصائد غثة تدور حول شئون بلاط الأمراء . وفي هذا الوقنت عينه كانت نهضة الفرس ، وبعها ، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة وتخلق فيها نهضة حقة . ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

⁽ یه) ومثلها :

أرى ولد الفتى عبئاً عليه لقد سعد الذى أمسى عقيما أما شاهدت كل أبي وليد يؤم طريق حتف مستقيما فإما أن يخلفه يتيما أرى النسل ذنباً للفتى لا يناله فلا تنكحن الدار غير عقيم

كلياً بل بقيت يتحدث بها الشعب؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبث وجودها بالتدريج، وتعود كما كانت لغة الحكم والأدب. وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافي في عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين. وظلت ساثرة في هذا الطريق حتى أضحت هي اللغة الفارسية الجديدة في هذه الأيام، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية، وبعد أن استخدمت الحط العربي الجميل. وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشعرها العظم. وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة، وإلى شيعر الغزل المثنوي أو الشعر القصصي والرباعيات. وما لبث كل شيء في فارس - من وطنية، وعاطفة، وفلسفة، ولواط، وصلاح - أن عبس فارس.

وبدأت هذه النهضة بالرودكي (المتوفى عام ٩٥٤) الذي كان يرتجل الشعر وينشد الأغانى ، ويعزف على القيثار في بلاط السامانيين ببيخارى . وفي هذا البلد نفسه ، وبعد جيل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيقي أن يصوغ الخديشامة أو كتاب الماوك شعراً . وكان دانشوار (حوالى عام ٢٥١) قد جمع في هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة . وما كاد الدقيقي يتم كتابة ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته . وقام الفردوسي بالعمل بعده وأنمه وأصبح هومر بلاد الفرس .

وولد أبو القاسم منصور (أوحسن) فى مدينة طوس (قرب مشهد) حوالى عام ٩٣٤ ، وكان والده يشغل منصباً إدارياً فى بلاط السامانيين ، وخلف لولده بيتاً ريفياً فى بزاعة بالقرب من طوس . وكان أبو القاسم يقضى وقت فراغه فى البحث عن الآثار القديمة . واسترعى كتاب الخديشامة انتباهه فاعتزم أن يحول هذه القصص النثرية إلى ملحمة قومية ، وسمى كتابه الشاهئامة ، أى كتاب الملوك، واتخدله حسب عادة تلك الآيام اسماً مستعاراً هو الفردوسي ، ولعله اشتق ذلك الأسم من غياض ضيعته . وأتم الفردوسي ملحمته فى صورتها الأولى بعد

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل ، ثم سافرجا إلى غزنة (٩٩٩ ؟) راجيًا أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب :

و يوُكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان في غزنة « أربعائة شاعر لايفارقون مجالس السلطان محمود» . ولوصح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة كأداء في سبيل الفردوسي ، ولكنه مع هذا أفلح في استرعاء اهمهام الوزير فجاء بالمخطوط الضخم إلى السلطان . وتقول إحدى الروايات إن محموداً هيأ للشاعر مسكناً مريحاً فى قصره ، وأمده بقدر ضخم من المادة التاريخية ، وأمره أن يضمها إلى ملحمته . وتجمع كل الروايات التي وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أن يعطيه ديناراً ذهبياً (٧٠ر٤ دولارات) نظر كل بيت من القصيدة في صورتها الجديدة . وظل الفردوسي يكدح زمناً لا نعرف طوله ؛ بلغت بعده القصيدة (حوالى عام ١٠١٠) صورتها النهائية ، واشتملت على ٢٠٠٠ بيت وجيء مها إلى السلطان . وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسي المبلغ الموعود ، ولكن يعض بطانته استكثروا العطاء ، وأضافوا إلى هذا قولم إن الفردوسي زنديق شيعي ومعتزل . واستمع لهم محمود وبعث إلى الشاعر بستين ألف درهم فضي (۲۰۰۰ ریال أمریكی) . وغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبائع شراب ثم فر إلى هراة ، حيث اختني ستة أشهر في حانوت بائع كتب، حتى يئس من العثور عليه عمال عمود الدين أمر هم بالقبض عليه . ثم مِنْ الفر دوسي إلى شهريار أمير شيرز ادر الله في طبرستان ، ونظم قصيدة مجوفيها محموداً هجواً لاذعاً . وخشى شهريار غضب

⁽ و) ليس شيرزاد أو شهرزاد اسم إقليم ولعل الأمر قد اختلط على المؤلف أو على من رجع إليه من المؤلفين . ولم يرد شيرزاد إلا فى رواية محمد بن غبد الوهاب القزويتى فى حواشى جهار مقاله إذ يقول إنه وجد فى أصل الكتاب شهرزاد أو شيرزاد مكان شهريار . انظر مقدمة الشاهنامة للدكتور عبد الوهاب حزام فى هذا وفى قصة يوسف وزليخا ففيها تفصيل واف عن قصة هذا الشاعر وبحث علمى قيم فى هذا الموضوع . (المترجم)

السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها . وإذا جاز انا أن نصدق هذه الأرقام ، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام ، حكمنا من فورنا أن الشعركان من أكثر الأعمال إدراراً للربح في فارس في العصور الوسطى . وانتقل الفردوسي بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هي قصة فوسف وزليجًا ، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئد شيخاً في السادسة والسبعين من العمر . وبعد عشر سنين من عودته سمع محمود بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه ، فسأل عن قائله ، ولما علم أنه من شعر الفردوسي ندم على أنه لم يكافى الشاعر بما وعده به ، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار منه ، ولما دخات القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنازة الشاعر (١٠٢٠ ؟) .

وتعد الشاهنامة من أعظم الأعمال في الآداب العالمية في حجمها إن لم تكن في غيره . وإن من النبل بحق أن يترك شاعر الموضوعات التافهة ، والأعمال اليسيرة ، ويقضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروى فيها قصة بلده في ١٢٠٠٠ بيت من الشعر - فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوذيسة مجتمعتين فهاهو ذا شيخ طاعن في السن جن جنونه بوطنه ، وشغف حبا بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل ، خرافة كانت أوحقيقة . وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية . ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة في الأبستاق ، ويحدثنا عن جيومرث ، آدم الديانة الزردشتية ، ثم عن جمشيذ العظيم حفيد جيومرث « الذي حكم العالم ٠٠٧ سنة . . . والذي سعد للعالم بحكمه ، ولم يكن يعوم في أيامه موت ولاحزن ولا ألم » . ولكن جمشيذ بعد أن مرت به بضعة قرون « باض الشيطان في رأسه وفرخ ولوى جيده عن طاعة ملاك الرقاب ، متعرضاً بغنط نعمه لقاصة العقاب » « وظنأنه ليس على ظهر الأرض سواه ، وادعي أنه إله ، وبعث بصورته لكي يعبدها الناس » (١٢١) ونصل أخيراً

إلى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع في تلك الأيام . ولما بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال في هوى جارية شابة فولدت منه أخا لرستم . ويخدم رستم ثلاثة ملوك وينجيهم من الموت ، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعائة عام . ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه ، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه ، ويلتى هذا الجُواد من الفردوسي الحب والدعابة اللذين يلقاها الجواد الأصيل من كل غارسي . وفي الشاهنامة قصص حب جميلة ، وفيها بعض ما في شعر شعراء الفروسية الغزلين في أوربا في العصور الوسطى من تعظيم للنساء . فيها صور صاحرة للنساء البارعات الجمال ــ منها صورة للملكة سوذابة التي كانت تتحجب حتى لا يرى أحد جمالها ، والتي كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب(١٢٢٦) . ولكن الحب ليس له شأن كبير في حياة رستم ، لأن الفردوسي يرى أن عاطفة الحب الأبوى والبنوى يمكن أن تكون أعظم وقعاً فى النفوس من عاطفة الحب الجنسي . بيد أن رسم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة في حب فتاة تركية تدعى تهمينة ، ثم تختني عن عينه فلا يقف على أثرها ، ثم تربى ابنهما سهراب والحزن يملأ قابها والكبرياء يرفع رأسها بين أترابها ، وتحدث الشاب عن أبيه العظيم الذى لا تعرف مقره ، ويلتقى الأب والابن فى حرب بين الترك والفرس ، ويقف كلاها ليقاتل الآخر دون أن يعلما حقيقية أمرها . ويعجب رستم بشجاعة الصبي الوسيم ، ويعرض عليه أن يحفظ عليَّه حياته ؛ فيرفض الْغلام هذا العرض بازدراء ، ويقاتل قتال الأبطال ، ويصاب بجرح مميت . ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم ، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه . ويعدو جواد سهراب بغير فارسه حتى يدخل معسكر النرك ويصل الحير إلى والدته فى منظر من أجمل مناظر الملحمة :

ثَنْ وَتَجَارُ جَهِدُ الْحَرْيِنِ وَيَنْتَامِهَا الْعَشَى فَى كُلِّ حَيْنَ أَطَالُتَ بِكَاءَ ابْنِهَا وَالنَّحِيبَا نَأْجِرَتُ مِن النَّاسِ دَمُعَا سُكُوبًا وخرت على الأرض جرآ خمد كأن بها دمها قد جمد وعادت ترجع تحنائها وتذكى على الابن أحزائها وجاءت إلى طرفه الطائر إلى زينسة الزمن الناضر فلزت إلى رأسه صدرها يرى الناس فى عجب أمرها وجاءت لحلته فى كمد تعانقها كابنها المفتقسد (**)

والقصة كلها غاية في الوضوح يتنقل القارى فيها تنقلا سريعا من حادثة إلى حادثة ، ولا يحس بوحد الم الاحين يشعر بوجود الوطن المحبوب في كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه ، ونحن ، الذين لا نجد لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التي توفر عليهم أوقاتهم ، لا نجد متسعاً من الوقت نقراً فيه كل أبيات القصيدة وندفن فيه كل ملوكها ، ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر الإلياذة أو الإنياذة ، أو المسلاة المقدسة ، أو الفردوس المفقود ؟ إن هذه الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أو توا القدرة على هضمها . أما نحن فبعد أن نقرأ ماثى صفحة من صفحات الشاهنامة نمل من قراءة أحبار انتصارات رستم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك . أخبار انتصارات رستم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك . الأصيل الرنانة العذبة ، ولا نتأثر بها كها يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم رستم على ثلماثة قرية في ولاية واحدة من بلادهم . وقد احتفل العالم المتمدين في آسية وأوربا والأمريكتين في عام ١٩٣٤ بالعيد الألني للشاعر الذي ظل كتابه الضخ غذاء لروح الشعب الإيرائي مدى ألف عام .

^(*) هذه الأبيات منقولة عن الترجمة العربية للشاهنامة من الفصل الذي أغفله الفتح بن على البنداري وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام . (المترجم)

الفصل ليابع الفن^(*)

لما فتح العرب بلإد الشام لم يكن للسهم من الفنون سوى الشعر ، ويقال إن النبي حرم فني النحت والتصوير لأنهما من قبيل عبادة الأوثان ـــكما نهي عن الموسيقي ، ولبس الحرير النمين ، والتحلي بالذهب والفضة لأنهما من أسباب التنعم المؤدى إلى الانحلال ؛ ومع أن العرب أخلوا يتحللون شيئا فشيئًا من هذا التحريم ، فإن الفن الإسلامي في ذلك العهدُ الأول كان ينحصر في فنون العارة ، والحزف ، والزركشة . يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً ، ولم يكونوا ذوى براعة فنية ناضجة ؛ وكانوا يعترنون بقصورهم فى هذا الميدان ، ولذلك بُحَّاوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية إلمتبعة في بنز نطية ، ومصر ، والشام ، وبلاد العراق ، وإيران ، والهند ، فعداوها بما يواثم طبيعتهم ، كما لِحَاوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد . من ذلك أن نقوش قبة الصَّخرة في بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثاني في دمشق كانت بنزنطية خالصة . وفيها يلى هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حليات القرميد التي كانت متبعة في بلاد أشور وبابل القديمة ، كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية ، وبعد أن دمر المسلمون في بلاد الفرس كثيراً من الأعمال أ الساسانية الأدبية والفنية تنبهوا إلى مزايا مجموعات العمد ، والأقواس

^(*) نحن مدينون بهذا الفصل إلى كتاب و نظرة شاملة في الفن الفارسي « Survey of و بغاصة الفصول التي Persian Art الذي نشره آرثر أيهام پوپ Arthur Uphan Pope ، و بخاصة الفصول التي كتبها بنفسه . وإن عمله العظيم في هذا الميدان الذي أجاده وأخلص فيه ، والذي يضارع في عظمته ما عمله چيمس هنري برستد في تاريخ مصر لمن الأعمال الخالدة التي تشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وحب الإنسانية في أجل مظاهرها .

المستدقة والعقود ، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التي أثمرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربي المعروف . ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً ، بل كانت تركيباً بارعا من أشكال مختلفة لا ينقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم . وتخطى الفن الإسلامي الذي انتشر من قصر الحمراء في الأندلس إلى التاج محال في الهند كل حدود الزمان والمكان ، وكان يسخر من التييز بين العناصر والأجناس ، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع ، وعبر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شيء من نوعها حتى ذلك الوقت .

ويكاد فن العارة الإسلامية ، كمعظم فنون العارة في عصر الإيمان ، أن يكون كله فنا دينيا خالصا . ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل ؛ أما بيوت الله فكانت ، من داخلها على الأقل ، نماذج من الجال الحالد . فير أننا مع هذا نسمع عن قناطر ، وقنوات لجر مياه الشرب ، وفساقى ، وخزانات لمياه الرى ، وخامات عامة ، وقلاع ، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبق من آثار هذه كلها إلا القليل . وقد أقامها مهندسون معاريون ، كان الكثيرون مهم في القرن الأول بعد الفتوح الإسلامية من المسيحيين ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت فيا بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين كانت فيا بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مبانى حربية ممتازة في حلب ، وبعليك ، وغيرها من مدن وأحدوا مبانى عربية ممتازة في حلب ، وبعليك ، وغيرها من مدن وأخلوا عن أعدائهم كثيراً من الأفكار التي أقاموا على أساسها حصومهم وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلة ، وقصر الحمراء في قرطبة وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلة ، وقصر الحمراء في قرطبة وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلة ، وقصر الحمراء في قرطبة وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلة ، وقصر الحمراء في قرطبة وقسن وقصرين معاً .

ولم يبق من قصور بنى أمية إلا القليل . ومن هذا القليل الباقى بيت رينى فى قصير عمرة بالصحراء الواقعة فى شرق البحر الميت ، وتكشف بقاياه عن حامات ذات مظلمات : ويؤكد لذا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

فى شبر از كان يحتوى على ثلثمائة وستين حجرة واحدة منها لكل يوم من أيام السنة ، وقد طلبت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان ، وخصصت منها واحدة للمكتبة ، وكانت حجرة رحبة ببلغ ارتفاعها طابقين ، ذات بواك وعقود ، ويقول عنها أحد مؤرخى الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب فى أى موضوع من الموضوعات لاتحترى المكتبة نسخة منه(١٢٤) . ولسنا نشك فىأن للجيال أكبر نصيب فيا وصفت به شهرزاد مدينة بغداد ، ولكنه وصف يصور ماكانت عليه فخامة النقوش فى داخل القصور أصدق تصوير(١٢٥) . وكان لأغنياء المسلمين بيوت في الريف وقصور في المدن . وكانت لهم في المدن نفسها حدائق كبرى، أما بيوتهم في الريف فكانت حدائقها و جنات ، حقة ـ فها بساتين ذات عيون ، وجداول ، وفساق ، وبرك مبطنة بالقرميد ، وأرهار نادرة ، وظلال ، وأشجار فاكهة ونُهُل ، وكانت تحتوى عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق ، دون أن يضايقهم وهج الشمس . ركان الدين في فارس دين أزهار ؛ فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوىجيع مظاهر الأبهة والفخامة ، وطبقت شهرة ورد شهراز وفيروزباد جميع أرجاء العالم ، وكانت الورود ذوات المائة من الأوراق من الهدايا التي يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك(١٢٦).

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ ، كما هي الآن ، أبنية مستطيلة الشكل ؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين ، سقفها خليط من الطين ، وأعواد النبات ، وغصون الأشجار ، وجريد النخل ، والقش . وكانت البيوت الأرق من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلي مكشوف ، ذى فسقية ، وشجرة في بعض الأحيان ؛ وكانت تحتوى أحياناً على طائفة من العمد الحشيية ، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات . وقلما كانت البيوت تبنى على الشارع أو تطل عليه ، لأنها كانت حصوناً للعزلة ، تقام للأمن والسلام ؛ وكان لبعضها أبواب سرية ، مهرب مها صكانها من فورهم إذا هوجموا أو أريد اعتقالهم ، لو يدخل مها الحبيب سرآ (١٢٧٧).

وكان في كل البيوت ، عدا بيوت أفقر الناس ، أجنحة خاصة بالنساء ، لكل منها في بعض الأحيان فناء مستقل . وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الله ، الذي يحمل إلها من خارجها كما تحمل الفضلات منها . وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تولف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لِحلوس الأسرة عامة تعلوها قبة ، وفي الطابق الثاني منها شرفة تطل على فناء البيت . ولم يكن بيت من البيوت عدا أفقرها يخلو من مشربية من الخشب تلخل الضوء ، وتمنع حرارة الشمس ، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من بالخارج. وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت ، وكانت هي النماذج التي صنعت على غرارها الستر الحجرية أو المعدنية التي ازدانت مها القصور والمساجد فيها بعد . ولم يكن بالبيت مدفأة ثابتة في جلىرانه ، بل كان يدفأ بموقد تحادي متنقل يحرق فيه الفحم الحشبي : وكانت الحجرات تجصص وتطلى عادة بألوان متعددة . وكانت الأرض تفرش بطنافس من تسيج الياد ، وقاد يكون علمها كرسي أو كرسيان ، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس . وكانت أرض الحجرة ترتفع بجوار الجلىران في ثلاث نواحمها بقلىر قدم ، أوما يقرب منه ليتكون من ذلك ديوان يفرش بالوسائد . ولم تكن في هذا النوع من البيوت حجرة عَاصَةً بِالنَّوْمِ ، وكَانَ فرش النَّومِ مَكُونًا من حشية تطوى في أثناء النَّهارِ ، وتوضع في مكنان لمجاص كما يفعل أخل اليابان في هذه الأيام . وكان أثاث البيت بسيطًا : يتألف من بضع مز هريات . وآنية المطبخ ، ومصابيح ، وكولة للكتب في بعض الأحيان .

وكان حسب المسلم التى الفقير أن يكون المسجد جميلا ، وكان ينفق في تشييده جهده وماله . ويجمع فيه فنونه وصناعاته ويضعها كالطنفسة بين يدى الله ، وكان في وسع الناس جميعاً أن يستمتعوا جدا الجمال وبتلك العظمة ، وكان

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة أنحائها . ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه . وإذا استثنينا واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه فى بعض الأحيان من المبانى المجاورة له ، وقد يكون أحياناً ملتصقاً بها التصافآ ، وقلما كان يشيد من مواد أفخم من الآجر المطلى بالمصيص . وقد حدد شكله الغرض اللي أقيم من أجله : فكان يتألف من بهو رباعي الشكل يتسع للمصلين ، ومن حوض أوسط ونافورة للوضوء، تحيطها إيواناته ذات البواكي لوقاية المصلين وإظلالهم، وليتلقوا فها الدروس ، وفى ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء المسجد الأصلي ، وهو في العادة قسم مسور من الرواق . وكان هذا القسم أيضاً ذا شكل رباعي يمكن المضلين من أن يقفوا صفوفاً متراصة متجهين أيضاً إلى مكة . وقد يكون فوق هذا الصرح قبة ، تكاد تبى في هميع الأحوال من الآجر ، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى بالحص لإخفاء هذا البروز(١٢٨) . وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى القية المستديرة يتم كما يتم في العارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطهما في القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين ، أو سلسلة من العقود الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة . وأهم ما تمتاز به عمارة المساجد هو المثلنة ، والراجح أن المسلمين في بلاد الشام قد أخذوا فكرة المثلنة من الزجورات ــ الصرح ــ البابلي وبرج الجرس في الكناتس المسيحية ، وأخذ الهنود المسلمون الشكل الأسطواني من بلاد الهند، وتأثر مسلمو إفريقية فى تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة(١٢٩). وليس ببعيد . أن تكون الأبزاج ذات الأركان الأربعة في المساحة التي أقيم عليها الهيكل القديم . في دمشتى ، ذاتأثر في شكل المثدنة (١٣٠٠ ، وكانت في هذا العهد الأول بسيطة خالية في أغلَّب الأحيان من الزخرف ، ولم تصلُّ إلا في القرون المتأخرة إلى ما وصلت إليهمنالدقة والارتفاع ، أو نحومااحتوته من الشرفات الرقيقة الهشة ،

والبواكى الزخرفية ، والسطوح القاشانية ، التي أنطقت فرجسون Fergusson بقوله ه إنها أعظم الأبراج رشاقة في عمارة العالم كله ه(١٣١) .

وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأسهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً ، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرميد البراقة لأرض المسجد ومحرابه ؛ وبالزجاج ذي الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصابيحه ؛ وبالطنافس الغالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة ؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلي من الجدران ؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحاريب والطنف؛ وبالنقوش الجميلة في الخشب أوالعاج أو المصنوعة مَن المعدن في الأبواب ، والسقف ، والمنابر ، والسجف . . . أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبلل أعظم العناية في تحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس . وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعلمها نسخة من كتاب الله . وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنمو ذجاً لجهال الحط وروعة الفن الدقيق . ويجاور المنىر القبلة وهي جزء داخل في جدار المسجد لعله مأخوذ من القبا فى الكنائس المسيحية . وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم فى تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به في الكنائس والهياكل ، فجملوه بالقاشاني والفسيفساء ، وصور أوراق الشجر وأزهاره ، وَالْنَقُوشُ البارزة ، والأنماط الحميلة ، ذات الألوان البديعة من الآجر، والحص ، والرخام ، والطين المحروق ، والقاشاني .

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميين تمثيل صور الإنسان والحيوان فى الفن! فكأن الفنانين المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية ، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غير هم . فبحث الفنان فى أول الأمر عن منقذ لمواهبه الفنية فى الأشكال الهندسية ـ الحط، والزاوية ، والمربع ،

والمكعب ، والكثير الأضلاع ، والمخروط ، والشكل اللولبي ، والقطع الناقص ، والدائرة ، والكرة ؛ وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مثات التراكيب، وأنشأ منها الدوامات، والأربطة، والخطوط المتشابكة المتدخلة، والنجوم . ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة ، فصور من مختلف المواد ، تيجاناً ، وكروما ، وأزهاز البشنن . والكُنْكُتُر ، وخوص النخل وجريده . فلماجاءالقر نالعاشر مزج هذه كلها فأنشأمها الزخرف العربي الذائع الصيت ، وأضاف إلىها كلها حلية فذة كبرى هي الكتابة العربية . ذلك أنه عمد في العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين ، أو نمقها بالذيول والنقاط ، حتى استحالت الحروف الهجاثية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال . ولما تحلل الناس بعض الشيء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنانأنواعا جديدة منالزينة بأن رسمطىر السهاء، وجيوان الحقل، أو ابتدع أشكالا عن الحيوانات المختلفة لاوجود لها إلا في غيلته . واستطاع بفطنته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن ـ الفسيفساء ، والنقوش الصغيرة على العاج وتحوه ، والخزف ، والأقمشة ، والبسط . وكان النقش في كل حالة تقريبا تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة ، تسيطر عليها صورة رئيسية ، أو موضوع رئيسي ، ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية ، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقي ٥ ولم يكن الفنان المسلم يرىأن أية مادة مهما قست تستعصى على فنه ؛ ولهذا أصبح الخشب ، والمعدن ، والآجر ، والحص ، والحجر ، والقرميد ، والزجاج ، والقاشاني ـ أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما في خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستشى من ذلك الفن الصيني نفسه .

و استعانت العارة الإسلامية سهذا الفن الزخر فى فأقامت فى جزيرة العرب ، وفلسطين ، والشام .، وأرض الجزيرة ، وفارس، والتركستان، والهند ، ومصر

وتونس، وصقلية ، ومراكش ، والأندلس — أقامت فى هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة فى خارجها ، والرشاقة والرقة فى داخلها ، نذكر منها مساجد المدينة ، ومخة ، وبيت المقدس ، والرملة ، ودمشتى ، والكوفة ، والبصرة ، وشير از ، ونيسابور ، وأردبيل، ومسجد جعفر فى بغداد ، ومسجد سر من رأى العظيم ، ومسجد زكريا فى حلب ، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر فى القاهرة ، ومسجد تونس الكبير ، ومسجد سيدى عقبة فى القيروان ، والمسجد الأزرق فى قرطبة — وليس فى مقدورنا إلا أن نكتنى بذكر أسمائها لأن مثات المساجد التى بنيت فى ذلك الوقت لم يبق منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نجوها ، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب .

وقد كشف في العصر الجديث في بلاد الفرس وحدها ـ وهي جزء صغير من بلاد الإسلام ـ عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد في تلك البسلاد ؛ وكان كشف آثارها من الحادثات الكبرى في إزاحة الستار عن الماضي الجهول (ق) وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل ؛ لأن كثيراً من رواقع العارة الفارسية قد عبثت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً. وحسبنا أن نذكر في هذا المقام أن المقدسي يصف في فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمد الرخامية ، والصفائح الذهبية ، وإبلاران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ؛ وإنه والجدران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ؛ وإنه مسجد هبراة (١٣٦٥). وفي وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته مسجد هبراة (١٣٦٥).

⁽ه) في عام ١٩٢٥ صرح رضا خان ، الذي جلس بمدلد على عرش فارس ، إلى آرثر أبهام پوپ ١٩٢٥ صورة Arthur Upham Pope بدخول مساجه بلاد الفرس وكان عمرماً على فير المسلمين من قبل أن يدعلوها ، لكي يصورها من الداخل . وكان هذا حادثاً عظيما كشت العالم عن بدائع الفن الفارسي وروعته.

العارة الفارسية فى القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة ، بدراسة النقوش الحصية البارزة ، والعمد والتيجان المحفورة الباقية ، من محراب مسجد ناين الجامع المخرب ، والمتذنتين الجميلتين الباقيتين في دمغان . وقد يتي من مسجد أردستان (١٠٥٥) محراب وباب جميلان ، كماكشف فيه عن كثير من العناصر التي تجلت فيا بعد في العقود القوطية المستدقة ، والأكتاف المركبة ، والأقبية المتقاطعة ، والقبة المضلعة(١٣٣) . وكانت المادة التي شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هي الآجر، شأنها في ذلك شأن المبانى القديمة في بلاد سومر وأرض الجزيرة ؛ وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات ، ووفرة الطين والنبران ؛ لكن الفنان الفارسي قد بحول طبقات الآجر بفضل ما أدخله عليها من الضوء والظل ، والنماذج الفنية الجديدة ، والأوضاع الفنية المختلفة ، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظراً لها من قبل . وقد ٰكسا الخزاف الفارسي الآجر في أماكن خاصة ، كمداخل ٰ المساجد والمنابر والمحاريب، بطبقة من القسيفساء متعددة الألوان ، وبالقرميد الزاهي البراق ؛ ولما أقبل القرن الحادى عشر زاد السطح البراق لألاء وبهاء بطبقة من القاشانى الملون اللامع . وهكذا خدم المسجد كل فن فى بلاد الإسلام ، نزل إلى هذه الحدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء .

وإذ كان قد حرم على المثال أن ينحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان ، فقد وجه جهوده إلى الزخرقة بالنقوش البارزة . فأتقن نحت الحجارة ، وشكل الحص باليد قبل أن يجف ، وصاغ منه أشكالاكثيرة مختلفة ، وقد بتى أنموذج رائع من هذه العائر ، وهو القصر الشتوى الذى بدأه الوليدالثانى عام ٧٤٣ بالصحراء الشرقية إلى شرق ثهر الأردن وتركه دون أن يتمه . وكان حول سطح الواجهة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار ، والفاكهة ، والطير ،

والحيوان ، والنقش العربي . وقد نقل هذا النقش الرائع إلى برلين في عام ١٩٠٤ ونجا من الدمار في أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان النجارون يجملون النوافذ ، والأبواب ، والسَّر الحشيبة ، والشرفات ، والسقف ، والمناضد ، وكراسي المصاحف ، والمنابر ، والمحاريب ، ويبدعون في نقشها إبداعا يستطيع الإنسان أن يراه فى ثوحة وجدت فى تكريت ونقلت إلى المتحف الفنى فى نيويورك . كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والحشب يزينون بفنهم المساجد ، والمصاحف ، والأثاث ، والآنية ، والأشخاص أنفسهم ، ويجملونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة . غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا تطعة واحدة هي طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن في المتحف الأهلى بفلورنس ويقال إنها إحدى قطع الشطرنبج الذي أهداه هرون الرشيد إلى شارلمان في القرن التاسع الميلادي(١٣٤). كذلك أخد صانعو المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق ، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح ، وأباريق ، وجفانا ، وجرارا ، وكنزانا ، وأقداحا ، وأطساتا ، ومواقد ؛ توصيوها في صور الآساد ، والأفاعي ، وآباء الهول ، والطواويس ، واليمام ،؛ ونقشوا علما في بعض الأحيان رسوماً بديعة نشاهد مثلا منها في المصباح الشبيه بالقاش المخرم والمحفوظ في معهد الفن بمدينة تشكاجو . ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب ، ويبدعون المصنوعات المعدنية « الدمشقية » أي المزخرفة يفن الدمشقين وإن لم يكن قد نِشأ في مدينتهم (١٢٥) . وكانت السيوف الدمشقية تصُّنع من الفولاذ المستى المزين بالنقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية ، أو الحروف الهجائية ، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة . وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد برعوا في هذا الفن يراعة ليس بعدها زيادة لمستزيد .

ولما انتهى عصر الفتوح الإسلامية واستقر المسلمون في البلاد المفتوحة. وأخلوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم في صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خسة في هذا

الفن هي التقاليد المصرية ، والإغريقية ــ والرومانية ، والعراقية ، والفارسية ، والصينية . ونقول الصينية لأن سار Sarre كشف في سر من رأى فخارا من عهد أسرة تانج ومعه قطع من الخزف الصيني الرقيق ٤ وكأنت الأوانى الفارسية ـــ الإسلامية في عهدها الأول منقولة نقلا لا خفاء فيه عن نماذج صيلية . ونشأت مراكز صناعة الفخار في بغداد وسامرا (*)، والرى ، وكثير غيرها من البلدان . ولم يحل القرن العاشر الميلادى حتى كان صانعو الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الآنية الفخارية ما عدا الخزف الصيني ، ويصنعونه في أشكال لا حصر لها تبدأ من المباصق اليدوية الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة ، التي تتسع في القليل لأحد « اللصوص الأربعين «١٣٦٠ ، ويتبن الإنسان فى خير المصنوعات الفخارية . الفارسية دقة فى التصوير ، وبراعة فى التلوين ، وحذقا فى الصناعة لا تسمو علمها إلا الصبناعتان الصينية واليابانية ؛ وظلت ستة قرون لا تضارعها صناعة أخرى في جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة اليامير وغربها(١٣٧٧) : وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها مواءمة لهم ؟ وكان أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحربص على جمع روائعه ، وكثيراً ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبي العلاء المعرى وعمر الخيام تشبيهات واستعارات فى أقوالهم الفلسفية . ويحدثنا الكتاب عن مأدبة أقيمت في القرن التاسع ارتجلت فيها قصائد ، وأهديت إلى الآنية التي كانت تزدان بها المائدة (١٣٨).

وقد امتاز صانعو الفخار فى سامرا وبغداد فى ذلك القرن بصنع الفهخار اللامع أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداعا . وكانت النقوش التى تحايه ترسم بأكسيد معدنى على طبقة من الطين المزجج ، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية مدخنة مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة ، وتكسب الطلاء بريقا متعدد

^(﴿) وهي مُسرَّ من وأي وتسمى أيضاً مُسرَّاء . (المَترجم) (﴿) ﴿ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّا اللللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

الألوان . وبهذه الطريقة أخرج الصناع أوانى ذات لون واحد جميل ، وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل مها خضراء ذهبية ، وبنية داكنة ، وصغراء ، وحمراء ، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل عن المائة عدا . وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع الفرميد التي كانت تستخدم للزينة في فن العراق القديم ، فكانت ألوان هذه المربعات الكثيرة وما تألف منها من وحدات متناسقة مما أكسب مداخل مئات المساجد وعاريبا وكثيراً من جدران قصور العظاء روحة منقطعة النظير . وورث المسلمون في صناعة الزجاج — وهو الفن الشديد الاتصال بصناعة الفخار — كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حدق وبراعة ، فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة ، وزينوها بالرصائع والنقوش ، ورسوم النبات والأزهار ؛ ولعلل أهل الشام قد ابتدعوا في ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالميناء ، وهو الفن الذي بلغ ذروة مجده في القرن الثالث عشر .

وإذا ما ذكرتا سعة انتشار فنى التصوير والنحت فى الكنائس الكاثوليكية الكبرى وهى التى لا تكاد تفلو من آثاره واحدة منها ، وذكرنا فى الوقت نفسه أهمية هذين الفنين فى نشر العقائد والقصص المسيحية ، إذا ما ذكرنا هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما فى الإسلام . نعم إن القرآن قد حرم النحت (سورة الماثلة الآية ٨٩) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير : غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبي قد نهى أيضاً عنه (١٣٦) . ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء محرم التصوير وإقامة التماثيل جميعا . ولهذا التحريم نظير فى الوصية الثانية وفى التعاليم البودية . ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين يغرج مثالا للكائنات الحية إنما يدعى لنفسه ما هو من حقوق الخالق جل جلاله . ومن علماء الدين من يتساهلون فى هذا فيجيزون تصوير الجاد . ومنهم من يتغاضون عن تصوير الحيون أو الإنسان على

الأشياء التي لا تستعمل إلا في الأغراض الدنيوية . وكان يعض خلفاء بهي أمية لا يعبثون قط بهذا التحريم ؛ وشاهد ذلك أن الوليد الأول زين قصره الصيني في قصير عمره حوالي عام ٧١٧ بمظلمات هلنستية صور فيها برجالا يطاردون الوحوش ، وبنات يرقصن ، ونساء يغتسلن ، وهو جالس فوق عرشه يشاهد هذا كله (١٤٠) . وكان خلفاء بني العباس يجهرون بتقواهم ، ولكن كانت لهم قصور حوت في حجراتهم الحاصة جدرانا مؤينة بالصور؛ وقد استأجر المعتصم فنانين ، أغلب الظن أنهم مسيحيون ، ليصوروا على جدران قصره في سامرا مناظر صيد ، ورجال دين ، وبنات عاريات يرقصن ؛ وأجاز المتوكل ، وهو الذي كان يضطهد الملحدين ، المصورين من أهل بيزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلمات مظلما آخر يمثل رهباناً مسيحين وكنيسة مسيحية (١٤٠).

وزين محمود الغزنوى قصره بصور تمثله هو وجيوشه ، وفيلته ؟ وخطى ابنه مسعود ، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة من عرشه بزمن قليل ، جدران حجرات قصره في هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب القن الشهواني الفارسي أو الهندى (۱٤٢٧) . وتروى إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذا يتباريان في بيت أحد الوزراء في التصوير الواقعي ؟ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من ياطن الجدار ؛ وعرض الثاني أن يقوم بعمل أشق من هذا — وهو أن يصورها بحيث تبدو وهي تهم بدخول الجدار . ونجح كلاهما في إبراز نكرته نجاحا حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنية ويبهما كثيرا من لدهب (۱۹۲۱) . وفي وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد الدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم ؟ وحسبنا أن نقول إنا نجد في بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسي مصورة بكثرة يطرب فا الراثي ، وممثلة بجميع أنواع فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها ، قد عاق

نمو فن التصوير الإسلامى ، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة ، وكاد يمنع تصوير الأشخاص (وإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابنسينا) ، وترك الفنانين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف ،

ولم يبق من صور الجدران في ذلك العصر إلا صور قصىر عمرة ؛ وهي تكشف عن خليط غريب مجدب من القواعد الفنية البنزنطية والأنماط الساسانية . وكأن المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم. الصغرى على العاج ومثله إلى درجة من الجال لا تعلو علمها درجة أخرى فى التاريخ كله . وقد وجد هذا الفن تراثا متعدد الأنماط بنى عليه ، وأخرج منه ثماراً مختلفة ، ونعني بذلك التراث البنزنطي ، والساساني ، والصيني ؛ وتُكان تزين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة فى العصور الوسطى فناً اختصت به طبقات الأشراف القليلة العدد ، شأنه في هذا شأن موسيقي ا الحجرات في أوربا الحديثة ؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقىر المخلص لفنه فقرآ وإخلاصا أنتجا هذه الروائع المي تتطلب كثيراً من الجد والأناة . وهنا أيضاً أخضع النزيين تمثيل الكاثنات الحية لسلطانه ؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور ، وخرج على الشكل الذي اتخذه أنمودجا له ، فكان يعمد إلى موضوع أو شكل مركزي ــ قد. يكون شكلا هندسياً أو زهرة واحدة ــ ويتبسط فيه ويتوسع ويخلق منه مائة صورة مختلفة حتى لتكاد كل إصبع من الصفحة بما فى ذلك إطارها تمتليُّ بالخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفراً . وكان في وسع الفنان أن يزين الكتب غنر الدينية بصور للرجال والنساء والحيوان ، ق مناظر الصيد واللهو والحب ، ولكن طراز التزين كان هو بعينه على اللوام ، كان هو الضورة المكونة من خطوط دقيقة ، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفني بعضها في بعض ، ومن الجمال المجرد الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال ، والذي يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستربيح .

وكان الجط العربي الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التنميق ؛ ولسنا نجد مثالا آخر لاجتماع الكتابة والتصوير وتآخهما على هذا النحو إلا فى بلاد الصن البعيدة . لقد كانت الحروف الكوفية في موطنها الأول ، بلدة الكوفة نفسها ، حروفاً سمجة ذات زوايا ، وأركان محددة فجة ، ولكن الخطاط كسا هذه العظام العجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغيرة متخذة من أوراق النبات ؛ فلما ارتنى الحط الكوفى إلى هذه الدرجة من الجال أصبح كثير الاستعال في تزيين المبانى نفسها . أما الكتابة الدارجة فكان خط النسج فيها أكثر جاذبية من الجط الكوفى ؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفتى المتعرج كان هذان فى حد ذاتهما وسيلة للزينة فى غنى عن الإضافات الأخرى . وليس فى خطوط العالم كاه سواء كانت مكتربة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الحط في جماله ؛ ولم يحل القرن العاشر حتى كانت له الغلبة على الحط الكوفى في تزيين المبانى أو الحزف ؛ والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التي وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كنابة القرآن كانت في حد ذاتها من الأعمال الصالحة التي يثاب علها صاحبا ؛ وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكا لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون . وبينا كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعا يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم في جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الموك والأمراء الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هوالاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال ، وكان في البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعوه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود ، والأزرق ، والبنفسجي ، والأحمر ، وبالذهب الإبريز . ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر ، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤ ؟ وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد لينا ومتانة ، وأنه قد بدل في تجليدها من حسن اللوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد ، وأن الجلد المغلفة به كان في كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامة من بداية القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر هي أجمل ما رأته العين من الكتب في العالم كله . وهل منا من يطمع في أن تنشر كتبه اليوم بهذا الرونق وتلك الفخامة ؟

وقد اجتمعت الفنون كلها في تزين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى. ذروة الجمال ، فامتزجتأشكال الرسوم الدقيقة بالحط الجميل في المنسوجات ، وطبعت بالنار على الفخار ؛ وأقيمت على مداخل المبانى والمحاريب. وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفذان ، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان ، بل كان يرفع من قدر الصانع الماهر ، وكان الهلف اللهي تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة . لقد كان الناسج يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل ، مثله في هذا كمثل صانع الفخارسواء بسواء ؛ ولكنه كان في بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصهره ، كما يصور أحلامه ، في الأثواب ، والسجف، والطنافس ،. وأغطية الفراش ، والنسيخ المطرز، والخرير المشجر، يخرجه ليبتي عَدَةُ أجيال، وقد أبدع نقشه ، وصبغه بالألوان الزاهية المجبوبة في بلاد المشرق . لقد كانت المنسوجات البنز نطية ، والقبطية ، والساسانية ، والصينية ذائعة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، والتركستان ؛ وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التي نهى النبي عن لبسها ، وأخرجها بكثرة ، وليشها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر للم خطاياهم الحسمية والروحية . وكانت حلة الشرف أثمن ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من يؤدى له خدمة جليلة ؛ وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير في العالم كله في العصور الوسطى . وكانت أقشة التفتاه الحريرية تبتاع لملابس السيدات في أوربا ، واشتهرت شير از بالأقشة الصوفية ، كما اشتهرت بغداد بأفشة الستاثر ، والمظلات ، والحرير المموج ، وخوزستان بالأقشة المنسوجة من وبر الجال وشعر الماعز ، وخراسان بأغطية الهوادج ، وصور بالطنافس ، ولخارى بسجاجيد الصلاة ، وهراة بالحرير المنقوش بخيوط الذهب . ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد ، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ماكانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة بالنظر إلى ماكان منها في القرون التالية ، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون لما . وقد وجدت في المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها « وحدت في المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء الوزير «(۱۶۵) .

الفصل لثامن

الموسميقي

كانت الموسيقي في أول الأمر محرمة في الإسلام تعد من الآثام ، شأنها فى ذلك شأن النحت (١٤٥٠ . نعم إنه لم ينص على تحريمها فى القرآن ، ولكن ً حديثاً مشكوكاً في صحته يعزو إلى النبي أنه لحوفه من عاقبة أغاني النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كموذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات ، ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست إثماً في ذاتها . أما الناسُ ، وهم أحكم في مسلكهم منهم في عقائدهم ، فكان يجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال أن ﴿ الحمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما ه(١٤٦٠) . وقد رافقت الموسيقي كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملأت آلاف الليالى العربية بأغانى الحب والحرب والموت ؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العظاء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم ، وفي ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكم على هذه الأمور قُولاً خليقاً بأن يثير الدهشة : إن المنزلة التي بلغتها الموسيقي بجميع فروعها عند العرب لتزرى بمنزلة هذا الفن في تاريخ أى بلد آخر (۱۴۷) » . نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقي العربية ـ ونعني بتلك الحصائص تفضيلها حسن الإيقاع على انسجام الألحان ، وتقسيم النغات إلى أثلاث لا إلى أنصاف ، وما في تكوينها وتوقيعها من نضارة وبهجة هي من مميزات بلاد الشرق . وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطا ، محزنا مملًا ، غريبا مستهجنا غير منتظم . لكن الموسيقى الأوربية نفسها تبدو للعربى ناقصة فى عدد نغاتها ،

وفى دقة هذه النغات ؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتعقيد الذى لاخير فيه ، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع . وإن ما فى الموسيقى العربية من رقة تبعث على التفكير لتوثر فى نفس المسلم أعمق التأثير . ويحدثنا السعدى عن غلام يغنى بنغمة محزنة موثرة تستوقف الطائر فى كبد الساء (١٤٨٠) . ويصف الغزالى النشوة بأنها الحالة التى يبعثها الاستماع إلى الموسيقى (١٤٩١) : وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلا فى كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية ، وقد استعان بها الدراويش فى أذكارهم وهم يستمعون إلى الدين نفسه قد ندد بها فى أول الأمر :

وبدأت الموسيقي الإسلامية بالألحان والأشكال السامية القديمة ، ثم نطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الأسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قويا بالموسيقي الفارسية والهندية . وقد أُخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان ؛ وللكندى ، وابن سينا ، وإخوان الصفا ، كتاباب مطولة في هذا الموضوع ؛ وكتاب الفاراني في الموسيقي أشهر ما أُلف في العصور الوسطى في النظريات الموسيقية وهو « يضارع أي كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه »(١٥٠٠) . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع من المصادر اليونانية إن لم يفقه »(١٥٠٠) . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع عام ١٩٠٠) (١٩٠٠) ... وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذي تمتد إليه كل نغمة وعلى مقامها(١٥٠٠) .

وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عداً أشهرها كلها العود ، والقيثارة ، والبندور ، والسنطير ، والناى ، يقويها في بعض الأحيان البوق ، والدف ، والصنج ، والرق ، والطبل . وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الاثنى عشر ؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة . وعن العرب أخدت كلمتا guitar ، وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية ، وكان الأرغن بنوعيه المواثى والمائى معروفاً عند العرب ؛ وقد اشتهرت

معض المدن الإسلامية كإشبيلية بصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التي لاتضارعها آلات أخرى مماكان يصنع وقتئذ في بلاد الإسلام (١٥٢٦). وكان يقصد بالموسيقي الآلية كلها تقريباً أن تصحب الغناء أو أن تكون. مقدمة له . وكان يقتصر في العادة على استخدام أربع آلات أوخس في وقت وأحد ، ولكننا نقرأ أيضاً عن فرق موسيقية كبرة العدد(١٥٣) ، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقي من أهل المدينة أول من استعمل القضيب(١٥٤٠) ، وكانت منزلة الموسيقين عند المسلمن منحطة إذا استثنينا مشهورى الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الحنون ..وشاهد ذُلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من عليائه فدرس هذا الفن الفاتن الذي يسلب العقول . ومن أجل هذا كانت الموسيقي في بيوت الأغنياء من عمل القيان ، ومن المشتر عن فئة تقول إن شهادة الموسيقي لا تقبل في الحكمة (١٥٥) . كذلك كاد الرقص عندهم يقتصر على الجواري يدرين عليه ويستأجرن له ؛ وكان في كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً ، وفي كثير منها فنيآ . وقد أقام الحليفة الأمن حفلة راقصة دامت طول الليل رقص فيها عددكبر من الفتيات وغنَّان : ولما اتصل العرب باليونان والفرس أرتفعتْ منزلة الموسيقيين عندهم ، وكان الحلقاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقيين في أيامهم ؛ فهاهوذا سلمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (١٠٠٠ دولار أمريكي) لمباراة بين الموسيقين في مكة . وهاهو ذا الوليد الثاني يعقد مباريات في الغناء كانت الجائزة الأولى في واحدة منها ٠٠٠ر ٠٣٠ قطعة من الفضة (٠٠٠ر ١٥٠ دولار أمريكي) (١٥٠٠ ، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كعادة أهل الشرق . وقد دعا المهدى إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة ، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه إبراهم الموصلىوأعطاه ٠٠٠٠ ٠ ١٥٠ درهم (٠٠٠٠ من دولار أمریکی) ورتب له عشرة آلاف کل شهر ووهبه ۲۰۰،۰۰۰ نظیر أغنية واحدة . وقد بلغ من حب هرون للموسيقي أن شجع تلك الموهبة في

أخيه لآبيه ، الشاب إبراهيم بن المهدى – على الرغم من تقاليد طبقته – لأن إبراهيم كان له صوت غاية فى القوة يبلغ مداه ثمانى طبقات. وإن الزمن ليتضاءل فى خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عند ما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية فى الموسيقى العربية مضادة للنزعة الإتباعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلي . وكان المأمون يقول عنه إنه لم يغن فى قط إلا شعرت بأنى قد اتسع ملكى (١٥٩).

والقصة الآتية التي يرويها مخازق تلمنيذ إبراهيم الموصلي تصور لنا المجتمع الإسلامي بصورة مبهجة ، وتظهر ماكان للموسيتي الإسلامية من أثر قوى في نفس المسلم ؛ ولسنا في حاجة إلى تصديقها الكي تحس بمغزاها ، قال :

تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم، فقيل له : كيف ذلك؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح، فلما أصبحنا قلت له: يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتنسم إلىوقت انتباه أمير المؤمنين ٠ قَالَ نَعْمَ ، وأَمْرَ البُوابِينَ أَنْ يَتْرَكُونَى ؛ فَخَرَجَتْ أَتَّمْشَى وَإِذَا أَنَا بَجَارِيَةً كَأَنْ الشمس تشرق منوجهها فتبعتها ، ورأيت،معها زنبيلافوقفت علىصاحبفاكهة فاشترتمنه سفرجلةبدرهم ، ورمانةبدرهم وكمثرايةبدرهموانصرفت. فتبعثها، فالتفتت فرأتني فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد ؟ قلت خلفك يا سيدتى ؛ فقالت ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحدفيقتلك . فتأخرت ومشيت من بعيد وهي تمشي أمامي، ثم التفتت فرأتني فشتمتني شمّا قبيحاً . ثم جاءت إلى بابكبير فدخلت فيه وجلست أنا بحذاء الباب، وقد ذهب عقلى ، ونزلت على الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فما لبثت أن جاء فتَتَيَان كأمهما بدران على حمارين ؛ فلما وصلا إلى الباب استأدنا فأذن لهما ، فدخلا، ودخلت،معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعانى. وجيء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل : هل لكما فى فلانة ؟ قالوا : إن تفضلت. فاستدعى تلك الجارية ، فخرجت صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته في حجرها وغنت ، فشربوا وطربوا، فقالوا : لمن هذا الصوت؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً آخر فشربوا

وطربوا وهي تلحظني وتشك في ، فقالوا.: لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدي مخارق ، ثم غنث صوتاً ثالثا فطربوا وشربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى بدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه . فاستدعيت يدواة وقضيب وغنيت الصوت الذي غنته الجارية أولا ، فقاموا إلى وقبلوا رأسى . (قال الراوى) وكان مخارق أحسن الناس صوبًا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيباً . ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير، فقالوا بالله من أنت يا سيدى ؟ فقلت : أنا مخارق . فقالوا ما سبب مجيِّئك ؟ قلت : طفیلی أصلحكم الله ، وأخبرتهم بخبرى ، فقال صاحب البیت لصدیقیه : أما تعلمان أنى أعطيت في الجارية فلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها ؟ قالا: بلى . قال : هي له . قال صديقاه : علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف . قال مخارق فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التي أهلوها إلى ") ، وكلما مرت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول لها : يا مولاتي : أعيدى كلامك ؛ فتستحى منى فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمير المؤمنين (فقيل لى إنه انتبه وطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجدك وتغيظ عليك غيظا شديداً) ، فدخلت عليه ويدى في يدها فلما رآني سبَّني وشتمني ، فقلت : يا أمىر المؤمنين : لا تعجل . وحدثته القصة فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك . فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ولى بعشرة آلاف(١٦٠)(*) .

⁽ المجتمع العربي في العصور الوسطى) تأليف إدورد لين Edward Lane ونقلها لين عن كتاب حلبة الكيت . ونقلناها نحن عن الكتاب الأشير وهي مطابقة في حلبها لمسا ورد في كتاب لين علا الجزأين المحصورين بين أقواس فالحزء الأول غير موجود في حلبه الكيت ، والحزء الثاني على موجود في الأصل الإنجليزي ؛ ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر غير موجود في الأصل الإنجليزي ؛ ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر غيرا كافاً به الحليفة صاحب الجارية وصديقيه فؤلفنا يقول إن أمير المؤمنين أعطى صاحب الجارية أربعين ألف درهم ، وكان وأحد من صديقيه ثلاثين ألفا ، ومحارقاً ماثة ألف ، أما صاحب حلبة الكيت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ولخارق بعشرة الاكيت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ولخارق بعشرة الاكيت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ولخارق بعشرة الافي ، وهذا يتفق مع ما جاء في أول القصة الذي لم ينقله المؤلف . (المترجم)

اليا بالثالث عمر الإسلام فى الغرب

1 - 17 - 781

الفضيلُ الأولُ فتح إفريقية

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءا من العالم الإسلامى ، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعونى ؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لها من حكومة منظمة ؛ وازدهرت مدائن القبروان وبالرم وفاس إلى حين . أما أسپانيا في عهد العرب فقد وصلت إلى اللروة في تاريخ الحضارة ؛ ولما حكم المُنعُل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجابرة ، وأبدعوا كما يبدع الصياغ .

وبينا كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمروين العاص ، بعد موت النبي بما لا يزيد على سبع سنين ، من مدينة غزة فى فلسطين واستولى على پلوز (*) ، ومنفيس ، ثم زحف على الإسكندرية . لقد كان لمصر مرافئ وقواعد بحرية ، وكان العرب فى حاجة ماسة إلى أسطول ؛ وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية ، وكانت بلاد العرب فى حاجة إلى الحبوب؛ وكانت الحكومة البيز نطية منذ قرون طوال تستخدم العرب فى شرطتها ، ولم يكن هو لاء ممن يعوقون زحف الفاتحين ؛ وكان المسيحيون اليعاقبة فى مصر قد قاسوا

⁽ه) أو پلوزيوم ويسمها العرب الفرما . (المترجم)

الأمرين من جراء اضطهاد بزنطية ؛ ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين ، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس ، وأرشدوهم إلى الإسكندرية (٣٠) ، ولا سقطت تلك المدينة في يدعمرو بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (٦٤١) كتب إلى الحليفة عمر ابن الحطاب يقول : ١ أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أبى أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يمودى عليهم الجزية وأربعائة ملهى للملوك (٣٤٠)(١)

وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية. ولم يكن في وسعه أن يدرك أسباب الحلافات الدينية بين المداهب المسيحية المختلفة ، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين ، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة .

وبعد ، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت في كتاب عبد اللطيف (١٢٢١ – ١٢٣١) ، أحد العلماء المسلمين ما وردت في كتاب عبد اللطيف (١٢٦٠ – ١٢٧٦) Bar Hebraeus (١٢٨٦ – ١٢٨٦) ثم أوردها بتفصيل أوفى بار هبريوس Bar Hebraeus (المحمدي يهودي الأصل من شرقى بلاد الشام كتب باللغة العربية ، باسم أبي الفرج ، مجتصراً لتاريخ العالم . وقد جاء في روايته لهذه القصة أن رجلا من أعلى الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومي (واسمه عند الغربيين من أعلى الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومي (واسمه من مخطوطات ؟

⁽ه) ليست هذه الرواية من الروايات الموثوق بها ، ويذكر الدكتور بطلر في كتابه فتح العرب لمصر مصدر هذه الرواية ويورد الأدلة التي تنقصها . اقرأ هذا في الترجمة العربية لحذا الكتاب في هآمش ص ٢٥٧ .

⁽هـه) فى الأصل الإنجليزى أربعائة حام ولكن حتى نقلا عن ابن الحكم والدكتور بطلر يذكر أنّها أربعة آلاف حمام ، وقد تكون أربعائة أقرب إلى العقل . (المترجم) "

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه في هذا ؛ فرد عليه عمر ، كما تقول الرواية ، بقوله : ﴿ أَمَا مَاذَكُرْتُ مِنْ أَمْرِ الْكُتَّبِ فَإِذَا كَانَ مَا جَاءِ مِهَا يُوافَقُ ما جاء في كتاب الله فلا حاجة انا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنبيا فيه واحرقها » . وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطورى فى أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير : « احرقها لأن ما فها كله يحتويه كتاب واحد هو القرآن ، . ويضيف بار هريوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد مها ، فما زالوا يوقدون بملفات البردى والرق سنة أشهر (٦٤٢) . ومن نقط الضعف في هذه القصة : (١) أن جزءاً كبراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون في عهد البطرق توفيلس عام ٣٦٣٩٦) ، (٢) وأن ما بني فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضا ﴿ أَدَى إِلَى ضِياع معظمه قبل عام ٦٤٢ ١٤٤ ، (٣) وأن أحداً من المؤرخين المسيحين لم يشر بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم في الخمسمائة العام الواقعة بن حدوثه وبين ذكره لأول مرة ، مع أن أحد هؤالاء المؤرخين وهو أوتكيوس Eutychius . كبر أساقفة الإسكندرية في عام ٩٣٣ (*) قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير (٥٠) . ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها : من الحرافات الباطلة . هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئا فشيئا من المآسى الكبرى في تاريخ العالم ؛ وذلك بأنها ، كما يعتقد العلماء ، كانت تحتوى على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلس ، وسفكل ، وپولبيوس ، وليني ، وتاستوس ، وماثة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة ، كما كانت تحتوى على النصوص الكاملة لمن جاء قبل سقراط من الفلاسفة ، وهي النصوص التي لم يبق منها إلا جذاذات متفرقة ، وعلى آلاف من المجلدات فى تاريخ اليونان ، والمصريين ، .

^(﴿) وَلَقَدُ أُورِدُ اللَّذَكِتُورِ بِقُلْرُ فِي كُتَابِهِ ﴿ فَتَحَ الْعَرْبِ لَمُسْرِ ﴾ المَّرْجِم إلى اللَّمة العربية من الأدلة القاطعة ما يفند هذه القصة . ﴿ (المَّرْجِم) .

والرومان ، وفى العلوم الطبيعية ، والآداب والفلسفة .

وحكم عمرو مصر حكما صالحا ؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة (على التطهير قنوات الرى وترميم الجسور ، وإعادة فتح الحليخ الذى كان يوصل النيل بالبحر الأحمر ، والذى يبلغ طوله ثمانين ميلا . وبللك المتطاعت السفن وقتلد أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى (٢) وقد طمر هذا الحليج مرة أخرى في عام ٧٣٧ وأهمل شأنه) . وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر في الموضع الذى أقام فيه معسكره عام ١٤١ وسميت العاصمة الجديدة بالفسطاط ، وهي كما يبدو الكلمة المرادفة لحيمة ، وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين دمشق أو بغداد ؛

وبعد هإن من الحقائق المقررة أن كل فتح يخلق حدودا جديدة تتعرض المخطر فتوحى بفتح جديد . وأراد المسلمون أن يحموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربي من قبرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقائل مخترقين الصحراء إلى برقة ، واستولوا عليها ، ووصلوا قرب قرطاجنة . وغرس قائد المسلمين رعه في الرمل جنوبي مدينة تونس الحالية بنحو تمانين ميلا ، وأقام في هذه النقطة معسكره ، وأنشأ بدلك (٧٠٠) مدينة من أكبر المدائن الإسلامية وهي مدينة القبروان والحطة ، وعرف عاهل الروم أن الاستيلاء على قرطاجنة يمكن المسلملين من السيطرة على البحر المتوسط، ويفتح لم الطريق إلى أسبانيا ؛ فسير إليها الجند والأسطول ؛ ونسي البربر إلى حين حقدهم على الروم فانضموا إليهم في الدفاع عن المدينة ، فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا في عام ٦٩٨ . ولم يلبث

^(﴿) لَمَلَ المُؤْلِفُ يَقْصِهُ النَّبِ التِي كَانَتَ بِاهْظَةً فِي أَيَامُ الرَّوْمَانُ لَأَنَّ المُمْرُوفُ أَنْ هُولًا عَلَيْهِ النَّهِ النَّهِ النَّهِ النَّهِ وَزَعْهَا تُوزِيمًا عَادَلًا . (المُرَّجِمُ)

^(🏎) الذي في قاموس الفيروزيادي أن القيروان القافلة . (المترجم)

شمال إفريقية أن خضع للمسلمين حتى شاطى المحيط الأطلنطى : واقتنع البربر – بشروطهم هم أنفسهم تقريبا – بقبول حكم المسلمين ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامى ، وقسمت أملاك المسلمين في إفريقية إداريا إلى ثلاث ولايات : مصر وعاصمها الفسطاط ، وإفريقية وعاصمها القيروان ، والمغرب (مراكش) وعاصمته فاس .

وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعبّرف بالسيادة لخلفاء المشرق ؛ ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والنقل ، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة . فقامت أسرة الأدارسة في قاس (٩٧٤) ، وأسرة بني الأغلب (٩٠٠ ــ ٩٠٩) تحكم في القيروان ، وقامت الأسرة الطولونية (٨٦٩ - ٩٠٥) في مصر . ولم تعد مصر - هرى العالم القدم - نهبا للحكام الأجانب ، ودخلت في نهضة صغرى جديدة ، وفتح أحمد بن طولون عام (٨٦٩ ــ ٨٨٤) بلاد الشام وضمها إلى مصر ، وبني له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحي الفسطاط) وشجع العلوم والفنون ؛ وشاد القصور ، والحامات العامة ، وأنشأ بهارستاناً ، ومسجداً عظما لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضله : وقلب ابنه تحاريه (٨٨٤ – ٨٩٥) هذا النشاط إلى ترف ، ورصع جدران قصره بالذهب ، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينشىء لنفسه بركة من الزتبق ليتأرجح بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم . وخَلَمَفُتُ الْأُسرةُ الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاما أسرة أخرى تركية أنشأها الإخشيد (٩٣٥ ــ ٩٦٩) . ولم تكن لهذه المالك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده ، ولهذا كان لابد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين ، فلما أضعفت الثروة حماستها العسكرية ذابت قوّتها واختفت من الوجودد .

تبلغ درجة التعصب ؛ ذلك أن أبا عبد الله قام في بلاد تونس عام ٥٠٥ وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعي وإلى عقيدة الأثمة السبعة ، ويبشر بقرب ظهور المهدى ؛ وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع إزالة حكم الأغالبة من القيروان . وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره في أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد ، وزعم أنه حقيد عبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدى المنتظر ، ونادى به ملكا عبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدى المنتظر ، وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها .

واستعاد شال إفريقية تحت حكم الأغالبة والفاطمين ما عرفه من رخاه في أيام بجد قرطاجنة تحت حكم الرومان . ذلك أن الفاتحين المسلمين في عنفوان شبامهم في القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يتراوح طولها بين معفوان شبامهم في القرن التاسع أنشئوا الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو ، كما أنشئوا من الثغور في الشهال والغرب بونة ، ووحران ، وسبتة ، وطنجه ، وقامت تجارة عظيمة مربحة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط ، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس ، ونقل المهاجرون الأسپان إلى مراكش الصناعات الجلدية ، وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسپانيا ، واشتهرت بأصباغها وعطورها ، وطرابيشها الحمر المغربية .

وانتزع الفاطميون في عام ٩٦٩ مصر من بني الإخشيد ، ومالبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام . ونقل المعز الحليفة الفاطمي عاصمة ملكه إلى القاهرة ، وكانت امتداداً للقطائع في جهة الشمال الشرق كماكانت القطائع نفسها امتداداً للفسطاط في نفس هذا الاتجاه . وحذا المعزحذو أسلافه فشرع يغزو البلاد ويفتح الأمصار . وفي عهد المعز (٩٥٣ – ٩٧٥) وابنه العزيز (٩٧٥ – ٩٩٦) . أعاد يعقوب بن كلس – وهو يهودي من بغداد اعتنق الإسلام – تنظيم الإدارة

المصرية ، وجعل الفاطمين أغنى حكام زمانهم . يشهد بللك أنه حين توفيت رشيدة أخت المعز خلفت وراءها ، و رو ٢٠٠٠ دينار (، و رو ٢٠٠٠ لا المحدولار أمريكى) ، و و و و ١٢٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة تولار أمريكى) ، و و و و ١٢٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة آلاف مزهرية فضية ، وأربعائة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية ، وثلاثين ألف قطعة من المنسوجات الصقلية ، ومقداراً ضخا من الجواهر (٢٠٠٠ ولكن لا شيء يسقط كالنجاح ؛ وآية ذلك أن الحاكم الحليفة التالى (١٩٩٦ – ١٠٠١) جن من فرط الثراء والسلطان ، فدبر اختيال عدد كبير من الوزراء ، واضطهد المسيحيين واليهود ، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد ، وأمر بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح ، وكان تنفيذ هذا الأمر من أسباب قيام الحروب الصليبية . وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبر اطور كلجيولا ، فنادى بنفسه إلها ، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس ، خلما أن قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحين واليهود ، وأعاد عناء كنائسهم ومعابدهم . واغتيل الحاكم في سن السادسة والثلاثين .

وم الرخاء مصر رخم ما كان يخص به الحلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة الأما كافت حلقة الاتصال التجارى بن أوربا وآسية ، وازداد عدد السفن الى ينقل عليها تجار الهند والصبن بضائعهم من تلك البلاد مارة بالحليج الفارسى ، والبحر الأحمر ، والنيل إلى مصر . واضمحلت ثروة بغداد ، وضعفت قوتها بينا زاد ملطان القاهرة وثر اوها . وقد زار ناصرى خسر والعاصمة الجديدة في عام ١٠٤٧ وجاء في وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت ، معظمها من الآجر ترتفع إلى خس طبقات أوست ، وعشرين ألف متجر تملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقشة طبقات أوست ، وعشرين ألف متجر تملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقشة المطرزة ، والحرير إلى دريجة المربح الإنسان فيها مكاناً يجلس (٨) فيه : وكانت الشوارع الكبرى مظللة من وهنج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل . وكانت الحكومة تحدد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأغلى منها ، ويطاف به في شوارع الحديثة على حمل ، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جرمة (١٠) . وكان ذوو

الثروات الضخمة كثيرى العدد ؛ وقد استطاع أحد التجار ، وهو مسيحى ، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصببت فيها البلاد بالمتحط بسبب انخفاض فيضان النيل ؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازى ثلاثين مليون دولار أمريكى (١٠) . واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين في بناء المساجد ، وإنشاء دور الكتب، والمدارس الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً عسالحاً خيراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات ، ومن ترف وإتلاف ، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعال ، ومن العدد المطلوب من الحروب ؛ وكان يضارع في رخائه وثقافته أي عهد آخر في تاريخ مصر (١١) .

وأخد حكم الفاطمين في الضعف أيام المستنصر (١٠٣٦ – ١٠٩٤) ، وهو ابن أمة سودانية . وقد أقام هذا الخليفة سرادقاً فخا⁽⁴⁾ يقضى فيه أوقات متعته ، وعاش عيشة الموسيقى ، والخمر ، واللذة ، وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق في الحجر الأسود ، والاسباع إلى صوت المؤذن الممل ، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم في مكة) (١٢٥) . وثار عليه جنوده الأتراك في عام ١٠٦٧ ، وأغاروا على قصره ، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن ، ومقداراً عظيا من الجواهر ، وحمل خمسة وعشرين بعيراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم ، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواريهم . ولما توفي المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها اللي كان ولما توفي المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها اللي كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من بربر ، وسوادنيين ، وأتراك ؛ وكانت إفريقية ومراكش قد انفصلتا عنها ، وثارت عليها فلسطين، وضاعت منها بلاد الشام . ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين في عام ١١٧١ ، كانت أسرة أخرى من الأسر التي حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغاس في الملذات أسرة أخرى من الأسر التي حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغاس في الملذات

^(*) على شكل الكعبة .

الفصل لثاني

الحضارة الإسلامية في إفريقية

كان الأمراء والخلفاء فى القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ينافس بعضهم بعضاً فى إقامة المبانى ، وتشجيع التصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والفلسفة ؛ ولكن كل ما بتى من المخطوطات من ذلك الوقت فى شهالى إفريقية مخبوء الآن فى دور الكتب التى لم يبدأ علماء الغرب فى ارتيادها إلا منذ وقت قريب (**) . وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها . فنى القيروان مسجد سيدى عقبة الذى أنشئ أولا فى عام ١٧٠ وجدد بناؤه سبع مرات ، والذى يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام ١٨٠٨ . وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئات من العمد الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجنة ، ومنبره آية رائعة من المربعة الضخمة ـ وهى أقدم مئذنة فى العالم السهاقى والقاشانى ؛ ومثذنته المسجد أصبحت هى الطراز السورى الذى أقيمت على مثاله مآذن الغرب : وبفضل هذا المسجد أصبحت التيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة و أبواب الجنة الأربعة » ولا تقل مساجد فاس ، ومراكش ، وتونس ، وطرابلس عنها فى الروعة والفخامة الله قليلا ؛

وكانت المساجد فى القاهرة ضخمة كثيرة العدد ؛ ولاتزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بنحو ثلثاثة منهده المساجد ؛ ومن أشهرها مسجد عمرو بنالعاص؛ وقد بدئ بإنشائه فى عام ٦٤١ ، وأعيد بناؤه فى القرن العاشر ؛ ولم يبق من .

^(﴿) وقد شرعت جامعة الدول العربية فى البحث عن هذه المخطوطات فى هذه البلاد وفى غيرها من بلدان آسية وأوربا وتصويرها . (المترجم)

أجزائه الأولى في هذه الآيام إلا عمده الكورنثية التي أنقدها العرب بحكمتهم من الجرائب الرومانية والبنزنطية . ولا يزال مسجد ابن طولون مجتفظا بشكله الأصلي ونقوشه الأولى ، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات ، وفى داخله عقود بسندقة (غير مستديرة) هي أقدم ما يوجد من نوعها في مصر ، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (٨٦٥) – وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر . وربما كان هذا الطراز الرشيق من العقود قد انتقل من مصر إلى أوربا القوطية عن طريق صقلية والنورمان(١٤) ، وفي مثذنة المسجد (ذات السلم الخارجي) والشبيهة بصروح الزجورات البابلية ، وفي القبة المقامة فوق قر آبن طولون ، عقود على شكل حداء الفرس ، وهي إحدى المظاهر الإسلامية التي لاترتاح إلىها العن كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامي . ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلثمانة عمود ، فلما علم أن هذه العمد لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العائر الرومانية والمسيحية ، قرر أن يقيم هذه العقود بدلا من هذا على عمد ضخمة من الآجر (١٥) ، وربما كان هَذَا الطراز من العمد قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطي . وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملثت بالزجاج الملون ، وبعضها بالشبابيك الجصية (* على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية ، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق .

وفى ٩٧٠ ــ ٩٧٠ أنشأ الجامع الأزهرجوهرالصقلى ــ وهو عبد مسيحى اعتنق الإسلام وكان القائد الذى فتح مصر للفاطميين . ولاتزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد فى مكانها؛ وفيه أيضا نجد العقود المستدقة قائمة على ٣٨٠ عموداً من الرخام، والجرانيت، والرخام السياق. وقد شيد جامع الحاكم بأمرالله

^(*) مذات شبكة من الأصابع المصنوعة من الجمس . (المترجم)

من الحجر ، ولا يزال معظمه باقيا وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن ، وقى وسعنا أن نتصور ما كان عليه من عظمة فى العصور الوسطى بالنظر إلى نقوشه العربية الطراز ، الرشيقة ، المصنوعة من الجص ، ومن الكتابات المكوفية الجميلة التي يزدان بها إفريزه ، وقد كانت هذه المساجد ، التي تبدو الآن معاقل أشبه بالقلاع – وما من شك فى أنها قد صمت لتكون قلاعاً أيضاً – تزدان بكثير من روائع النحت ، والكتابات ، والفسيفساء ، والحاريب المطعمة ، والقناديل التي أضحت الآن تحفاً نادرة فى المتاحف ، وكان بمسجد ابن طولون وحده ، و و ١٨٠ قنديل كثير منها من الزجاج وكان بمسجد ابن طولون وحده ، و و ١٨٠ قنديل كثير منها من الزجاج المطلى بالميناء المختلف الألوان (١٦) ،

وكانت الفنون الصغرى شائعة في إفريقية الإسلامية ، يمارسها المسلمون يما عرف عنهم من الصبر والدقة . فالقاشاني البراق يشاهد في جامع القبروان، وقد وصف ناصری خسرو (۱۰۵۰) الحزف الذی کان یصنع فی القاهرة ً مِأْنُهُ رَقِيقَ بَلِغُ مِن شَفَيْفُهُ أَنْ البِيدُ إِذَا وَضَعَتْ فَي خَارَجِهُ تَسْتَطَاعُ رَوِّيتُهَا مِنْ داخله (۱۷) . واحتفظ الزجاج المصرى السورى بكل ما كان له من جمال ﴿ العهود القديمة ، وتحتفظ متاحف البندقية وفلورنس واللوڤر بالآنية المصنوعة من البلور الصخرى في عهد الفاطميين ، وكان ناحتو الخشب يهخلون البهجة على النفوس بنقوشهم البديعة على أبواب المساجد ، والمنابر ، و المحاريب ، والنوافذ الشبكية . وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بترصيعها أو تطعيمها بالعاج ، أو الأبنوس ، أو الصدف . وكانت الجواهر كثيرة موفورة ، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون حجر اتقصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية _ كالمحابر ، وقطع الشطرنج ، والمزهريات ، والطيور ، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار الكريمة دكان من بين ما انتهبوه ستائر من الحرير المطرز بخيوط الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم . كذلك تعلم المسلمون

من الأقباط فن طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب ؟ ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من مصر الإسلامية إلى أوربا على أيدى الصليبين ، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة ، وكان التجار الأوربيون يقدرون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق ساثر المنسوجات ، ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية ، التي تبلغ من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر فى خاتم الإصبع(١٩٠) . ويحدثنا المؤرخون عن طنافس منعهد الفاطميين ، وعن خيام منسوجة من المخمل ، والساتان ، والدمقس ، والحرير ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب ، مزينة كلها بالرسوم ، ومن هذه خيمة صنعت لليازورى وزير المستنصر عمل فها ماثة وخمسون صانعاً أكثر من تسع سنوات . وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار (۱٤۲٫۰۰۰ دورلار) ، وصور علمها ، كما يقولون ، جميع ما عرف من أ نواع الحيوان في العالم كله ، عدا « الإنسان الذئب » ﴿ ﴿ ، غير أَن الرسوم الفاطمية كلها لم يبق منها إلا قطع من المظلمات في دار الآثار العربية بالقاهرة ، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمي في مصر ؛ لكن المقريزي الذي كتب في القرن الخامس عشر تاريخا للتصوير ــ يقول إن مكتبة الحلفاء الفاطميين تحتوى على مثات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة من بینها ۲۰۶۰ مصحف .

وكانت مكتبة الحلفاء بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله تحتوى مائة ألف من المجلدات؛ وكان بها في عهد المستنصر ٠٠٠٠٠ و يقول المؤرخون إن الكتب كانت تعار لمن يطلبها من الدراسين ذوى السمعة الطيبة من غير أجر وفي عام علم أشار الوزير يعقوب بن كلس على الحليفة العزيز أن يعلم على حسابه خسة وثلاثين طالباً في الحامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم ، وبهذا نشأت

⁽ ه). يريد الإنسان نفسه . (المترجم)

أقدم جامعة في العالم كله . ولما نمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إلها طلابا من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، كما اجتذبت جامعة باريس بعد ماثة عام من ذلك الوقت طلابا من جميع أنحاء أوربا . ومن ذلك الوقت أخد الخلفاء ، والوزراء ، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالمجان فى تلك الجامعة حتى يلغ طلابها فى وقتنا الحاضر ٠٠٠٠ طألب وعدد الأساتذة ثلمًا ثة (٢٠) . ومن أجمل المناظر التي تقع عليها عين السائح العالمي منظر الطلاب وهم مجتمعون في أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام ، تجلس فها كل طائفة في نصف دائرة إلى جانب عمود أمام أحد العلماء (*) ؟ وكان كبار العلماء الذائعي الصيت يفدون إلى الأزهر من كافة أرجاء العالم الإسلامى ليعلموا الطلاب علوم النحو ، والبلاغة ، والرياضة ، والعروض ، والمنطق ، والعلوم الدينية ، والحديث ، والتفسير ، والشريعة الإسلامية ، ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً ، كما لم يكن الأساتلة يتتاولون مرتبات، وإذ كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية ، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد في أمور الدين ، وكان لعلمائها تأثير مثبط للآداب الفاطمية ، والفلسفة ، والعلوم ، ولهذا لم نسمع هن وجود شعراء مجيدين في عهد تلك الأسرة .

وأنشأ الحاكم فى القاهرة « دار الحكمة » ؛ وكانت مهمتها الرئيسية تشر المذهب الشيعى وتعاليمه ، ولكن مهجها الدراسي كان يشمل أيضاً علمي الفلك والطب . وأقام الحاكم أيضاً هرصداً فلكياً ، وأعان بالمال على بن يونس (المتونى سنة ١٠٩٠م) ، وهو في رأينا أعظم طلاء الفلك المسلمين . وبعد أن ظل هذا العالم يرصد السهاء سبعة عشر عاماً أتم « الأزياج الحاكمية ، التي توضيح حركات المكواكب ، ومواقيتها ، وحدد بدقة أكثر من ذي قيل ميل مستوى الفلك ،

^(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الوصف يتطبق على الأزهر منذ تصف قرن أما في الوقت المخاصر فإن النظام في الأزهر شبيه كل الشهة بالنظام في أرق المدارس والحاممات . (المترجم)

ومبادرة الاعتدالين ، وزاوية اختلاف منظر الشمس .

وأشهر الأسماء كلها بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن الهيثم المعروف عند الأوربيين باسم « الهازن Alhazen . وقد ولد في البصرة عام ٩٦٥ واشتهر فيها بنبوعه فى الهندسة والرياضة . وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيـــل السنوى فدعاه إلى القاهرة ، ولكنه تبن أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذى النزوات الشاذة : وافتتنالرجل ، كما افتتن جميعالمفكرين فىالعصور الوسطى، بمحاولاتأرسطو فى ربط المعارف كلها بعضها ببعض ، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف ، لم يصل إلينا شيء منها . وأهم ما يشتهر به ابن الهيثم عندنا الآن. كتاب المناظر في البصريات وهو في أغلب الظن أعظم مؤلف في العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمي في طريقته وتفكيره . وقد درسَ ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره في الأوساط الشفافة كالهواء، والماءواقترب مع اختراع العدسة المكبرة قرباجعلروچربيكنRoger Bacon ،ووينلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعلم ثلثالة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بدلوه من. الحهود لاختراع المجهرو المرقب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكى القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئى من العين يصل إلى. الجسم المرتي ، وقال إن صورة الجسم المرثى تصل إلى العن ومنَّها تنتقل بوساطة. الجسم الشفاف ــ أي العدسة (٢١) . ولاحظ أثر الجو في ازدياد الحجم الظاهري للشمس والقمر إذا كانا قريبن من الأفق ؛ وأثبت أن انكسار الأشعة في الجو يجعل ضوء الشمس يصل إليناحتي بعد أن يختني قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة ، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوى بعشرة أميال. (إنجليزية) . وحلل العلاقة بين ثقل الهواء الجوى وكثافته ، وبين أثر كثافة هذا الهواء فى أوزان الأجسام ، واستخدم قوانين رياضية معقدة فىدراسة فعل الضوء في المرايا الكرية ، والتي في شكل القطع المكافى ، وعند مروره في العدسات الزجاجية الحارقة . ورصد صورة الشسس الماثلة لصورة نصف القمر وقت الحسوف على جدارقائم أمام ثقب صغير في مصراع شباك . وهذا هوأول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التي يعتمد عليها التصوير الشمدي بحافة أنواعه . وليس في وسعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ في بيان أثره في العلوم الأوربية ، وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروچر بيكن ؛ وهاهو ذا روچر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء بيكن ؛ وهاهو ذا روچر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء اللهي يبحث في البصريات من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشوف أو ينقل عنه . والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشوف هذا العالم الطبيعي ابن القاهرة . ولقد ظلت الدراسات الأوربية المضوء حتى ذلك العصر المتاخر عصر كيلر وليونار دو تعتمد على محوث ابن الهيثم .

^(﴿) يَلاحظ هنا حرص المؤلف على إثبات أن هذأ الاضطهاد لم يكن يقم إلا في بعض العهود ؛ أي أنه لم يكن هو السياسة المتبعة وذلك عملا بأواسر الدين الإسلامي نفسه وسياسة معظم الحلفاء . (المترجم)

بالحصون ، كانت تؤدى فيها مناسكها سرآل ، ولا تزال باقية فى تلك البلاد إلى يومنا هذا . ولكن كنائس الإسكندرية ، وقورينة ، وفرطاجنة ، وإفريقية ، التى كانت تزدح من قبل بالمصلين أخدت تخلو مهم وتتداعى ، والمحت من الأذهان ذكريات أثناسيوس ، وسيريل Cyril ، وأوغسطين ، وحبت نيران المنازعات بين الأريوسيين ، والدونائيين ، واليعاقبة المسيحيين ، وحل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين . وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية فى جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة ، واستخدموا أعضاءها فى التجسس والدسائس السياسية . وانتقلت طقوس هذه الجاعة إلى بيت المقدس وأوربا ، وكان لها أكبر الأثر وملابسية . السرية التي قامت فى العالم الغربي كما كان لها أكبر الأثر أيضا فى طقوسها وملابسها . وترى رجل الأعمال الأمريكي بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً ، يفخر بعقيدته السرية ، وطربوشه الفاسي ومسجده الإسلاي (***) .

^(*) لم يكن أقباط مصر في حاجة. إلى أن يمارسوا شعائرهم سراً بل كانوا يمارسونها عبهراً حتى في أكثر المعمور استبداداً . (المترجم)

^(**) في هذا القول بعض الغموض ولمل المؤلف يقصد أن من بين رجال الأعمال الأمريكيين مسلمين يفخرون بدينهم ويتباهون بثيابهم ويؤدون المسلاة في المساجد. (المترجم)

الفصل لثايث

الإسلام فى بلاد البحر المتوسط

1.41 - 784

أدرك زعماء الإسلام ، بعد فتح الشام ومصر ، أن ليس في مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول . وسرعان ١٠ استولت سفهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العائر البيزنطية (٢٥٢ ، ٢٥٥) ، ثم احتلوا قورسقة في عام ٨٠٨ وسردينية في عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) في ٨٢٨ ، ومالطة في ٨٧٠ ؛ وبدأ في عام ٨٢٨ النزاع القسديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية ، فأرسل الأغالبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من اللهب والدم المهراق ؛ فسقطت بالرم في عام ٨٣٨ ، ومسينا في ٨٤١ ، وسرقوسة في والدم المهراق ؛ فسقطت بالرم في عام ٨٣١ ، ومسينا في ١٩٤١ ، وسرقوسة في مدم عن أملاكهم جزيرة صقلية ؛ ولما نقل الفاطميون ملك الأغالبة عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبي والى صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها ، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة ، وأسس فيها الأسرة الكلبية ، وفي عهدها بلغت الحضارة الإسلامية في صقلية ذروة مجدها .

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة فى جنوبى إيطاليا. وكانت القرصنة وقتتذ مما يدخل فى نطاق العادات الشريفة، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على والكفرة ويبيعوهم فى أسواق الرقيق، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين، ومعظمها

من تونسوصقلية ، تهاجم الثغور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي . فاستولى المسلمون في عام ٨٤١ على بارى القاعدة البيز نطية الكبرى في الجنوب الشرقي من إيطاليا ، وفى العام التالى انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إلىهملبارد دوق بنڤنتُو Benevento ليساعدوه علىسالرنو Salerno ،ثم عادوا منها بعد أن أتافوا الحقول وخربوا الأديرة . وفي عام ٨٤٦ نزل ألف ومثتان من المسلمين في أستيا Ostia ، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار رومة ، ونهبوا ضواحي المدينة وكنيستي القديسن بطرس وبولس ، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم . ورأى البا باليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا ، فأخذ هذه المهمة على عاتقه ، وعقدحلفاً بن رومة وبن أملني Amalfi ، ونابلي ، وجيتا Gaeta ومد سلسلة في حرض نهر التيبر ليمنع العدو من اجتيازه . وبذل العرب في عام ٨٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية في الغرب ؛ فقابلهم الأسطول الإيطالي المتحد بعد أن باركه البابا ، وهزمهم ، وقد صور رفاثيل منظر الواقعة في قصرالفاتيكان ، وفي عام ٨٦٦ جاء الإمبراطور لويس الثاني من ألمانيا ، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبى إلمطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى باری و تارنتو Taranto ؛ وما و افی عام ۸۸٤ حتی أخرجوا من جمیع شبه الجزيرة ۽

ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع ، وظلت إيطاليا الوسطى جيلا من الزمان يغشاها جو من الحوف والفزع فى كل يوم من أيام حياتها . فني عام ٨٧٦ أغاروا على كمپانيا و نهبوها ، وهددوا رومة تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدى لهم جزية سنوية مقدارها ، ، ، ر ٢٥ منقوص (حوالى ، ، ، ر ٢٥ دولار أمريكى) حتى يكفوا عن الإغارة عليها (٢٢) . وفى عام ٨٨٤ أحرقوا دير مونتى كاسينو العظيم ودمروه عن آخره . وشنوا غارات أخرى متقطعة نهبوا فيها واذى نهر الأنيو

بيزنطية وألمانيا ، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على مهر كرجليانو (٩١٦) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية في إيطاليا ، وهو المعهد الذى دام مائة عام ، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب ، ولو أن رومة سقطت في قبضتهم لزحفوا على البندقية ، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان . ثرى إلى أى حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادفاتها !

وخضعت الثقافة الصقلية المتعددة الأصول في أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عادتها إلى الفاتحين الجدد ، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أبهى . وأقوى من طابعها القديم ، واختلط فى شوارع العاصمة الإسلامية پانورمس القديمة Panormus وبالرم العربية ، وبالرمو الإيطالية ، الصقليون ، واليونان ، واللمبارد ، وكلهم يكره بعضهم بعضاً من الناحية الدينية ، ولكنهم يعيشون معاً صقلين عادين في عواطفهم ، وشيعترهم ، وجرائمهم ، وفيها شاهد ابن حوقل حوالى عام ٩٧٠ نحو ثلثماثة مسجد ، وثلثمائة من معلمي المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون ــ كما يقول العالم الجغرافي ــ من قلة الذكاء وخفة الأحلام (٢٠٠) . هذا وإذ كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطروضوء الشمس ، فقد كانت تربيها غاية في الحصب ، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنو اتنظم أحو الهاالاقتصادية جنوا تمارهذا التنظم، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيما بن أوربا المسيحية وإفريقية الإسلامية ، وما لبثت أن صارت من أغنى المدن في بلاد الإسلام ؛ وكان حب المسلمين للملابس الحميلة ، والجواهر المتلألئة ، وفنون الزينة ، مما جعل الحياة فى الجزيرة تسمر سمراً هادئاً في غير عجلة ولكن ني غير إسفاف. ويصف الشاعر الصقلي ابن حديس (١٠٥٥ - ١١٣٢) الساعات التي يقضها الشاب البالرى فى متعته ، ويحدثنا عن قصفه وموحه حتى منتصف الليل ، وعن اختلاط الرجال والنساء في الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الهموم ، وعن (١٠ - ج - ٢ مجله ٤)

القتيات المغنيات اللاتى يدغه عن العود بأصابعهن اللطيفة ؛ ويرقصن كأنهن الأقمار الساطعة فوق الأغصان اللدنة (٢٥٠).

وكان في الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يجون الفكاهة الحلوة ه والشعر الموزون ، ولأن الحب الصقلي كان يمدهم بموضوعات جمة مشيرة للخيال . وكان في الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة ، وكان فيها أطباء حظام ه لأن الطب الإسلامي الصقلي قد أثر تأثيراً ذا بال في مدرسة سالرنو الطبية (٢٧٠ . ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية الفورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدها العربي الزاهر ، وتراثاً شرقياً من الصناعات والصناع أورثه العرب ثقافة فتية راغبة في أن تتاقي العلم على أي جنس وأي دين . ولما أن فتح أهل الشهال (النورمان) صقلية ؛ وهاهو ذا الكونت روچر بفتحهم الزمان على عو آثار المسلمين في صقلية ؛ وهاهو ذا الكونت روچر العربية التي بذل المسلمون في إقامتها أعظم الفنون وأعجها ي (٢٧٠ : ولكن الطراز المهاري الإسلامي خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف الطراز المهاري الإسلامي خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف النورمان زين المزار المسيحي بالنقوش العربية الإسلامية .

الفصل لرابع الإسلام فى أسپانيا ۷۱۱ – ۱۰۸۶

١ – الخلفاء والأمراء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا أسيانيا أولا بل الدين فتحوها هم المغاربة. فقد كان طارق من البربر ، وكان في جيشه سبعة آلاف من بني جنسه. مقابل ثلاثة آلاف من العرب، وقد خلد اسمه، إذ سميت به الصخرة التي نزلت قواته عند قاعدتها ، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى چىرواتر Oibraltar . وكان الذي سىر طارقا إلى فتح أسيانيا هو موسى بن نصير والى شمال إفريقية العربي . ثم عبر موسى البحر في عام ٧١٢ ، ومعه ٠٠٠٠ من الجنود العرب و ٨٠٠٠ من البربر وحاصر أشبيلية ومريده ، ولام طارقا لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له ، وضربه بالسوط ، وزجه في السجن ؛ ولكن الحليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه . وكان موسى قد عن ولده عبد العزيز حاكمًا لأشبيلية ؛ ولكن سلمان أخا الوليد ارتاب في نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس ، فأرسل إليه من اغتاله . وجيء برأسه إلى سلبان في دمشق ، وكان قد تولى الحلافة بعد أخيه ، فبعث يستدعى موسى ، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس والمه حتى. يسبل عينيه . ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن(٢٨٥) . ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا خرافة من الحرافات التي. تروى عن حب الملوك لسفك الدماء . وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة ، ولم يصادروا إلا أراضي الذين قاوموهم بالقوة ، ولم يفرضوا على الأهلين من الضراثب أكثر مما كان يفرضُها عليهم ملوك القوط الغربيين ، وأطلقوا لهم من الحرية الْدينية ما لم تتمتع به أسپانيا إلا في أوقات قليلة نادرة . ولما أنْ توطد مركز المسلمين في أسهانيا ، عبروا جبال البرانس ودخلوا غاله يريدون أن يجَعلوا أوربا ولابة تابعة لدمشق . والتني بهم بين تور وپواتييه على بعد ألف ميل شالی جبل طارق جیش متحد موالف من قوی یو دیس Etides دوق أكونىن ، وشارل دوق أستر اسيا Austrasia . ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون بعدها في واقعة من أهم الوقائع الحاسمة في التاريخ (٧٣٢) ؛ وفيها قررت مصادفًات الحرب مرة أخرى الدين الذي يتبعه الملايين ألَّى لا يحصى عديدها من بني الإنسان . ومن هذا الوقت أطلق على شارل اسم شارل مارتلس Charles Martelius أي شارل المطرقة . وأعاد المسلمون الكرة في عام ٧٣٥٠ واستولوا على أرليس Arles. ، ثم فتحوا أقنيون Avignon في عام ٧٣٧:وخربوا وادى نهر الرون حتى ليون . وفي عام ٧٥٩ أخرجهم پيپين القصير Pepin the Short نهائيا من جنوبي فرنسا ؛ ولكن الأربعين عاماً التي تنقلوا خلالها في ذلك الإقليم كانت في أغلب الظن ذات أثر قوى فيها يتصف به أهل لانجويدك Languedoc من تشامح غير عادى بين الأديان المختلفة ، ومن مرج كثير ومن حب لأغانى الغزل غيز المباح .

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرون أسبانيا حق قدرها ، فلم تكن تعرف عندهم حتى عام ٧٥٦ إلا باسم « الأندلس » ، وكان يحكمها وال يعين من القيروان . لكن شخصية روائية نزلت في أسبانيا عام ٧٥٥ ، وكان سلاحها الوحيد هو ما يجرى في عروقها من ألدم الملكي ، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لاتقل في عدها وثراثها عن خلفاء بغداد . ذلك أنه لما أمر بنو العباس في عام ٥٥٠ أن يقتل جميع الأمراء الأمويين ، لم ينج من هؤلاء الإمراء إلا عبد الرحن أحد أحفاد

الخليفة هشام . وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية ، فاضطر أن يعبر بهر الفرات الواسع سباحة ، واجتاز الصحراء إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراكش . وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهبت نبران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب ، والسوريين ، والفرس ، والمغاربة في أسپانيا . وكان في تلك البلاد طائفة من العرب مخلصة للأمويين تخشى أن يعترض الحلفاء العباسيون على حقها في تملك علصة للأمويين تخشى أن يعترض الحلفاء العباسيون على حقها في تملك وتولى قيادتهم . فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (٢٥٦) ، وهزم جيشاً أرسله الحليفة المنصور لينتزعها منه ، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليعلق أمام أحد القصور في مكة .

ولعل هذه الحوادث هي التي منعت انتشار الدين الإسلامي في أوربا : ذلك أن أسيانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية ، وانقطعت عبها المعونة الحارجية فلم تواصل الغزو والفتح ، بل انسحب المسلمون من شهالى أسيانيا ، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادي عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا Coimbra ماراً بسرقسطة ومحاذيا لهر الإبرة . وازدهرالنصف الجنوبي الإسلامي بعد أن بسط فيه لواء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه ، فعمه الرخاء ، وترعرع فيه الشعر والفن . واستمتع عبد الرحمن الثاني بثهار هذا الرخاء ؛ فقد اتسع وقته ، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده ، وقمعه للثورات التي كان يشها النورمان على سواحل يقوم بها رعاياه ، وصد الغارات التي كان يشها النورمان على سواحل بلاده ، اتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد ، وإجزال العطاء بلاده ، وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة لينة ربما كان لها بعض الأثر فيا حدث بعده من اضطراب اجتماعي .

وكان عبد الرحمن الثالث (٩٦١ – ٩٦١) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بني أمية في أسپانيا ؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو في الحادية والعشرين

من عمره ، ووجد الأندلس تمزقها الانقسات العنصرية ، والأحقاد الدينية ، واضطراب حبل الأمن ، ومساعى أشبيلية وطليطلة للاستقلال عن قرطبة . وقبض عبد الرحمن ، رغم ما اتصف به من دمائه الخلق وبرقة الحاشية ، واشتهاره بالكرم والحجاملة ، على زمام الموقف بيد من حديد وقمع فتنة المدن الثائرة، وأخضع أشراف العرب الذين أرادو اأن يحذو حذو معاصر يهم الفرنسيين ، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية ، ودعا إلى بلاطه رجالًا من مختلف الأديان كان يستشيرهم في شئون الحكم ؛ وعقد المحالفات التي يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه ، وأدار شئون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور ، لا يقلان عما كان يتصف به ناپليون في هذه الناحية ي وكان هو الذي يضع الخطط الحربية لقواده ، وكثيراً ما كان ينزل إلى. ميدان القتال بنفسه ؟ وصد غزوة سانكوصاحب نبره Sancho of Navarra ميدان واستولى على عاصمته ودمرها ، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى فى أثناء حكمه . ولما رأى فى عام ٩٢٩ أن له من القوة . ما لا يقل عن أى حاكم فى زمانه ، وأدرك أن الحليفة العباسى فى بغداد قد. أصبح ألعوبة في أيدى الحرس التركي ، اتخذ لنفسه لةب خليفة ــ وأمر المؤمنين ، وحامى حمى الدين . وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتمها بخط لده قدر فها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه : « مضت خسون ُ سنة مذ توليت الحلاقة فتمتعت بما لا يزيد عليه شيء من الثراء والمجلد والنعم ، فاحترمني الملوك وخافوني وحسلوني وحباني الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان ، فأحصيت أيام السرور التي صفت لى دون تكدير فى هذه المدة، الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ه (*)(٢٩).

^(*) من كتاب نفح الطيب في خصن الأندلس الرطيب المقرى . (المترجم)

وأفاد ابنه الحكم الثانى (971 – 971) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الحمسين التى حكمها أبوه بحزم وجدارة ، والتى لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة ، وكان فى أثناء حكمه آمناً من الحطر الحارجي ، والفتن الداخلية ، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن ؛ وأنشأ فيها المساجد ، والمدارس الكبرى ، والبيارستانات ، والأسواق ، والحمات العامة ، وملاجي الفقراء (٢٠) ، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعلم فى زمانه ؛ وأبجزل العطاء لمثات الشعراء والفنانين والعلماء . وفيه يقول المقرى المؤرخ الإسلامى :

وكان (الحليفة الحكم) عبا للعلوم مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . . . إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقا أنافقة جلبت بإليه بضائعه من كل قطر . . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . ويعث في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهائي حوكان نسبه في بني أمية — وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق (*)

وبيناكان الحليفة العالم يعنى بمسرات الحياة ونعيمها ، كان يترك تصريف شئون الحكم ، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره البهودى القدير حسداى ابن شيروط ، ويترك قيادة الحيوش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الحيالية المسيخية . وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور ، أما اسمه الحقيقي فهو محمد بن أبي عامر

^(*) النص منقول عن نفح الطيب . (المترجم)

وهو ينتمي إلى أسرة عربية عريقة النسب ولكنها قليلة النراء . وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالب إلى الخليفة ، ثم أصبح كاتباً في ديوان قاضي القضاة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره في عام ٩٦٧ اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم . ثم تقرب إلى الملكة صبح أم الغلام ، وفتنها بمجاملتها والثناء عليها ، وأثر فيها بجدء وكفايته ، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملأكها وأملاك ولدها ، ولم يمض عام واحد حتى عين مديرا لدار الضرب. ومن ذلك الوقت أصبح سخيا على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يتهمونه بالارتشاء والخيانة . واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما اوتمن عليه من المال ، وعرف ابن أبي عامر أن المال الذي في عهدته سيكون ناقصا فطلب إلى صديق له غنى أن يقرضه قيمة العجز ؛ ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح. القوى ، وواجه به من اتهموه ، وانتصر عليهم انتصاراً حمل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه الملك الكثير . ولما مات الحكم أفلح ابن أبي. عامر فی تنصیب هشام الثانی ابن الحکم خلیفة (۹۷۲_۹۷۹) و (۱۰۱۰ - ١٠١٣) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه في الحلافة ، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة(٣٢) .

وكانهشام الثانى رجلا ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة ، ولذلك كان ابن أبي عامر هو الحليفة في كل شيء ما عدا الاسم ، واتهمه أعداؤه بحق بأنه يحب الفلسفة أكثر مما يحب الدين الإسلامي ؛ وأراد أن يلجم السنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التي تخالف مذهب أهل السنة ، وأن يحرقوا هذه الكتب ، ومهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بين الناس بالتي والصلاح . وضم في الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته في السر على الفلاسفة ، وأخذ يرحب بالأدباء في بلاطه ، وآوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم.

مرتبات من بيت المال ، وكان هؤلاء الشعراء يسرون في ركابه جين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته . وشاد مدينة جديدة هي مدينة الزاهرة في شرق قرطبة ضمت قصره ، ومكاتب الإدارة ؛ أما الحليفة الذي عنى بتدريبه على الانهماك في الفلسفة فقد بني مهملا يكاد يكون سجيناً في القصر الملكي القديم . وأراد ابن أبي عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة الربر والمسيحين الذين كانوا يكرهون العرب ، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً ، ولكنهم كانوا يجزونه على سخائه ، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً . وبلا أن ساعدت ولاية ليون العون هزيمة المسيحية ثورة قامت عليه في بلاده ، فتك بالثوار ، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة ، وعاد منتصراً إلى عاصمته ؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور . وكثرت المؤامرات عليه ، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الحاسوسية والاغتيال في الوقت المناسب ؛ ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات ، وافتضح أمره قطع رأسه . وكان المنصور مثل صلا الروماني لا يترك محسناً إلا أثابه ولامسيناً إلا انتهم منه .

وغفرالناس له جرائمه لأنه قع جرائم غيره ، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء ، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال في قرطبة أعظم أمنا في وقت من الأوقات مماكانتا في أيامه ، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بثباته ، ومثابرته ، وفطنته ، وشجاعته . وحدث في يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم في ساقه ؛ فأمر باستدعاء الطبيب ، ولما حضر أشار بكيها بالنار . فلم يغص المنصور المجلس ، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه ما يدل على ألمه . ويقول المقرى: إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق (***)(۲۲) . وكان ممافعاء أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجك

^(﴿) هذا هو النص ثنقله عن المقرى : ﴿ إِنْ المنصور كَانَ بِهُ دَاءٌ فَى رَجِلُهُ وَاحْتَاحَ إِلَىٰ اللَّكِي ، فأمر اللَّذِي يكويه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعــــل يأمر

قرطبة واستخدم فی توسیعه أسری المسیحیین ، واشترك هو بنفسه فی أعمال البناء بفاسه ، و بجرفه ، و مستجته (**) ، و منشاره . و أدرك أن الحاكم الذی ینتصر فی الحروب ، عادلة كانت أو ظالمة ، یعلو شأنه بین معاصریه و بین الأجیال المستقبلة ، و لهذا شن الحرب من جدید علی لیون ، و استولی علی عاصمها و دمر ها و ذبح أهلها . و كان فی ربیع كل عام تقریباً یسیر علی رأس حلة جدیدة لمحاربة الأقالیم الشهالیة المسیحیة ؛ وقد عاد من هذه الحملات جمیعها بلا استفناء مكللا بالنصر . من ذلك أنه لما استولی فی عام ۱۹۷۷ علی مدینة سنتیاجو ده كمیسستیلا Santiago de Compstela ، و دمر ضریح مدینة سنتیاجو ده كمیسستیلا و الاسری المسیحیین علی أن مجملوا أبواب الكنیسة و أجراسها علی أكتافهم فی موكب نصره حتی دخل قرطبة (۱۳۰۰) . الكنیسة و أجراسها علی أكتافهم فی موكب نصره حتی دخل قرطبة (۱۳۰۰) . الحرب المسلمین) .

ولم يقنع المنصور بماكان له فى بلاد الأندلس الإسلامية من مقام ، وإن كان فى الواقع سيدها بلا منازع ، بل كان يتوق إلى أن يكون سيدها اسما وفعلا ، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة . فنى عام ٩٩١ تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك ، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكما مطلقاً . وكان يرغب فى أن يموت فى ميدان القتال ، ويعد العدة بالفعل لهذه الحاتمة ، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ معه كفنه ، وقد غزا فشتالة فى عام ١٠٠٧ وهو وقتئذ فى الحادية والستين من عمره ، واستولى على مدنها ، ودمر أديرتها ، وخرب حقولها ، ثم مرض فى طريق العودة على مدنها ، ودمر أديرتها ، وخرب حقولها ، ثم مرض فى طريق العودة اللى بلاده ، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به ، واستدعى إليه ابنه

ویمهی ، و یقری القری فی أموره و رجله تكوی ، و الناس لا یشمرون حتی شموا رائحة الجله
 و اللحم ، فتعجبوا من ذاك و هو غیر مكترث . (المترجم)
 المستجنّة : خشبة یطین بها . (المترجم)

وأخبره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين ، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستبهار يعد قليل(٣٠) . وقد صدقت النبوءة فانهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ .

وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور ، فام يكن أمراوها يجلسون على العرش إلازمناً قصيرا ، وكثرت بينهم حوادث الاغتيال، والمنازعات العنصرية ، وحروب الطبقات ؛ ورأى الىربر أنهم محتقرون فقراء فى الدولة التى أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم ، وأنهم قد طوح مهم إلى بطاح استرمادوره Estremadura القاحلة أو جبال ليون الباردة ، فثروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين . وكان عمال المدن المستخلُّون يحقدون على من يستغلونهم ، فكانوا يخرجون علمهم ويقتلونهم ويستبدلون بهم غيرهم . وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة الحاكمة أسرة ابن أبي عامر التي كادت في عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة . ومات عبد الملك في عام ١٠٠٨ وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحن ، وكان عبد الرحن رجلا مستهتر أ يشرب الحمر علناً ولا يتورع عن ارتكاب الحطايا ، يفضل اللهو على النظر في شئون الحكم ، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة اشتركت فيها جميع الأحزاب تقريباً ـ وأفلت الزمام من أيدى زعماء الثورة فنهبت الجاهىر قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها ؛ وفي عام ١٠١٢ استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب ، وذبحوا نصف أهلها ، وطردوا النصف الباقئ مها ، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية . يهذه الفقرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية .

لكن الحماسة التى تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذى يتطلبه البناء والتعمير . فنى أثناء حكم اليربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب، وزاد عدد المتعطلين؛ وخرجت على قرطية المدائن الحاضعة لها ومنعت

عبد الخراج، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها في ضياعهم . لكن من بقي في قرطية من العرب أنحلوا ينتعشون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا حل عام ١٠٢٣ طردوا البربر من العاصة وأجلسوا على العرش عبد الرحن الحامس ، غير أن العامة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى غير من العودة إلى العهد القديم ، فاستولوا على القصر وبايعوا بالحلافة محمداً المستكنى أحد زماتهم (١٠٢٣) . وعين محمد أحد عال النسيج وزيراً له ، ثم اغتيل هذا الوزير ، ودس السم للخليفة الشعبي ، ثم الحدت الطبقتان العليا والوسطى وبايعت بالحلافة هشاما الثالث (١٠٢٧) . وجاء دور الجيش بعد أربع سنين ، فقتل وزير هشام ، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الحلاقة ؛ وعقد مجلس من أصحاب الرأى في المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على وأحل مجلس من أصحاب الرأى في المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على وأحل مجلس على المحكم الصالح غير مستطاع ، فألغى الحلافة الأندلسية ، وأحل مجلها مجلساً للدولة ، واختير ابن جهور رئيساً لهذا المجلس فحكم المحكم والحكة .

لكن هذا جاء بعد فوات الأوان ، أى بعد أن اضمحلت السلطة السياسية وقضى على الزعامة الثقافية فى قرطبة ، فوصلت بذلك إلى حال لا يرجى مها شفاء . وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية ففره المن و جوهرة العالم إلى بلاط طليطلة ، وغرناطة ، وأشبيلية . واقتسم بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلهم الدسائس والمنازعات في بينهم عن إغارة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت فى واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت فى حكم الحاحام صويل هليفي Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم السماعيل بن نغرلة . واستقلت طليطلة عن قرطبة فى عام ١٠٣٥ . ثم خضعت لحكم المسيحين بعد خسمن عاماً من امنتقلالها .

وورثت أشبيلية مجد قرطبة ، وكان بعضهم يظها خبر آمن العاصمة القديمة وأجمل منها ؛ وكانالناس يحبونها لجمال حدائقها ، وتخيلها ، وورودها ، وما فيها

من مرح دائم ، ومؤسيقي ، ورقص ، وغناء . وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هي وأعلنت استقلالها في عام ١٠٢٣ ، وعثر أبو القاسم عمد قاضى قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثانى فنادى به خليفة ، وآواه وأمسك هو بزمامه ، وأقنع بلنسية ، وطرطوشة وقرطبة تقسها بمبايعته . وجاله الطريقة السهلة أقام قاضى القضاة الداهية أسرة بني عباد القصيرة الأجل . -ولما مات في عام ١٠٤٢ خلفه أينه عباد المعتضد وحكم أشبيلية بمهارة وقسوة مدة سبع وعشرين سنة ، وأخد يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدى له الجزية . وورث الملك من بعد ابنه المعتمد (۱۰۲۸ ــ ۱۰۹۱) وهو فی السادسة عشرة من عمره ، ولکنه لم يرث عنه مُظامَعِه ولا قسوته . وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس ، يفضل عجالس الشعراء والموسيقين على مجالس الساسة وقواد الجند ، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء ، ولا يحسدهم على تفوقهم ، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار (٢٦) . وكان يحب شعر ابن عمار ه ولذلك انخذه وزيراً له ، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر ، فابتاعها ، وتزوجها ، وظل حتى وفاته يحبها حبًّا شديدا ، وإن لم يهمل غير ها من الغانيات في قصره . وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها ، وأحاطت سيدها بجو من المرح ، جعل رجال الدين يلومونها على عدم اكتراث زوجها بشئون الدين ، وما آلت إليه مساجد المدينة التي أوشكت أن تخلو من المصلين . لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم ، وأن يحب ، وبغني ، فلما أن هاجت طليطلة مدينة قرطبة ، واستغاثت قرطبة به ، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة ، وأخضعتها لأشبيلية . وحمل الملك ــ الشاعر مدى جيل كامل مليء بالقلاقل لواء حضارة لا تقل ازدهارا عن حضارة بغداد في أيام هرون الرشيد ، وحضارة قرطبة في عهد النصور.

٢ ــ الحضارة فى بلاد الأندلس الإسلامية "

لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب ١(٢٧). ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم (**) قد يتطلب تحمسه شيئًا من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن فنقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك كَاتْمَا صحيحاً. لسنا ننكر أن الأمراء والحلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التي يرى ميكڤلي أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها ، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت في بعض الأحيان ٰ إلى حد الهمجية وغلظة القلب ، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار فى جماجم الموتى من أعدائه ؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانه آخر الأمر^(٢٨) . ولكن المقرى يورد فى مقابل هذه الأمثلة النادرة مثات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودماثة أخلاقهم (٢٩٠). وهم لا يقلون في هذه الصفات عن أباطرة الروم في زمانهم ، وما من شك في أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة في العالم الغربي ؛ فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام . وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدى موظفين مُهُم (٤٠) . وكان في المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق ، والمكاييل ، والموازين ، رقابة محكمة ؛ وكانت الحكومة . تقوم بإحصاء عام للسكان والأملاك في فترات منظمة ؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها رومة أو بيزنطية . وبلغت

 ⁽ه) هو استاذلي لين پول ، وذلك القول منقول عن كتابه « حكم المسلمين في أسپانيا » .
 (المترجم)

وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهلااللاد . ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب ، والتي كان يمتلكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع (٩٣) . ولكن القوى التي كانت في هذه القرون تعمل لتثبيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها في أسبانيا أيضاً ، وإن لقيت فيها من المقاومة أشد مما لقيته في فرنسا ؛ فقد امتلك العرب بدور هم مساحات و اسعة من الأراضي ، وكان يقوم بزرعها مستأجرون قريبو الشبه برقيقالأرض . وكان العبيد يلقون علىأيدى المسلمين معاملة أحسن قليلا من التي كانوا يلقونها على أيدى سادتهم الأولىن (٢٤). وكان في مقدور عبيد غير المسلمين أن يتحررو امن الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام ، وكان العرب في معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يستُعينون بأحدث ما ألف من الكتب في علومها ، وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم في أسبانيا من التقدم أكثر بما بلغته في أوربا المسيحية (١٠٠٠) . واستبدل بالثيران البطيئة الحركة ، التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت في جميع أنحاء أسبانيا للحرث والجر ، البغال ، والحمىر ، والحيل . وأدى تهجمن السلالات الأسبانية والعربية من ألخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التي كان يمتطها فرسان العرب وكبلير و Caballero (فرسان)الأسبان ، ونقلت بلاد الأنداس الإسلامية من آسية زراعة الأرز ، والحنطة السوداء (**) ، وقصب السكر ، والرمان ، والقطن ، والسبانخ ، والأسفرج (***) ، والموز ، والكراز ، والبرتقال ، والميمون ، وكانت زراعة والتين ، والشليك ، والزنجبيل ، والمر وصناعة الحرير (٢٠٠) . وكانت زراعة الكروم من الأعمال الكرى في بلاد الأندلس ، وإن كان الدين الإسلامي يحرم الحمر . وأحالت حدائق الحضر ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفاكهة مساحات من الأندلس . وخاصة حول قرطبة وغرناطة ، وبلنسية – جنات على الأرض . كما استحالت جزيرة ميورقة Majorca ، التي فتحها العرب في القرن الثامن بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التي سميت الجزيرة باسمها فيا بعد .

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب، والفضة ، والقصدير ، والنحاس، والحديد ، والرصاص ، والشب ، والكبريت ، والزئبق . وكان المرجان يستخرج من البحر على طول سواحل أسپانيا ، كما كان اللؤلؤ يصطاد قرب سواحل قطلونية ، وكان الياقوب يستخرج من مناجم حول باجة ومالقة . وتقدمت الصناعات المعدنية في البلاد تقدما عظها ، فاشتهرت مرسية بمصنوعاتها من الحديد والشهان ، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف ، وقرطبة بالدوع . وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية ، فكانت قرطبة تصنع الجلد القرطبي الذي يستخدمه الحذاءون في أوربا المعروفون باسم Cordovan نسبة إلى ها لجلد القرطبي مكان في كل مكان يقبلون بالمرقبة وحدها ، وكان في مكان المشترون في كل مكان يقبلون

^(*) نبات ينمو في ألمانيا وبريطانيا وتتخذ حبوبه طعاماً للخيل، والماشية، والدجاج؛ والكمك المصنوع من دقيقه طعام شهى على موائد الفطور الأمريكية. (ويسمى بالإنجليزية buckwheat) (المترجم)

ر هو بالإنجليزية (هو) نبات تتخذ براهيمه الصغيرة طعاماً شهياً ويسميه ابن سينا اسفرض وهو بالإنجليزية (هو). Asparagus

على شراء السجاجيد ، والوسائد ، والسجف الحريرية ، والشيلان ، والأرائك الأندلسية . ويقول المقرى (٢٨٥) إن ابن فرناس القرطبي الحترع في القرن التاسع الميلادي النظارات ، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ، كما الحرع آلة طائرة . وكان أسطول مجاري يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآمية ، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر وثغر تزدح بها مرافئ برشلونة ، والمرية ، وقرطاجنة ، ويلنسية ، ومالقة ، وقادس ، وأشبيلية . وأنشأت الحكومة نظاماً للريد ينقل رسائلها بانتظام . واحتفظت العملة الرحمية بأجزائها — الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، والفلس النحاسي ، — بثياتها واستقرارها النسي ، إذا قارناها بعملة العالم المسيحي اللاتيني في آيامها ، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت بعملة العالم المسيحي اللاتيني في آيامها ، وقوتها الشرائية .

وسار الاستغلال الاقتصادى فى هذه البلاد سرته فى البلاد الأخرى ، فاستحوذ العرب أصحاب الضياع الواسعة ، والتجار الذين كانوا يغتصرون المنتج والمستهلك على السواء ، على خيرات الأرض . وكان معظم الأغنياء يعيشون فى الريف فى بيوت ذات حدائق ، ويتركون المدن الكبرى للربر ، واللدين أسلموا من المسيخين ، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسين اللذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولفة الحديث) ، وإلى طائفة قليلة العدد من الحصيان ، والضباط والحراس الصقالبة ، والعبيد خشم البيوت . وأحس الحلفاء فى قرطية يعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادى من غير أن يضعفوا روح المفامرة فوقفوا بين هذا وذاك بتخصيص ربع غلات أرضهم لموتة الفقراء (و الفيون) .

وكان استمساك الطبقات المعدمة بدينها وتشددها في عقائدهما سبباً في زيادة سلطان الفقهاء أي علماء الشريعة الإسلامية ؛ وكان العامة ينفرون من كل جديد (١١ - ج ٢ - علد ؛)

في العقائلة أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين ، والمفكرين(*) يخفون رؤوسهم في معظم الأجوالي ، وينزوون في البيوت أو يلجاون إلى الغموض في الأقوال . وكنت أفواه القلاسفة ، أو اضطروا إلى الجهر باراء تقبلها جمهرة الناس ومحشرمها . وكان الموت جزاء من يرتد عن دين الإسلام . نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالا ذوى آراء حرة ، ولكنهم كانوا يظنون أن الحلفاء الفاطميين فى مصر يتخذون العلماء المتنقلين عيوناً عليهم ، ولهذا كانوا ينضمون في بعض الأحيان إلى الفقهاء في التضييق على التفكير الحر المستقل . لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة . وإذا كان اليهود الذين' اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين في فتوحهم ، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثاني عشر مع المسلمين الفاتحين في أمن ووثام ، وأثروا ، وبرعوا في العلوم والمعارف ، وارتقوا في بعض الأحيان إلى مناصب عالية في الحكومة . أما المسيحيون فكانت تعترضهم في سبيل الرق في مناصب اللولة عقبات أكثر مما يعترض البود ، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا ينجاح عظيم . وكان المسحبون اللَّذَكُور ، كالذَّكور من سائر الآديان ، يرخمون على الحتان بوصفه وسيلة يحكمون بمقتصى شريعتهم القوطية الرومانية ينفذها فهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم (٥٠٠) . وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحين يؤدون ضريبة الفرضة (*** نظير إعفائهم من الجدمة العسكرية ؛ وكان مقدارها في العادة ثمانية وأربعين درهما (٧٤ ريالا أمريكياً) للغنى ، وأربعة وعشرين للمتوسط الثراء ، واثني عشر درهماً لمن يعمل بيده (٥١) . وكان المسلمون

^(*) لا ندرى كيت يتفق هذا القول مع ظهور كيار الفلاسفة أمثال ابن رشد في بلاد الأقداس نفسها . ولسنا نشك في أن المؤلف بقد خاته التوقيق في هذا الحكم . (المترجم) (* *) في الأصل الإنجليزي ضربية الأراضي الزراعية وهو بلا شك مهو من المؤلف . (المترجم) .

والمسيحيون يتزاوجون فيا بينهم بكامل حريبهم ، ويش كون من حين إلى حين في الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً (٥٠) ، وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا « الحريم » أو مارسوا اللواط(٥٠) ، وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريبهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوربا المسيحية إلى قرطبة ، أو طليطلة ، أو إشبيلية طلابا للعلم ، أو زائرين ، أو مسافرين . وقد شكا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ الهود بالصبغة اليونانية فيقول :

لكن هذه الصورة الجميلة كان لها وجه آخر أخد رزداد وقتا ما على مر الأيام. ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة ، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحرارا . فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابى فى مقاومة الفاتحين ؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرم بناء كنائس جديدة . وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

الأساقفة وعزلم ، وحق دعوة المجالس الكنيسة نفسها إلى الانعقاد : وكان من الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يؤدون فيها أغلى الأثمان ، ولو كان من يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين في الدين ، وكان القساوسة المسيحيون يتعرضون أحيانا الشتائم من المسلمين في الشوارع ، وكان فقهاء المسلمين يعلقون بكامل حريبهم على ما يبدو لهم أنه سخافات وأباطيل في الدين المسيحي ، ولكن المسيحين الذين يردون علمهم بمشل أقوالهم كانوا يتعرضون للخطر :

وفى هذه العلاقات المتوترة قد تؤدى أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة . مثال ذلك أن فتاة حسناء من فثيات قرطبة ، معروفة لدينا باسم فلورا Flora فحسب، ولدت لأبوين من دينين مختلفين ، فلما توفى أبوها المسلم اعترمت أن تعتنق الدين المسيحي، وفرتُ من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين، واكن أخاها للبض عليها وضربها ، وأصرت الفتاة على الارتداد عن دين أيبها ، وسيقت إلى إحدى المحاكم الإسلامية . وأمر القاضي بضربها وإن كان في مقدوره أن يحكم بإعدامها . ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحى حيث التقتُ بقس شاب يدعى أولوچيوس Eulogius أحمها حبًّا روحيًّا عارمًا . ربينا كانت الفناة مختبئة في أحد الأديرة ، إذ قتل قس آخر يدعى پرفكتوس Pcriectos ، لأنه تكلم في حسق النبي محمد أمام بعض المسلمين ؛ وقد وعدوه بألا يشوا به ، ولكن أقواله بلغت من العنف ورجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاة الأمور . وكان في وسع پروفكتوس أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال ، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر أمام القاضي قوله إن محمداً كان وخادماً للشيطان ، فما كان من القاضي إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله ؛ ولكنه لم ينصلح، وتمادى فى أقواله فحكم عليه بالإعدام . وظل وهو يساق إلى المشنقة يسب النبي ، ويقول: إنه « مدع ، زان ، ولدته جهم » (** ، وابتهج المسلمون بمقتله ، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالا مهيباً ، وعدوه من القديسين (٨٥٠) (*** (٨٥٠) .

وأشعل مقتله نيران الحقد في قلوب الطائفتين. فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولچيوس وجعلت هدفها سب النبي علناً ، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصهر من يقتل من أفرادها هو الجنة . وذهب راهب قرطبي يدعى إسحق إلى القاضي وعرض عليه رغبته في اعتناق الإسلام ؛ وسر القاضي من هذا وبدأ يشرح له مبادى الدين الإسلامي ، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال ﴿ إِنْ نَبِيكُمْ قَدْ كَذَبِ عَلَيْكُمْ وَخَدْعُكُمْ } ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم ١٥ فزجره القاضي وسأله هل هو ثمل ؟ فرد عليه الراهب بقوله : « إنى مالك لقواى فاحكم على" بالإعدام » فأمر القاضى بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثاني بأن يخرجه على أن بعقله خبالا ، غير أن موكب جنازة پرفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر يإعدام الراهب. وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندى من الفرنجة في حرس القصر على سب النبي علناً ؛ فكان جزاوه الإعدام . وفي يوم الأحد التالي وقف ستة من الرهبان أمام القاضى وسبوا النبي ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام فحسب بل طِلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب، فحكم عليهم بالإعدام، وحذا حذوهم قس ، وشهاس ، وراهب . وابتهج لذلك أفراد الجاعة

^(﴿) لقد أثبتنا هذه الألفاط وما قبلها كما هي رغم ما فيها من تطاول على مقام اشرف الأنبياء لكي يقدر القارئ شناعة الجرم الذي ارتكبه قائلها . (المترجم)

^(**) وايس أدل على روح التسامح التي كانت تسود ذلك العصر من سماح المسلمين لمواطنيهم المسيحيين بالاحتفال بدفن هدا القس الذي سب نبيهم بأقبح الأملفاظ احتفالا فخم مهيها كا يقول مؤلف الكتاب . (المترجم)

ولكن كثيرين من المسيحين - من رجال الدين وغير رجال الدين - للم يرضوا عن هذا التسابق الموت ، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة و إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ، ولا يضطهدنا ، فما الداعي إذن إلى هذا التعصب الشديد ؟ ٥٠٥٠ ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين ، وهددهم يأن يتخذ ضدهم إجراءات صنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن ، فما كان من يولچيوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالحين.

وزادت هذه الحركة من تحمس فلورا ، فغادرت الدير الذي كانت تقيم فيه وجاءت هي وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضي وأخذتا تطعنان على النبي وتقولان : إن الإسلام من « اختراع الشيطان » فأمر القاضي يسجهما . وحلهما بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما ، ولكن يولچيوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل ، فقتلا. وشجع هذا يولچيوس فأخذ يطالب بضحايا جدد ، فأقبل على الحكمة قساوسة ، ورهبان ، ونساء يسبون النبي ويطلبون أن يعلموا(ه) (٨٥٢) ، وأعدم يولچيوس تفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من دلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع اللهب والقتل ، ولم نسمع بين على حوادث أخرى من هذا النوع في أثناء الحكم السب والقتل ، ولم نسمع من حوادث أخرى من هذا النوع في أثناء الحكم الإسلامي في أسيانيا (٢٠٠) .

⁽و) ليس أدل على تسامح الحكام المسلمين من سلوكهم فى أثناء هذه الحركة ، وعدم التجائهم إلى قمعها دفعة واحدة ، واكتفائهم بالحكم على من يتقدمون إلى القضاة ليطمنوا فى الدين ويسبوا الرسول . ترى ماذا يكون موقف أية حكومة من الحكومات الغربية فى هذه الآيام لو تألقت مثل هذه الجاعة لهذا الغرض ؟ إن أقل ما كانت تفغله بلا ريب هو أن تقبض على جميح أفراد الجمعية وتزجهم فى السجن وتستأصل الفتنة من جلورها . وخليق بنا أن نشير إلى ما اتبعه الأسهنيون أفلمهم مع المسلمين بعد أن طرد العرب من أسپانيا وإلى ما لقيه المسلمون من مسوة و تعديب همچى و عمل متواصل لهو جميع الآثار الإسلامية فى العلوم والفنون والآداب .:

أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الجاسة الدينية يازدياد الثراء ، وظهرت في القرن الحادي عشر الميلادي موجة من النشكل رغم ما في الشريعة الإسلامية من شدة على المتشككين ؛ ولم يقتصر الأمر على دخول مبادئ المعتزلة التي لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة ، بل قامت طائفة أخرى تنادى بأن الأديان كلها باطلة ، وتسخر بالأحكام الدينية ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة . ونشأت طائفة أخرى غير هذه وتلك سمت نفسها أتباع الدين العالمي ، وأخذت تندد بكل العقائد ، وتنادى بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها . وكان من بين هوالاء جماعة من اللاأدرين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون ، فلسنا نو كدها أو ننكرها ، وكل ما في الأمر أننا لا نعرف حقيقتها ، ولكننا لا تسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائله لا نستطيع إثبات صمها(١١) . وأخذ رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية ؛ ولما أن حلت المصائب بالمسلمين في أسيانيا في القرن الحادي عشر أخلوا يقولون إن سبها هو هذا الضلال ، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت في الأندلس مرة أخرى ، كانُ انتعاشهم في عهد حكام أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد الدين ، وقصروا الحدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه فى بلاطهم وما يبتغون به تسليهم .

ولكن القباب المتلألثة والمآذن المذهبة كأنت على الرغم من الفلاسفة زينة المدائن الكبيرة والصغيرة التى جعلت بلاد الأندلس في القرن العاشر الميلادي أعظم البلاد المتحضرة في أوربا ، بل إنها كانت في أغلب الظن أعظم البلاد المتحتضرة في العالم كله في ذلك الوقت . لقد كانت قرطبة في أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة ، ولا يفضلها في هذا إلا يغداد والقسطنطينية . وكان فها كما يقول المقرى ٧٧ و ٢٠٠٠ منز لا ، و ٢٠٠٠ و مرد ٢٠ قصر ، ١٠ مسجد ، و ١٠ مان وال كانتها ما عام ، وإن كانتها ه الإحصاءات لا تخلو من قليل من المغالاة الشرقية . وكان ذا الرو

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا ، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام ؛ فقد كان في وسع كل أسرة أن يكون لها حمار ؛ ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون . وكانت الشرارع مرصوفة ، لكل منها طواران على الجانبين ، تضاء أثناء الليل ، ويستطيع الإنسان أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المباني (٦٣٠) . وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادى الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خسون شراً . وكان من أولى منشئات عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من أماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدائق ، والفساقي والحامات ، واشتهرت ما المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدائق والمنزهات .

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه ، فأنشأ في قرطبة بستاناً عظيا شبهاً بالقصر الريني الذي قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق ، وشاد في هذا البستان قصره المعروف « بقصر الرصافة » ، وأضاف إليه من جاء بعده من الحلفاء أجنحة أخرى خلع عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة . . . وقصر المعشوق . . . وقصر المسلور . . . وقصر التاج (*) . وكان لقرطبة كما كان الإشبيلية قصرها السرور . . . وقصر التاج العظيم والحصن المتبع . ويصف مؤرخو العرب الذي يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المتبع . ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع في جمالها وترفها قصور نيرون في رومة : يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالفسيفساء ، يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالفسيفساء ، وسقفها المذهبة ، وما فيها من النقوش الجميلة التي لا يقدر عليها إلا الفن الإسلامي وحده . وكانت قصور الأسرة المالكة ، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه ثروة طائلة ، وأراد أن ينفقها في افتداء من عساهم يكونون في الأسر من الأسرة من المنائة ، وأراد أن ينفقها في افتداء من عساهم يكونون في الأسر من المترون في الأسر من المترون في الأسر من المنائة ، وأراد أن ينفقها في افتداء من عساهم يكونون في الأسر من

والكامل ، والمجدد ، والحائر ، والزاهر ، والمبارك ، والرستق ، والبديع .
 (المترجم)

جنوده ، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده في الأسر عرضت عليه الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال في بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها . وظل عشرة آلاف من العال وألف وخسمائة من الدواب يكدحون خمسة وعشرين عاما (٩٣٦ – ٩٦١) لتحقيق حلمها ، فكان قصر الزهراء الملكى الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبِها الغربي . وقد زين أفخم زينة وأثث بأفخم أثاث . وكان القصر يقوم على ألف وماثتي عمود من الرخام ، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة ، وكان يحتوى على بهو لمجلس الخليفة سقفه وجدرانه من الرخام والذهب، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكربمة ؛ وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المهاوجة . واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف والرقة ، وحسن الذوق ، وتعدد متعها العقلية . وأقام المنصور في الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصراً آخر يضارعه (٩٧٨) سمى بالزاهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العظاء ، وبيوت الخدم ، والمغنىن والعازفين ، والشعراء ، والخليلات . وقد حرق القصران فى أثناء الثورة التي تأجج لهيما في عام ١٠١٠ .

وكان الناس فى العادة يتغاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هو لا عبيوتا لله تفوق قصورهم فى الفخامة والسعة . وكان الرومان قلشادوا فى قرطبة هيكلا ليانوس تفوق قصورهم فى الفخامة والسعة . وكان الرومان قلشادوا فى قرطبة هيكلا ليانوس الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة ، وهدمها وشاد فى مكانها المسجد الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة فى عام الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة فى عام المحروب . و هكذا تتغير مقاييس التي ، والصدق ، و الجال تبعاً لتقلبات الحظ فى الحروب . وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته فى سنيه الكدرة ، فغادر بيت الريق إلى قصره فى المدينة ليشرف على العمل بنفسه ، وكان يأمل أن يطول عمره .

حتى يوم المصلين في المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه . لكنه توفي في عام ٧٨٨ ، بعد عامين من وضع الأساس ، وواصل ابنه هشام عمل أبيه ، وظل الحلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً المبسجد حتى كانت سعته في أيام المنصور (٧٤٧ قدما في ٤٧٧ . وكان يحيط به سور منبع من الآجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة ، وكانت له مأذنة ضخمة تفوق في حجمها وجمالها كل مآذن تلك الأيام ، حجى عدت هي الأخرى من « عجائب الدنيا » الى لا يحصى لها عدد (١٩) . • وكان للمسجد تسعة عشر بابا تحيط مها عقود على شكل حداء الفرس ، ونقشت علما في الحجر براعة فاثقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال مندسية . وكانت هذه الأبواب تؤدى إلى مكان الوضوء الفسيح الذي يسمى ·الآن بهو البرتقال (Patio de los Naranjos) . وفي هذا البهو الرباعي الشكل ، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكامها في المسجد سبعين ثوراً . وكان المسجد نفسه يحتوى على أجمة من ١٢٩٠ عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً . وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود محتلفة الأنواع ــ بعضها نصف دائری ، وبعضها مستدق ، وبعضها علی شکل حداء الفرس ، • ولمعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب . وكانت العمد من حجر اليشب ، والحجر السماقى ، والمرمر ، والرخام ، انتزعت من خواثب الرومان والقوط الغربيين في أسبانيا ، وكانت لكثرة عددها تحر الناظر وتوحى إليه بأن المسجّد لا ينتهى عند حد . وقد نقشت على السقفُ الحشبي آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات ، وعلق فيه ماثتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمده من خز انات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هي الأخرى من السقف، أما الأوض والجدران فقد زينت بالفسيفساء ، بعضها من الزجاج المطلى بالميناء ،

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية ، وكثيراً ما كانت تحتوى على قطع من الفضة والذهب . ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر في جدران الكنيسة . وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً ، ورصفت أرضه بالفضة وقطع القاشانى المطلية بالميناء ، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء ؛ وقامت عليه ثلاث قباب ، وأحيط بساتر من الحشب محلاة بأبدع النقوش . وفي داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهب من حذق وإبداع . وكان المحراب نفسه تجويفا سباعي الأضلاع محاطا بالذهب ومزدانا بالفسيفساء المطلية بالميناء ، ومزخرفا بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء ، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة ، والتعقود المزدانة بأزها الكُرَّة (*) لا يفوقها في الجال شيء مما أبدع الفن القوطي . وكان المنسر يعد أجمل منابر العالم طُرًّا ؟ وكان يؤلف من • • • ٧٠,٠٠٠ قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة ــ كلاَّبنوس ، والأترج ، وعود الند ، والصندل الأحر والأصفر ، مثبتة كلها بمسامىر من الذهب والفضة ، ومطعمة بالجواهر . وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزي المطوز بخيوط من الذهب بحمل مصحفاً بخط الحايفة عيَّان بن عفان ، وغضيا يدمه اللي جرى عليه عند مقتله . ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن المذهبة وبالنحاس يدل أن نحلي كنائسنا بالجواهر والذهب ، يبدو لنا أن في زخرنة المسجد الأزرق إسرافا كبراً ، وأن جدرانه قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة ؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة ، وأن العقد الذي على صورة حداء الفرس ضعيف من الناحية المعارية تنفر منه حاسة الجال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذي الساقين الفحجاوين (**). ذلك حكمنا أما غيرنا فكان

⁽ ه) حلية ممارية . (المترجم)

⁽ه.) الساق الفحجاء هي التي انحنت من وسطها فتباعد وسطها عن وسط صاحبتها (المترجم)

حَكَمَه يَنَاقَضَ هَذَا الْحَكُم ؛ فَالْقَرَى (١٥٩١ – ١٦٣٧) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر في سعته ، أو جمال تخطيطه ، أو نظام زخرفه الذي بشهد اللقائمين به بحسن اللوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة (١٥٠٠) ، ولا يزال البناء حتى في شكله المسيحى المصغر يعد (بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية في العالم كله ع (١٦٠) .

وكان من الأقوال المتداولة في بلاد الأندلس الإسلامية أنه ﴿ إذا مات علم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بةرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية ،(١٧) (*) : ذلك أن قرطبة كَانت في القرن العاشر موكز الحياة الذهنية الأسبانية وذروتها ، وإن اشبركت معها طليطلة ، وغرناطة ، وإشبيلية فيا وصل إليه ذلك العصر من رقى عقلى عظيم . ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهابلة العلماء في العلوم الطبيعية ، والأدبية ، وكبار المشترعين ، والأطباء ؛ ويملأ المقرى بأسمائهم ستين صيفة (١٨٠٠ . وكانت المدارس الابتلاثية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم ، ثم أضاف الحكم إلها سبعاً وعشرين مدرسة لتعلم أبناء الفقراء بالمجان . وكانت البنات يذهن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء ، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن^(١٩٦) ، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون مخاضراتهم فى المساجد ، وكانت المناهج التي يدرسونها هي التي كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك ، والتي لم يكن يفوقها في القرنين العاشر والحادى عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشبهتان سها . وأنشثت الكليات أيضاً في غرناطة ، وطليطلة ، وإشبيلية ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وقادُس(٧٠)

^(*) قبل هذا فى مناظرة جرت بين منصور بن عبد المؤمن وبين الفقيه العالم ابن رشد والرئيس أبى يكر بن زهر وقائله هو ابن رشد نفسه وقد قدم المؤلف عجز العبارة على صدرها .
(المترجم)

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتى كان في الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي ، وعبو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها . من ذلك أن الحضرمي أحد العلماء رأى في مزاه بقرطبة رجلا آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب ، ولما سئل المزايد الذي اقتناه في ذلك قال إن في مكتبته الحاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة . ويضيف فاغتاظ العالم من هذا القول أشد الاغتياظ ولم يسعه إلا أن يقول : « نعم لا يكون الرزق من هذا الاعند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له »(٧١)(*).

وكانت للعلماء فى الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشير ونهم فى شئونهم ، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة . وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالمئات ؛ أما الحطباء ، وفقهاء اللغة ، وأصحاب المعاجم ، والموسوعات ، ودواوين الشعر ، والمؤرخون ، وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد : وكان أبو محمد على بن حزم (١٩٩٤ – ١٠٦٤) من جهابذة علماء الدين والمؤرخين ، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين : ويعد كتابه المعروف بـ «كتاب الملل والنحل » (***) الذي يتكلم فيه على المهودية ،

^(﴿) ثُمْ أَضَافَ ؛ وأَنَا اللَّى أَعْلَمُ مَا فَى هَذَا الكَتَابُ وأَطْلَبُ الانتفاعُ بِه يَكُونُ الرزّقَ عندى قليلًا وتحول قلة ما بيدى بيني وبيئه . (المترجم)

^(﴿ ﴿ ﴾) اسم الكتاب كاملا هو ﴿ السيفَصُلُ فَى المَلْلُ وَالنَّهُ ﴾ والنحل ﴾ للإمام أبي محمد على ابن أحمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٩ ه وأما كتاب ﴿ المَلْلُ والنَّحْلُ ﴾ فللإمام أبي الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٤٩ ه . والفصل الواردة فى بدء اسم الكتاب الأول جمع فصلة بالكسر كقصمة وقصع وهي النخلة المنقولة من محلها إلى آخر لتشر ، هذا ولم نشر على الفقرة الواردة هنا بنصها فى كتاب ابن حزم ويبدو لنا أن دوزى الذى فقل عنه المؤلف قد أخذ ممناها من مواضع متفرقة من الكتاب ولهذا لم ثر بدا من ترجمها واستمسلنا ما عثر زا عليه من ألفاظ ابن حزم فى الفصل الذى تكلم فيه على النصارى . (المترجم) ما عثر زا عليه من ألفاظ ابن حزم فى الفصل الذى تكلم فيه على النصارى .

والزرادشتية ، والمسيحية ، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ماكتبه الأقدمون في علم الأديان المقارن . وإذا شئنا أن نعرف رأى العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية في العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب :

يجب ألا تثير أوهام بنى الإنسان عجبنا ، فإن أكثر الأمم عدداً ، وأعظمها محضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام . . . فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم إلا الله وحده . وفي وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهن ، ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، وإن أحد هو لاء الثلاثة الأب والثانى الابن ، وإن الإنسان إله وليس إلها ، وإن المسيح قديم موجود من الأزل ، ومع ذلك فهو مخلوق ، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة ، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بنى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلامدبر (٧٢) .

وكان ابن حزم يومن بأن كل كلمة وردت فى القرآن حق بنصها ومعناها (٧٣٠). وكان من أشد العوائق فى سبيل تقدم العلم والفلسفة فى بلاد الأندلس الخوف من أن يوثرا فى إيمان العامة ، لكن الأندلس تستطيع أن تفخر بكثير من الفلاسفة والعلماء. فن هولاء مسلمة بن أحمد (المتوفى فى عام ١٠٠٧) والذى عدل أزياج الحوارزمى الفلكية لتلائم أسپانيا . ومن الكتب التى تعزى إليه ، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة ، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التى حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة — وهى التجربة التى استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق . وأصبح اسم إبراهيم الزرقالي (١٠٢٩ – ١٠٨٧) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية ، لأنه حسن الآلات الفلكية ؛ وينقل كوبرنيق عقرات من رسالته عن الاسطرلاب ؛ وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها فى زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة فى التاريخ حركة الأوج كلها فى زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة فى التاريخ حركة الأوج الشمسى بالنسبة النجوم . وكانت وأزياج طليطلة » المحددة لحركات الكواكب

تستخدم فى كافة أنحاء أوربا ، وكان لأبى القاسم الزهراوى (٩٣٦ - ٩٠١) طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة فى العالم المسيحى ، وبعرف فيه باسم أبو الكاسس Abulcasis ، وكان هو حامل لواء الجراحين المسلمين ، وتحتوى موسوعته الطبية المسهاة و التصريف ، ثلاثة كتب فى الجراحة أصبحت بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى فى الجراحة قروناً كثيرة ، وكانت قرطبة فى ذلك الوقت المدينة التى يلجأ إليها الأوربيون لتجرى لهم الجراحات ، وكانت تحتوى ، كما تحتوى كل مدينة متمدينة ، على بعض المتطببين اللجالين ، والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة ، ومن هؤلاء رجل يسمى الحرافي أعلن عن دواء يشنى الاضطرابات المعوية ، وكان يبيع الزجاجة منه للسذج من ذوى المال بخمسين ديناراً (٥٧٧٥ ريال أمريكى) .

ويقول المقرى: «وسنمسك عن ذكر الشعراء اللين ظهروا في أيام هشام الثاني والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر و (٢٠٠٠)، وكان من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة في عام ١٠٨٧) ؛ والتي كان بينها في قرطبة ندوة حقة شبية بندوات عهد الاستنارة في فرنسا: فكان يلتف حولها الظرفاء، والعلماء، والشعراء؛ وقد أحبت عدداً كبيراً منهم، وكتبت عن عشاقها بحرية لو سمعت بها السيدة ريكمييه Mme Récamier لارتاعت لها. ولقد بزنها صديقتها مهجة القرطبية في جمال الجسم وخلاعة الشعر (٤٠٠٠). وكاد كل إنسان في الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً، يتطارح الشعر المرتجل مع غيره لأى سبب. وكان الجليفة نفسه يشترك في هذه المطارحات الشعرية ، وقلماً كان يوجد في البلاد أمير مسلم ليس في بلاطه شاعر يكرم و يخصص له راتب. وقد أدت هذه الرعاية المسكية إلى الشركما أدت إلى الخير . ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبلو فيسه

^(*) يصفها المقرى بقوله إنها من أجل قساء زمانها ولازمت قاديها وكانت من أخف النساء روحا . (المترجم)

التكلف والصناعة اللفظية ، والمحسنات ، وهو مثقل بالتشبيهات والاستعارات مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور . أما موضوعه فهو الحب الشهوانى والعذرى؛ وقد استبق الشعراء فى أسپانيا وفى الشرق الإسلامى أساليب شعراء الغزل فى عهد الفروسية Troubadors ، وطرقهم وفلسفتهم (٧٠) .

وسنختار من هذا العدد الجم نجما واحداً لامعاً هو سعيد بن جودى ابن صاحب الشرطة بقرطبة (**) . كان سعيد جندياً مقداماً كثير العشق ، يتصف بجميع الصفات التي تجعله في نظر المسلمين سميدعا أي سيداً كاملا بحق : فقد كان سخياً ، شجاعاً ، فارساً بارعا ، بهي الطلعة ، فصيح اللسان ، شاعراً ممتازاً ، قوى الجسم ، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة بالسيف ، والرمح ، والرمى بالقوس (٧٧) . ولم يكن يدرى في أي وقت من الأوقات أيهما أحب إليه – الحب أو الحرب . وكان يتأثر بلمس المرأة مهما ضعف ، ولذلك افتتن بكثير ات من النساء كان حب كل و احدة منهن يبشر بحب دائم لا ينقطع . وكان حب كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين الغزلين أشد ما يكون حين تندر روية الحبيب . وكانت أعظم قصائده الغزلية قصيدة وجهها إلى جيجان التي لم يرمنها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض . وكان أبيقوريا صريحا يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة أبيقوريا صريحا يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة أبيقوريا صريحا يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة أبيقوريا صريحا يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة أبيست هي الللة . ومن أقواله في هذا المعنى :

^(*) اسمه الكامل سعيد بن سليمان بن جودى ، و ترجعته فى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار طبعة دوزى ص ٨٣ وما بعدها .

ومن قوله في جيجان :

شمى أبي أن يكون الروح فى بدنى فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن أعطيت جيجان روحى عن تذكرها هـــذا ونم أرها يوما ونم ترفى كأنــنى واسمها والدمع منسكب من مقلى راهب صـــلى إلى وثن ويقال إنه نظر إلى جارية فاعتراها الحجل وأطرقت بعينها فقال :

أماثلة الألحاظ عسى إلى الأرض أهدا الذي تبدين ويحك عن بغض فإن كان بغضاً لست والله أهله ووجهى بداك اللحظ أولى من الأرض (المترجم)

لا شيء أملـــح ومن مناقلة كأساً على طبـــق ومن مواصلة من بعـــد معتبة ومن مراســـلة الاحباب بالحدق جريت جرى جـَموح فى الصباطلقا وماخر جـت لصرف الدهر عن طلتى ولا انثنيت لذاعى الموت يوم دعا ولا انثنيت وحبل الحب فى عنتى (٢٨) وكان زملاؤه فى الجندية يغضبون منه أحياباً لأنه يغوى أزواجهم ، وقد قبض عليه فى يوم ما أحد الضباط فى بيته وقتله (٨٩٧) .

وقد لتى شاعر آخر أعظم منه وألبل خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها بطولة ، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية . وكان كغيره من الملوك الصغار في بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدى الجزية إلى الفنسو السادس (الأذفنش) ملك قشتالة يشترى بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام . ولكن الرشا تترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشي متى طلب إليه الأداء . واستخدم ألفنسو المال الذي يأتيه من ضحيته في الانقضاض على طليطلة في عام ١٠٨٥ ؛ وأيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية . وكانت دويلات الأندلس وقنتذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحرومها فيما بينها إلى حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية ؛ ولكن أسرة إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هي أسرة المرابطين وقد (اشنق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين في الشمال الغربي من إفريقية) . وكان الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمساك الشديد بالدين ، ولم يكد يبنى فنها رجل غير جندى من جنود الله ؛ ولم تجد جيوشها صعوبة في الاستيلاء على مراكش بأجمعها . وتلتى في ذلك الوقت مليكها يوسف بن تلشفن ــ وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء ــ دعوة من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحي الضارى : فعر بوسف بجيشه مضيق جبل طارق ، وتلتى المدد من مالقة ، وغر ناطة ، وإشبيلية ،

والتتى بجيش ألفنسو عند الزلاقة القريبة من بطليوس (١٠٨٦). (بدچوز Badajoz): وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها: « إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم ، ويوم الأحد عيد عندنا ، ولهذا فإنى أقترح أن تدور المعركة في يوم السبت » . ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن . ألفنسو هجم على المسلمين في يوم الجمعة : وأظهر يوسف والمعشمد في الحرب كثيراً من ضروب البسالة ، واحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدذ كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسائة من رجاله من الموت إلا بشق كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس . ودهشت أسهانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغنم شيئاً .

ولكنه عاد بعد أربع سنين . وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضى على قوة ألفنسو الذى كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديده والتي يوسف بالمسبحيين في مواقع غير حاسمة ، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية . وزحب به الفقه اء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجديد على القديم ، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه في نظرهم يمثل الرجعية الدينية ، وابتهج رجال الدين بمقدمه . واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة ، واكتسب عبة أهلها بإلغاء جميع الضرائب التي لا ينص عليها القرآن (١٠٩٠) . وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيا بينهم حلفاً لمقاومته ، كما عقدوا حلفاً مقلساً ! مع ألفنسو . وحاصر يوسف قرطبة ، وأسلمها إليه أهلها ؛ ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المتعتمد دفاع حلفاً ، فحزن لموته حزنا الأبطال ، ورأى بعينيه ولده يقتل في الدفاع عنها ، فحزن لموته حزنا هد ركنه واستسلم للمحاصرين (على يوسف بن تاشفين ، وأصبحت أسپانيا الأسلامية ولاية تابعة لإفريقية ؛

⁽ه) المعروف أنه كان المعتمد ولدان هما المعتد بالله والراضى بالله وأنهما تتلا غيلة وله في وثائهما شعركثير. انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام المبرحوم الدكتور أحمد أمين . (المترجم)

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة ، وتلتى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصرى حوت أبيانا من الشعر يثنى فيها عليه ويسأله العطاء يه ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا فى ذلك الوقت أكثر من خسة وثلاثين ديناراً بعث بها إلى الحصرى واعتذر له عن قلتها () : ثم نقل المتعمد إلى أغمات القريبة من مدينة مراكش وعاش فيها بعض الوقت مكبلا بالأغلال ، فقيراً معدما ، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته مكبلا بالأغلال ، ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى فأجمل فى التصرف والطلاب ولا يغررك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهاب فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء من تراب (*)

^(*) الحصرى هو صاحب «زهر الآداب» وهو الذى استجدى ابن عباد فى منفاه ،. وكان فقيراً ، فأخذت ابن عباد أريحيته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطمة "يعتادر فيها عن قلة ما منحه واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : « إنه جرى مع المحمله على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف » وقد قال المعمد نفسه فى هذا المعنى .

^(﴿) هذه هي أقرب أبيات وجدناها في أشار المعتبد إلى الأصل الإنجليزى وقد يكون في الترجة الإنجليزية بعض التصرف الذي تحتبه ترجمة الشعر العربي إلى شعر إنجليزي .
(المترجم)

الباب *الباب البابع عنشر* عظمة المسلمين واضمحلالهم

1404 - 1.04

الفصل لا وَل

الشرق الإسلامى

170 - 1001

لما توق طغرل بك في عام ١٠٩٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ، ولم يكن ألب أرسلان وقتئد قد جاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان بلغ من طولها أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد ، وأن سهامه لم تخطئ مرماها قط . وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرف شاربه لاتقل عن ذراعين . وكان حاكماً قوياً ، عادلا ، كريما بوجه عام ، لايتواني عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب عادلا ، كثير البذل للفقراء . وكان يقضي جزءا كبيرا من وقته في مراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستاع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستاع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستاع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال دراسة تكشف عن أخلاقهم ، وأنظمة حكمهم وإدارتهم (١) .

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه ــ « البطل قلب الأسد » فقد فتح هراة ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، والشام . وحشد إمراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندى من مختلف الأجناس،

عنتل النظام ليلاقى به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ٠٠٠ و مقاتل ، فلما التقيا عرض القائد السلجوقى على عدوه صلحا معقولا ، وفضه رومانوس Romanus بازدراء ، واشتبك معه فى معركة عند منزيكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (١٠٧١) ، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء ، فهزم ووقع فى الأسر ، وجيء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه فى هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط . واكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة (٢) ، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان .

وكان ابنه ملك شاه (١٠٩٢ – ١٠٩٢) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينا كان قائده سليان يتم فتح آسية الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . وأسبغ وزيره القدير الوفى نظام الملك على البلاد فى عهده وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والمهاء كالذى أسبغه الرامكة على بغداد فى أيام هرون الرشيد . فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شئون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ؛ ويشجع الصناعة والتجارة ؛ ويصلح الطرق ، والجسور ، والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان صديقاً كريماً للفنان ، والشعراء ، والعلماء ؛ شاد المبانى الفخمة فى وكان صديقاً كريماً للفنان ، والشعراء ، والعلماء ؛ شاد المبانى الفخمة فى بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيبها فى الآفاق ، وأمر بإنشاء إبوان ويبدو أنه هوالذى أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكين لإصلاح التقوم الفارسي . وتقول قصة قديمة إن نظام الملك ، وعمر الخيام، وحسن بن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً معيى أن يواتى أى واحد منهم من حظ طيب . وأكبر الظن أن هذه القصة ،

كغيرها من القصص الطيبة ، من نسج الحيال ، لأن نظام الملك ولد فى عام. الحداد ، على حين أن عمر الحيام ، وحسن بن الصباح توفيا في بين عامى ١١٢٣ ، على حين أن أحدهما كان عامى المعمرين .

وكتب نظام الملك وهو في بين الخامسة والسبعين فلسفته في الحكم في كتاب من أكر الكتب في النثر الفارسي وهو كتاب سياسة ناما أي كتاب فن الحكم . وهو يوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الدين حق الحاكم المقدس وسلطانه . ولم يبخل على مليكه في الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال إن الحاكم يجب ألايفرط في الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الوظفون من فساد أوظلم ، ويعاقبهم عليه ؛ وأن يعقد بجلساً عاماً مرتبن في كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيا في حكمه ولكنه لم يكن من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيا في حكمه ولكنه لم يكن متساعاً في أمور الدين ؛ وهو يأسف لأن الدولة تستخدم في أعمالها المسبحيين والمهود والشبعة ، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة . وفي عام ١٩٩٧ اقترب منه أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمعروض ، وطعنه طعنة قضت عليه .

وكان هذا القاتل عضواً في طائفة من أعجب الطوائف في التاريح . وكان منشوها أن أحد زعماء الإسماعيلية – وهوالحسن بن الصباح الذي تجمع إحدى القصص المشكوك في صدقها بينه وبين عمر الحيام ، ونظام الملك – استولى على حصن ألموت (عش النسر) في الجزء الشهالي من إيران ، ومن هذا الحصن المنبع الذي يعلو عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حرباً عواناً من التقتيل

و الإرهاب على أعداء الشيعة ، وعلى الذين يضطهدون معتنقمها . وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة في كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعيين أهل فارس الساسانية . وكانت فى الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها ، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم « شيخ الجبل ، ، وكانت أدنى طبقاتها تشمل الفدائيين الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤساؤهم من الأوامر ، ويقول ماركو بولو Marco Polo الذي مر بألموت نفسها في عام ١٢٧١ إن زعيم الطائفة الأكبر أعد خلف الحصن حديقه جمع فيها كل ما في الجنة _ على حسب ما يعتقده عامة المسلمين ــ من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهن شهواتهن ، وإن الذين يريدون أن ينضموا إلى الطائفة كانوا يسقون الحشيش ، حتى إذا غابوا عن وعيهم جيء بهم إلى الحديقة ، فإذا عادوا إلى صوابهم قبِل لهم إنهم في الجنة . وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فها بالخمر والنساء ولذيذ الطعام ، يخدرون مرة أخرى بالحشيش ثم إينقلون من الحديقة ؛ فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التي كانوا فيها ، قيل لهم إنهم سيعادون إليها ويبقون فيها إلى أبد الدهرإذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا في خدمته (٤). وكان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون و الحشاشين ، أي الذين يشربون الحشيش ــ ومن هذه الكلمة اشتق لفظ Assassin الإفرنجي الذي يطلق على المغتال . وظل-حسن يحكم ألموت خمسا وثلاثينسنة ، وأحالهامركزآ الاغتيال والتعليم والفن . وظلت هذه الطائفة ياقية بعد وفاتهبز منطويل ، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة، وحاربت الصليبين ، ويقال إنها هي التي قتلت كنر اد المنتفر اتي Conrad of Monteferrat بتحريض رتشرد قلب الأسد^(ه). وفي عام ١٢٥٦ استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن ألموت وغيره من معاقل الحشاشين، وأخذت اللول والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم الأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

يعملون على خرابه وتدميره: ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية ه. وأضحوا على مرالاًيام مسالمين خليقين بالاحترام ؛ وفى الهند ، وفارس ، والشام ، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامة أغا خان. ويؤدون إليه عشر دخلهم (٢) .

وتوفى ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا ، وتفرق المسلمون فى أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبين بقوة متحدة . وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة فى أثناء حكمه الذى دام من ١١١٧ حتى ١١٥٧ ، وازدهرت فى أيامه الآداب بفضل تعضيده ومناصرته ؛ ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعون متقاتلون ، وقام فى الموصل أحد مماليك ملك شاه الأكراد وهو عاد الدين زنكى وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) فى عام ١١٢٧ ، وهى الأسرة التى حاربت الصليبين حرباً عواناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين . وفتح ابنه نور الدين عصود (١١٤٦ – ١١٧٣) بلاد الشام ، واتخذ دمشق عاصمة له ، وحكم أملاكه حكما عادلاحازماً ، وانتزع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة .

وكانت عوامل الانحلال ، التي أدت إلى خضوع الحلفاء العباسيين إلى سلطان بنى بويه والسلاجقة ، قد أدت بعد قرنين من تضعضع الحلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الحلفاء الفاطميين حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر في دولة يحكمها وزراؤهم قادة الجنود . وانغمس هؤلاء الحلفاء في اللهو والشهوات بين نسأتهم اللاتي لا يحصى عددهن ، وأحاطوا أنفسهم بالحصيان والعبيد ، وأفقدهم الترف والانغاس في الشهوات الجنسية صفات الرجولة ، فتركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون . وحدث في

عام ١١٦٤ أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين (على من القواد. واستعان أحداهما. وهو شاور على منافسه بنور الدين ، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه . وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً . ولما مات شيركوه خلفه فى الوزارة ابن أخيه الذى صار فيا بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin ه

وقد ولد صلاح الدين في تكريت الواقعة في أعالي نهر دجلة عام ١١٣٨ من أسرة كردية ـ غير ساميَّة . وكان أبوه أيوب قد ارتبى في مناصب الدولة حتى صار والياً على بعلبك في أيام عماد الدين زنكى ، ثم والياً على دمشق في أيام نور الدين محمود . ونشأ صلاح الدين في هاتين المدينتين في بينت من بيوت الإمارة ، وثغلم فنون السياسة والحرب، ولكنه جمع إلها صلاحاً وتمسكاً بالدين ، وتحمساً له ، وإنقاناً لأصوله ، وبساطة فى المعيشة لاتكاد تفتّر ق عن بساطة الزهاد . ويعده المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين ، وكان خير أثوابه ثوبا من الصوف الحشن الغليظ ، ولم يكن يشرب غير الماء؛ وكان مضرب المثل في اعتداله في العلاقات الجنسية ، وبلغ في ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه . قدم إلى مصر مع شيركوه ، واشترك فيما نشب فيها من قتال ، واستلفت الأنظار ببسالته وحسن تدبيره ، فعن حاكما على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة في عام ١١٦٧ . ثم تولى الوزارة وهو فى سن الثلاثين ، فبذل جهده فى إعادة المذهب السنى إلى مصر ، حتى إذ كان عام ١١٧٠ استبدل باسم الخليفة الفاطمي الشيعي اسم الخليفة العباسي السنى فى خطبة الجمعة . ولم يكن للخليفة العباسى فى ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية في بغداد . وكان الخليفة العاضــــــ ، آخر الخلفاء الفاطميين في ذلك الوقت ، مريضاً في قصره ، وظل على غير علم بهذا الانقلاب.

⁽ ه) أهما شاور وضرغام . (المترجم)

الدينى ، لأن صلاح الدين حرص على ألا تصله أنباؤه حتى يقفى هذا السجين العديم الشأن نحبه فى هدوء وسلام . وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل ، فات ولم يبايع من يخلفه على العرش ، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث فى البلاد شىء من الاضطراب . وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً ، وأقر لنور الدين بالسيادة . ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد فيه اثنى عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه ، كما وجد فيه من الحلى ، والأثاث ، والعاج ، والخزف التمين ما لا يوجد فى قصر أعظم عظاء ذلك الوقت . ولم يحتفظ صلاح الدين بشيء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده ، وظل صلاح الدين بشيء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده ، وظل على صاحبا .

ولما مات نور الدين في عام ١١٧٣ أبي ولاة الأفاليم أن يبايعوا ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ملكاً عليهم ، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى في برائن الفوضى . وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولى الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعائة من الفرسان ، واستطاع بحملة سريعة موفقة أن يستولى على جميع بلاد الشام . ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكا وأسس الأسرة الأيوبية (١١٧٥) ، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنن من ذلك الوقت ، واتخذ دمشق مقراً له ، واستولى على بلاد النهرين ، وكان فيها ، كما كان في القاهرة ، الرجل الحريص على دينه ، المستمسك بأصوله . وأنشأ عدة مساجد ، وبهارستانات ، وأديرة ، ومدارس لتعليم قواعد الدين ، وشجع العارة ، وإن لم يشجع بالعلوم الزمنية ، وكان يشارك أفلاطون في احتقاره الشعر . ولم يكن يتوانى عن اصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه ، وخفف الفرائب في الوقت الذي أكثر فيه من المنشئات العامة ، وأدار دولاب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

حكمه ، بينها كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها (**) .

وسنمسك القلم عن التبسط في أحوالي الأسر المحلبة التي اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (١١٩٣). وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه ، وإن حكم الدولة الأيوبية في بلاد الشام انقضى بعد ثلاثة أجيال (١٢٠٠). أما في مصر فقد ظل مزدهرا حتى عام ١٢٥٠، ووصل إلى ذروة مجده في عهد الملك المستنبر الملك الكامل المالي المستنبر الملك الكامل المستنبر الملك الكامل سلطنة بلاد والروم » ، وجعلوا قوتية (إيقونيوم Iconium الوارد ذكرها في أقوال القديس بولس) مركزا لحضارة ذات آداب رفيعة . وانمحت من آسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التي كانت قائمة فيها منذ أيام هومر ، وأصبحت بلاداً تركية لا تقل في صبغتها هذه عن التركستان نفسها ، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمها مدينة كانت في الزمن القديم عاصمة الحيثين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تمكم خوارزم الزمن القديم عاصمة الحيثين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تمكم خوارزم حتى الخليج الفارسي . وفي هذه الأحوال وهذا الانقسام السياسي أسس جنكيز خان الدولة الإسلامية الأشيوية .

وكانت بلاد الإسلام حتى فى هذه الفترة من عهود الاضمحلال تتزعم العالم كله فى الشعر، والعلم ، والفلسفة ؛ وتنافس آل هو هنستوفن Hohenstaufen فى الحكم . فقد كان سلاطين السلاجقة ... طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شباه ، وسنجر ... من أقدر الحكام فى العصور للوسطى ، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة ؛ ولم يكن نور للدين ، وصلاح الدين ، والكامل

^(﴿) قد يدهش القارئ لأن المؤلف أغفل جهود صلاح الدين في ره الصليبيين ، ولكن هذه الجهود ستأتى في موضعها من الأجزاء الأخرى (الماترجيم) .

أقل شأناً من رتشرد الأول ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى . وجرى هولاء الحكام المسلمون جميعهم ، بل وصغار الملوك أنفسهم ، على سنة الحلفاء العباسيين فى مناصرة الآداب والفنون ، حتى لنجد فى بلاطهم شعراء أمثال عمر الحيام ، والنظامى ، والسعدى ، وجلال الدين الرومى ؛ وبلغت العارة فى أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل ، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم فى الدين (على القلسفة قد اضمحلت لتشددهم فى الدين (على القلسفة قد المسلحقة وصلاح الدين معاملة بلغ من تساعها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين بحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين (٧) . وازدهر غرب آسية مرة أخرى مادياً ، وأدبياً فى عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق ، وحلب ، والموصل ، وبغداد ، واصفهان ، والرى ، وهراة ، وأميدا ، ونيسابور ، ومرو وقتئد من المحمدلال متلألى ساطع .

^(﴿) لَمَنَا نَمْتَدَأَنَ التَّفَادَ فِي الدِينَ يَحُولُ دُونَ تَقَدَّمُ الفَلَسَّفَةُ وَلَكُنَ عَدَّمَ فَهُم الدينَ على الوجه الصحيح هو الذي يجول دون تقدمها . (المترجم)

الفصل لثاني

المسلمون في الغرب

14.. - 1.41

توفى الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين في عام ١٧٤٩ ، وتغاضت أرملته وجاريته السابقة شجرة الدرعن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة . وأراد الزعماء المسلمون فى القاهرة أن يوفقوا بين هذا وبين مقتضيات الشرف والرجولة فاختاروا مملوكاً آخر يدعى أيبك ليكون شريكاً لها في لملك ، وتزوجت به شجرة الدر ، ولكنها ظلت هي الحاكمة ، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله فى الحمام (١٢٥٧) ، ولم تلبث أن قتلتها جوارى أيبك ضرباً بالقباقيب . وكان أيبك قد عاش من العمرما يكفي لإنشاء أسرة الماليك . وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض ، وهم فى العادة من الأتراك أو المغول الأشداء البواسل ، الذين كان سلاطن بني أبوب يستخدمونهم في حرسهم الخاص ؛ وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر ، كما أصبح أمثالهم ملوكاً في رومة وبغداد ؛ وظل الماليك بحكمون مصر ، وبلاد الشام أحيانًا ، ٢٦٧ عاماً (١٢٥٠ – ١٥١٧) أريقت فها كثير من دماء الاغتيال في عاصمة ملكهم ، ولكنهم جملوها بآثار الفن . وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوربا نفسها من المغول حين بددوا شملهم فى واقعة عين جالوت (١٢٦٠) ؛ وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة ، وطردوا آخر محارب مسيحي من بلاد آسية ، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه مهزيمة المغول .

وكانأعظم سلاطين الماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبر س(١٢٦٠ ـ ١٢٧٠) . (١٢ - ج - ٢ مجله ٤) كان الظاهر مملوكاً تركياً ، رفعه دهاوه وبسالته إلى منصب القيادة فى الجيش المصرى ؛ وكان هو الذى هزم لويس التاسع فى عام ١٧٥٠ ؛ والذى حارب بعد عشر سنين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعتى النظير تحت قيادة قطز فى معركة عين جالوت . ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على مصر ، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذى أعدته المدينة للضحية المنتصر . واشتبك الظاهر فى عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر ، ومن أجلها تضعه الرواية الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحى معاصر له بقوله : هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحى معاصر له بقوله : هانه كان فى المسلم معتدلا ، عفيفا ، عادلا بين شعبه ، رحيا برعاياه المسيحين وانفسهم ه . وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة ثبتت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به بعضهم من عجز ، فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العمانيون فى عام ١٥١٧ . وقد أنشأ لمصر جيشا وأسطولا قويين ، وطهر مرافئها ، وأصلح طرقها ، وقنوات ريها ، وشاد المسجد المسمى باسمه فى القاهرة .

وخلع مملوك تركى اخر ابن الظاهر بيبرس وأصبح هذا المملوك السلطان للنصور سيف الدين قلاون (١٢٧٩ – ١٢٩٠) ، وأهم ما يشهر به فى التاريخ هو البيارستان الذى أنشأه فى القاهرة ، والذى خصص له مليونا من الدراهم (ما يعادل ، ، ، و ، و ريال أمريكى) فى العام ، ورُفع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات ، ولكنه لم يخلع إلا مرتين ؛ وبنى قنوات بخر ماء الشرب إلى العاصمة، وأنشأ حمامات عامة ، ومدارس ، وأديرة، وثلاثين مسجداً ؛ واحتفر قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر فى حفرها ماثة ألف عامل ، وضرب المثل فى بذخ الماليك ، إذ نحر عشرين ألفا من الذبائح فى الاحتفال بزواج ولده . ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعراً حديقة من ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعراً حديقة من ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعراً حديقة من ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على طهر أربعين بعراً حديقة من ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على طهر أربعين بعراً حديقة من ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على طهر أربعين بعراً حديقة من ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على طهر أربعين بعراً حديقة من ولمن يطيبها الحصيب ليستمد مها حاجته كل يوم (٩) . وأقفرت خزانة

اللمولة الرومانية فى أيامه ، وكان سببا فى ضعف خلفائه ضعفاً خارت له فها بعد قوة الماليك .

وبعد فإن سلاطين الماليك لايقعون في نقوسنا موقع سلاطين السلاجقة ، أو الأيوبيين . نعم إنهم خلفوا منشئات عامة عظيمة ، ولكن معظم هذه الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تحتمله الطاقة البشرية ، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام طبقة الأعيان ، وكان الاغتيال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين ؛ ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم ، أسخياء فى مناصرة الآداب والفنون ، وكان عصر الماليك ألمع العصور الإسلامية فى تاريخ العارة الإسلامية في العصور الوسطى بأجمعها ؛ وكانت القاهرة آفي عهدهم (١٢٥٠ ــ ١٣٠٠) أغنى مذن العالم الممتدن غرب نهر السند (١٠٠٠ ، فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها ، وكان فها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات ، وحوانيت صغيرة في جدرانها مزدحة بالسلع المتفاوتة الأثمان ، وأزقة غاصة بالناس والدواب ، تعلو فيها أصوات البائعين الجائلين وعربات النقل ، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة ، ومتعرجة عن عمد ليسهل الدفاع عنها ، تختفي بيوتها وراء واجهات قوية ، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها فيالشوارع الكثيرة الجركة والجلبة ، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلي أو حديقة قريبة ؛ وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير ، والسجف ، والطنافس ، والتحف الفنية، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة . وكان فها رجال يمضغون الحشيش ليخدروا حواسهم (**)، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة ؛

^(*) لا نعتقد أن « مضغ الحشيش » كان ظاهرة بارزة في القاهرة جديرة بالتسجيل كما قد يتبادر إلى الذهن من قول المؤلف وإن وجه في القاهرة كما في سائر بلاد العالم من يتعاطون الحشيش وغيره من المخدرات وحسب القارئ أن يطلع على كتاب « اعترافات آكلى أفيون إنجليزى » لدكونسى . (المترجم)

وفيها نساء يشرثرن فى بيوت الحريم ، أو يغازلن خلسة من وراء النوافل ، والموسيق تنبعث من آلاف الآلات ، والحفلات العجيبة تقام فى القلعة ، والحدائق العامة يفوح منها شدى الأزهار وتموج بالمتنزهين ، والنهر العظيم والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب ، وقوارب النزهة . هذه هى القاهرة المسلمة فى العصور الوسطى (*) .

قضيت فيه من المآرب لهــني على زمني به والعيش مخضر الجوانب فىروقنى والجسو منسسه ساكن والقطر ساكب ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحائب بحكى عقوداً في تراثب والطل أغصسانه وتفتحت أزهــــاره فتأرجحت منكل جانب وبدا على جنبـــــاته ثمـــر كأذناب الثعالب ذهب على الأوراق ذائب وكأنمسا آصساله لى فى الولوع بها مذاهب فهناك كم ذهبيــة

وتعاقبت على شمال إفريقية فى ذلك الوقت أسركان لها هى الأخرى شأن عظيم ، منها الزيرية (٩٧٢ – ١٠٤٨) وبنو حفص (١٢٢٨ – ١٥٣٤) حكام تونس ، والحموديون (١١٣٠ – ١٢٦٩) فى بلاد الجزائر ، والمرابطون (١٠٥٠ – ١٢٦٧) أمراء مراكش . وفى

^(•) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الأبيات عن كتاب القاهرة Gairo تأليف استانل لين پول عن پالمر . وقد رجمنا إلى كتاب پالمر الكتب وهو ديوان البهاء زهير وترجمته العربية لهذا المستشرق والترجمة الإنجليزية غير دقيقة كل الدقة وهي في صفحتي ۸۲۷ من كتاب پالمر . (المترجم)

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المنتصرون ، جنود إفريقية المتقشفون الأولون ، بحياة الترف التي كان يحياها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم عروشهم ، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة ، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هولا الشجاعة مقياس السمو والعظمة والهدف المبتغى ، واكتسبت النساء برقتهن ومفاتهن سلطانا لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمنون الناس بمثل هذه المتع في الجنة . وفسد الموظفون ، ولم يلبث دولاب الإدارة ، الذي يلغ درجة عالية من الكفاية في أيام يوسف بن للبث دولاب الإدارة ، الذي يلغ درجة عالية من الكفاية في أيام يوسف بن تأشفين (١٠٩٠ – ١١٤٣) ، أن اختل في أيام ابنه على (١٠٩٠ – ١١٤٣) . واضطرب حبل الأمن ، وكثرت السرقات كلما ازداد إهمال الحكومة الشروة . واغتم ملوك أسپانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة ، وإشبيلية وغيرهما من مدائن الأندلس الإسلامية ، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية يستغيثون بها لتنجيهم من محتهم .

وكانت ثورة دينية قد شبت في تلك البلاد في عام ١٩٢١ ، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد . فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الآدميين ، وبآراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شيء إلى العقل ، وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة في العيش وفي العقيدة الدينية ؛ ثم أعلن في آخر الأمر أنه هو المهدى المنتظر والمنقذ الذي يقول به الشيعة . والتفت حوله قبائل البربر الهمج سكان جبال أطلس ، ونظموا أنفسهم تنظيا قويا وسموا بالموحدين ، وهزموا حكام مراكش المرابطين ، ولم يجدوا صعوبة في أن يفعلوا مثل هذا الفعل في الأندلس . وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش في عهد عبد المؤمن (١١٦٥ – ١١٨٤) وأني يعقوب يوسف (١١٦٣ – ١١٨٤) من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط الأميران حايهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوما لديهم أن يجعلوا

تتبهم عثير مفهومة : لكن أبا يوسف يعقوب (١١٨٤ – ١١٩٩) استسلم إلى فقهاء الدين ، وتخلى عن القلاسفة ، وأمر بحرق جميع كتبهم . ولم يكن ابنه محمد الناصر (١١٩٩ – ١٢١٤) يعنى بالفلسفة ولا بالدين ؛ وأهمل شتون الحكم ، وانغمس فى الملذات ، وهزم هزيمة منكرة على أيدى قوات المسيحين المتحدة فى واقعة العقاب(Las Navas de Tolosa) عام ١٢١٢ عام وانقسمت أسپانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة افتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة ــ قرطبة في عام ١٢٣٦ ، وبلنسية في ١٢٣٨ ، وإشبيلية في ١٢٤٨ . وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة ، حيث وقتهم جبال سيارا نقادا أو الحاجز الثلجي بعض الوقاية ؛ وحيث از دهرت حقول الكروم ، وحدائق الزيتون ، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجرى فيها من مياه الأنهار . وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الحازمين حافظوا على استقلالها هي والبلدان التابعة لها ــ شريش ، وجيان ، والمرية ، ومالقة ــ وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة ، وراجت فيها التجارة ، وانتعشت الصناعة ، وازدهرت الفنون ؛ واشتهرالسكان بثيابهم الزاهية وحفلاتهم المرحة ، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام ١٤٩٧ ، وكانت هي البقية الباقية في أوربا من تلك الثقافة التي جعلت بلاد الأندلِس قروناً طوالامن مفاخر بني الإنسان .

الفصل لثالث

نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

140 - 1.01

فى هذا العصر عصر مبادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء فى غرناطة والقصر والحرلدة فى إشبيلية . وكثيراً ما يسمى الطراز المعارى الحديد بالطراز المراكشي morisco ظنا أنه جاء من مراكش ، وهى ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس ، وهى أيضاً من مميزات التاج محال فى الهند ؛ ألا ما أوسع ميادين الفن الإسلامي وما أكثر غناء أ وقد كان الفن فى ذلك العهد فنا رقيقاً ، ولم يعد بهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما فى مساجد دمشق ، وقرطبة ، والقاهرة ، بل بهدف إلى الرقة والجال ، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة ، وأن المثال قد طغى فيه على مهندس المعار .

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً في العارة ؛ وقد شادوله أولا بقصد الدفاع عن أملاكهم ، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج أمثال برج الذهب Torre del Oro الذي كان يحرس الوادى الكبير عند إشبيلية . وكان والقصر ، Alcazar المقام هناك حصنا وقصراً معاً ، وكان يطل على العالم بواجهة بسيطة خالية من الجال . وكان الذي وضع تصميمه لأبي يعقوب يوسف (١١٨١) هو الجالوني المهندس القرطبي ؛ وأصبح هذا القصر بعد عام ١٢٤٨ المسكن المحبب لملوك أسهانيا المسيحين ؛ وأدخل عليه يدرو الأول (١٣٥٣) ، وشارل المخامس (١٣٥٣) ، وأدخل عليه يدرو الأول (١٣٥٣) ، وشارل الخامس (١٣٥٣) . . . وإذبلا (١٨٣٣) تعديلا في بناته ، أو رجموه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه أو أعادوا ما تهدم منه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه

الآن مسيحيًا في بنائه ، ولكنه يغلب عليه في نمطه وصنعه الطراز الإسلامي . أو الإسلامي ــ المسيحي .

وأبو يعقوب يوسف الذى بدأ « القصر » هو نفسه الذى شاد فى عام ١٩٧١ مسجد إشبيلية العظيم الذى لم يبق منه شىء فى هذه الأيام . وقد أقام جابر المهندس فى عام ١١٩٦ مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند الغربين باسم الحرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة الغربين باسم الحرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة كنيسة إشبيلية الكبرى ، وكان مما استخدم فى بنائها مواد المسجد نفسه . والجزء الأدنى من الحرلدة إلى ارتفاع ٣٣٠ قدما هو نفس بناء المأذنة الأصلية ، أما الاثنتان والممانون قدما الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون (١٥٦٨) ، وحرصوا على أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة الإسلامية . والثلثان الأعليان من البناء كثير االزخارف ، وفيهما شرفات الإسلامية . والثلثان الأعليان من البخص والحجر ، وفى أعلاها تمثال من البرنز للإيمان (١٥٦٨) ، ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسهانيا الديني غير المتقلب لأنه يدور مع الربح ، ومن هنا اشتق لفظ خيرلدا — أى الذى يدور — الأسباني من خيرا المواحل (١٩٦٥) ورباط (١٩٥٠) أبراجا لا تكاد تقل جمالا عن هذا البرج .

وفى غرناطة أمر محمد بن الأحمر (١٢٣٢ – ١٢٧٣) فى عام ١٢٤٨ بتشييد أعظم صرح فى الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها ، ونعنى به قصر الحمراء الشهير . وكان الموضع الذى اختير لتشييده عليه قلة جبلية شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهرى الدارو Darro والجنيل شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهرى الدارو Ocenil والجنيل . وقد وجد الأمير فى هذا الموضع حصنا يعرف بحصن الكذابة محديدة وأقام الأسوار الحارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل جديدة وأقام الأسوار المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى حجزء من أجزائها شعاره المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى

هذا البناء الأصلي أجزاء أخرى في فترات مختلفة وأصلح ما تلف منه على أيدى المسيحيين والمسلمين على السواء . من ذلك أن شارل الحامس أضاف إليه قصره المبنى على الطراز المربع طراز عهد النهضة ، وهو بناء ناقصر كثيب مهيب غبر متناسق . وخطط المهندس الذي لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذى فى داخل السور ليكون أولا حصنا يتسع لأربعين ألف رجل متبعاً في هذا مبدأ العارة الحربية التي نمت وتطورت في بلاد الإسلام الشرقية(١٢) ؟ لكن ذوق القرنين التاليين الأكثر ميلا إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبرة من الأبهاء والقصور ، تكاد تمتاز كلها بجمال الزخارف المكونة من الأزهار ، وأوراق الأشجار ، والأشكال الهنلسية المحفورة أو المطبوعة في الجمس أو الآجر أو الحجارة الملونة ، والتي تبلغ من الجال ورقة اللوق درجة منقطعة النظير . وأنشئت في بهو الآس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلات الأبواب المزخرفة ، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع . وفى داخل هذا البرج بهو السفراء ، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على عروشهم بينا كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثراء ، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا الهو فرأى الحداثق ، والغياض ، والنهر يجرى من تحتها ، فقال بعد تفكير عميق : « ما أتبس خظ من من خسر هذا كله ! °(١٢) وفي الفناء الرئيسي للقصر المعروف بهو الآساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبة المنظر تحرس فسقية من المرمو . وإن ما في البواكي المحيطة لهذا الفناء من عمد رشيقة رفيعة ذات تيجان في' صورة أزهار ، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة ، وكتابات كوفية ، ونقوش عربية ذات ألوان أطفأ بريقها كر الغداة ومر العشى ، كل هذا يجعل القصر أروع آية فنية فى الطراز الإسلامى الأندلسي . ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا في فنهم حدود الرشاقة إلى الإسراف ، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فإنها هي والروح تملان حتى الجال والحدق . وهذه الدقة في الزخرف تبعث في النفس إحساساً بالوهن وتضحى بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن تشعرنا بهما هندسة البناء . ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخر في كله تقريباً قد عاش بعد اثنى عشر زلزالا . نعم إن سقف قاعة السفراء قد خر ، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً . وملاك القول أن هذه المجموعة الجميلة من الحداثق والقصور ، والفساقى ، والشرفات توحى إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامي الأندلسي من العظمة ، كما توحى في نفس الوقت بضعف هذا الفن : توحى بالإسراف في الثراء ، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتخلد إلى الدعة ؛ وبحاسة الجال المرهقة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة .

وعاد الفن الأندلسي الإسلامي في القرن الثاتي عشر من أسيانيا إلى شمالي إفريقية ، وبلغت مدائن مراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التي تهر العن ، وبالأحياء الفقيرة المتعرجة . أما في مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والماليك الفن الإسلامي بقوة جديدة ؛ فقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه في الجنوب الشرق من القاهرة قلعتها الضخمة ، واستخدموا في بنائها الأسرى الصليبين ، ولعلهم حنوا في طرازها حلو القلاع التي شادها الفرنجة في بلاد الشام ؛ وشاد الأيوبيون في حلب المسجد العظيم والقلعة ، وبنوا في دمشق ضريح صلاح الدين . وحدث في هذه الأثناء انة لاب في فن العارة حول في جميع بلاد الشرق الإسلامي الطراز القديم في عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع في عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع في عادة إلى أن يكون في وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛ وأن ازدياد الحاجة إلى أن يكون في وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛

امتدت من المسجد الحقيق أى من مكان الصلاة – الذى كان يعلوه فى ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة – امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الحاصة ومدخله الكثير الزخارف، وقاعته الرحبة للمحاضرات. وقد جرت العادة فى أغلب الأحيان أن يكون لكل ملنهب من المذاهب الأربعة جناحه الحاص ؛ ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت فى صراحة: الأربعة جناحه الحاص ؛ ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت فى صراحة : إن ذلك يتيح الفرصة لوجود مذهب منها فى القليل يويد أعمال الحكومة القائمة . وقد استمر هذا الانقلاب فى العارة فى عهد الماليك فأنشئت المساجد والمقابر الضخمة المتينة من الحجارة ، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضيؤها نوافد ذات زجاج ملون ، قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضيؤها نوافد ذات زجاج ملون ، وتتلألاً فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة فى الجص الملون ، وقطم وتتلألاً فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة فى الجص الملون ، وقطم عبر المسلمن .

وقد درست الآثار المهارية السلجوقية فلم يبتى منها إلا أقل من واحد في المائة ، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آنى في أرمينية ، والملخل الكهنى ، اللفخم لمسجد قونية ، ومسجد علاء الدين الفخم ، والملخل الكهنى ، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز في جامع سرتجيلى ؛ ونذكر منها في يلاد النهرين مسجد الموصل الكبير ، ومسجد المستنصر في بغداد ؛ وفي فارس برج طغرل بك في الري وقبر سنجر في مرو ، والمحراب المتلألي في مسجد همذان ، والقبة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة في المسجد الجامع بقزوين ، والعقود الكبرى والمحراب في جامع الحيدرية ؛ وليست هذه يقزوين ، والعروح التي بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من المسجد الجامع في إصفهان الذي لا يدانيه في بلاد الفرس كلها إلا مسجد المحام الرضا في مشهد والذي الايدانيه في بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا في مشهد والذي أقيم بعد ذلك الوقت . ومسجد إصفهان هذا الروع الآيات الفنية كلها في عصر السلاجقة . وقد أقيميت أجراء من هذا

المسجد في قرون عدة ، ويبدو عليها طابع تلك القرون ، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam . وقد بدئ بتشييده في عام ١٠٨٨ ووسع مراراً عدة ، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا في عام ١٠٨٨ غير أن كبرى قبابه المشيدة من الآجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام ١٠٨٨ . ومدخل المسجد وأبواب الحراب – ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً – مزينة بالقاشاني والفسيفساء الذي لا يكاد يوجد له نظير في تاريخ ذلك الفن بأكمله . وأبهاؤه الداخلية ذات قباب مضلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة ، وأقواس مستدقة تخرج من دعامات ضخمة . وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الحص من أوراق ضخمة . وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الحص من أوراق الكرم والبشنين ، وكتابات كوفية لا يعلو عليها شيء من نوعها في بلاد

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قوماً همجا ؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام في التاريخ ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم في عصر الإيمان الذي يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة ؛ ولقد وقف طراز المباني السلجوقية المضخمة الجريئة في وجه النزعة الفارسية إلى الزينة ، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معارى جديد عم آسية الصغرى والعراق وإيران ، ومن العجيب أن يتفتي هذا الطراز في الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطي في فرنسا . ولم يجر السلاجقة على السنة التي جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة في ركن من أركان الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متلألة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متلألة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصرح ، وضمت أجزاءه جميعها في وحدة ؛ وفي هذا الوقت بالذات اجتمع في البناء العقد المستدق ، والقبوء والقبة أحسن اجتماع (18)

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها في هذا العصر العجيب عصر العظمة.

والاضمحلال . فقد كان الشعر يبدو للفرس من مسرات الحياة التي لاغنى عنها ، ولم يبلغ فن الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه في ذلك الوقت من تنوع في الشكل وجمال (١٥٠) . ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين ، وأهل البغام من فنون الزخارف البراقة ، وأهل البغاء ، والتلوين المفرد أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحته ، وأعمال الميناء ، والقرميد ، والقاشاني ، والزجاج ، حتى بلغوا بللك كله درجة الكمال . وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصيني ، وخاصة ما كان منها متصلا بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسي . متصلا بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسي . الشرقين الآدني والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الآنية النصف الشفافة . إلا أن الفخار القارسي مع هذا بقي طوال القرون الثاني عشر ، والنالث عشر ، والرابع عشر ، لايفوقه فخار آخر في العالم كله – فقد كان في تنوع أشكاله ، ودقة تناسبه ، وبريق زخارفه ، ودقة حزونه ، ورشاقته يسمو على كل ما عداه في العالم كله (۱).

ولم تكن الفتون الصغرى فى بلاد الإسلام مما تنطبق علمها هذه التسمية التى تبخسها حقها . فقد كانت حلب ودمشق فى هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية الهشة ، المزخرفة بالميناء ، وصنعت القاهرة للمساجد والقصور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء أيضاً يبذل هواة التحف الفنية فى هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول علمها وكانت كنوز الفاطمين التى فرقها صلح الدين تحتوى على آلاف من المزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقرانى ، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون فى هذه الأيام ، وبلغ فن الزخارف المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون فى هذه الأيام ، وبلغ فن الزخارف المهارة الأشورى القديم فى مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل ،

 ^(*) وحسبنا أن نذكر أن آل رثتشيله ابتاعوا إبريقاً عربياً صغيراً من الزجاج المزخرف بالمينا. بمبلغ و ١٣٦٦ ديالا أمريكيا .

ومن هذين القطرين انتقل ذلك الفن إلى البندقية في القرن الخامس عشر (١٨٥). وكان النحاس ، والبرنز ، والشبّة ، والفضة ، والذهب ، تصبّ أو تطرق ، وتصنع منها آنية للطبخ ، وأسلحة ، ودروع ، وقناديل ، وأباريق ، وأحواض ، وجفان ، وصوان ، ومرايا ، وآلات فلكية ، ومزهريات ، وثرييات ، ومقالم ، وعابر ، ومداف ، ومباخر ، وتماثيل للحيوانات ، وصنديق للمصاحف ، ومساند للمواقلد، ومفاتيح ، وأقفال ، ومقصات ، . . مزينة بنقوش محفورة ، ومرصعة في كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة . وكانت الأوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول طبها كثير من النقوش ، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول عليه ببسطن عليها صور وعول ، وأوز ، واسم ألب أرسلان ، ويرجع عهدها إلى عام ١٠٦٦ ، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر وبرجع عهدها إلى عام ١٠٦٦ ، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر عففة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة (١٩٠٠) .

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون ، ومقصوراً على عمل النقوش البارزة ، والحفر على الحجارة أو الجص ، وعلى الزخرفة العربية والكتابية ؛ وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستيتر بعمل تمثال له أو لزوجه أو إحدى مغنياته ، ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجاهير . غير أن النقش على الحشب ترعرع وازدهر ؛ فكانت الأبواب ، والمنابر ، والمحاريب ، وكراسى المصاحف ، والسجف ، والسقف ، والمناضد ، والشبابيك العتمرية ، والأصونة ، والصناديق ، والأمشاط ، كانت هذه كلها تقطع على رسوم شعرية أو يكدح في عملها صناع قاعدون القرفصاء يديرون المخارط بأقواس . وكان ثمة عمال آخرون أشسد من المشجر ، والأقشة المطرزة ، والخمل المشغول بخيوط الذهب ، والستائر ، والحيام ، المشجر ، والأقشة المطرزة ، والخمل المشغول بخيوط الذهب ، والستائر ، والخيام ،

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتانة التي كانت موضع دهشة العالم وحسده . وقله شاهد ماركو پولو في آسية الصغرى حين زارها في عام ١٢٧٠ و أجمل الطنافس في العالم كله هر٢٠٠ ويقول جون سنجر سارچنت John Singer Sargent إن السجادة العجمية و تساوى في قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الرقت هر٢١٠ ، مع أن الحبراء المختصين يحكون بأن فلسجاجيد العجمية الحالية ليست إلا أمثلة ناقصة من الفن الذي بزت فيه علاد الفرس العالم كله ؛ ولم يبق من السجاجيد العجمية التي نسجت في عصر السلاجقة إلا قطع عمزقة ، ولكن في وسعنا أن نتصور ما بلغته من إنقان وجمال منقطعي النظير مما نسج على منوالها بصورة مصغرة في العصر المغولي .

وكان التصوير في الإسلام من الفنون الكبرى في الرسوم اللدقيقة المسغيرة ، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى في الرسم على الجلوان ، وفي الرسوم الملونة للكائنات الحية . وقد استخدم الحليفة الفاطمى الآمر (١١٠٤ – ١١٣٠) عدداً من رجال الفن ايرسموا له في حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت (٢٢٠) ، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعلم له من القوة ما كان له في سالف الأيام . وقد بلغ التصوير في عهد السلاجقة ذروته في بلاد التركستان حيث أضعف بتعد المسافة كراهية أله السلاجقة ذروته في بلاد التركستان حيث أضعف بتعد المسافة كراهية ألم المسئة لهذا الفن ، ومن أجل هذا نرى في المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك . ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوجه في عصر المغول الذي تلا ذلك عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوجه في عصر المغول الذي تلا ذلك العصر في بلاد الإسلام الشرقية لا يكاد يترك مجالا للشك في از دهاره في ذلك العقر السابق . فقد كانت العقول الأريبة والأيدى الصناع تخرج مصاحف المعتمر السابق . فقد كانت العقول الأريبة والأيدى الصناع تخرج مصاحف تزداد جمالا فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجة والأيوبين والماليك ، وعال عبادتهم ، ولكر أنهم ، ومدارسهم ؛ وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقو شاً تبلغ في على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقو شاً تبلغ في

دقتها بيوت العنكبوت ، وكان الأغنياء ينفقون بعض ما لهم فى استنجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب ؛ وكانت طائفة كبيرة من الوراقين ، والخطاطين ، والمصورين ، والمجلدين ، تعمل فى بعض الأحيان سيعة عشر عاماً كاملاً لإخراج مجلد واحد . ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع ، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التي لا يزيد عمرها على سنتين ، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورود الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن من مسحوق حجر اللازورود الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن المدهب السائل بعد أثمن من أن ترسم به بعضى الخطوط أو تكتب به بعض الحروف فى رسم أو نص . وفى ذلك يقول أحد شعراء الفرس : و إن الحيال الرسم ، ومن أن يتصور مقدار السرور الذى يتيحه للعقل منظر خط متق الرسم ، ومن .

الفصلالرابع

عصر عمر الجيام ١٠٣٨ – ١١٢٢

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء في ذلك العصر لم يكن يقل عن عدد الفنانين. فقد كانت القاهرة ، والإسكندرية ، وبيت المقدس ، وبعلبك ، وحلب ، وحمش ، وطوس ، ونيسابور ، وكثير خبرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى ، وكان في بغداد وحدها سنة ٢٠٠٤ ثلاثون مدرسة من هذا النوع ، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها في سعتها ، وفخامة بنائها ، وأجهزتها ، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء في المدينة كلها . وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوى أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى ، يجد فيها الطلاب التعليم ، والطعام ، والعناية الطبية بالحجان ، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى . وكان في المدرسة مستشفى ، وحمام ، ومكتبة مفتحة الأبواب بالحجان للطلبة وهيئة التدريس . ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن في بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأنا نسمع عن وجود شيخة — أى أستاذة — بهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا بهرعون إلى سماع محاضرات المهازيا عاضرات . (١٩٧٨) .

وكانت دور الكتب العامة أغنى وأكثر مما كانت فى أى عهد آخر من عهود الإسلام ؛ وقد كان فى الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة ؛ وظل النحاة ، وعلماء اللغة ، وأصحاب الموسوعات ، والمؤرخون موفورى العدد والثراء ، وكانت كتب السير التى يضم كل منها عدداً من التراجم من الهوايات الشائعة المتفنة عند المسلمن . من ذلك أن القفطى (المترفى فى عام ١٧٤٨) ترجم لأربعائة المتفنة عند المسلمن . من ذلك أن القفطى (المترفى فى عام ١٧٤٨) ترجم لأربعائة .

وأربعة عشر فيلسوفا وعالما ، وأن ابن أبى أصيبعة (١٢٠٣ – ١٢٠٠) ترجم لأربعائة طبيب ، وأن محمد العوفى (١٢٢٨) ، ألف موسوعة تشمل ترجمة لحثلثائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام ، ويز محمد بن خلكان (١٢١١ – ١٢٨٢) بمفرده هوالاء جيماً وغيرهم بكتابه وفيات الأعياد الذي يحتوى على تراجم في صورة قصص لثمانمائة وخسة وستين من ذوى المكانة من المسلمين . والكتاب على اتساع عجاله عجيب الدقة ، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتذر عما فيه من نقص ويختمه بقوله (أبي الله أن يصح خلكان نفسه يعتذر عما فيه من نقص ويختمه بقوله (أبي الله أن يصح المشهور من أديان العالم وفلسفاته ، ولحص تواريخها ، ولم يكن في مقدور أحد من المسيحيين في ذلك العصر أن يكتب كتابا يماثله في غزارة مادته ونزاهته .

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص ، متقطعة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة . وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن ، وكتاب المن ليلة ولباة ، وكتاب كلبلة ودمنة لبيدبا هو مقامات أبي محمد الحريرى « المن ليلة ولباة ، وكتاب كلبلة ودمنة لبيدبا هو مقامات أبي مسجع مغامرات الموخد السافل أبي زيد صاحب الشخصية الممتعة ، وهو الذي يضطز القارئ إلى العفو عن مجونه ، وجرائمه ، وتجديفه بسبب فكاهته الظريفة ، وحذقه ودهائه ، وفلسفته الجذابة المغرية : انظر إلى قوله في إحدى المقامات :

^(,) يقول ابن خلكان : « فمن و تف على هذا الكتاب من أهل العلم و رأى فيه شيئاً من الحلل فلا يممل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيب فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبي الله أن يصبح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عام والله يستر عيوبنا بكرمه النباقى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته الهير الصافى إن شاه الله تعالى بمنه وكرمه يم . انتهى قول ابن خلكان . تالله ما أجل هذا التواضع إلى (المترجم) .

وعاص النصيح الذى لا يبيح وصال المليح إذا ما سمـــح وجل فى المحال ودع ما يقال وخذ ما صلح(*)

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين فى ذلك الوقت أن يقرض الشعر ، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه ، وإذا صدقنا قول ابن خلدون فإن مئات من الشعراء كانوا يقيمون فى بلاط المرابطين والموحدين فى إفريقية وأسپانيا (٢٦) . وحدث فى اجتماع للشعراء المتنافسين فى إشبيلية أن نال الأعمى التطيلي (١٩٠٠ جائزة لأنه جمع فى بيتين نصف شعر العالم كله إذ قال :

ضاحك عن جمان سسافر عن در ضاق عنه الزمان وحواه صبدری(۲۲)

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرعوها ، وفى القاهرة ظل البها زهير يغنى عن الحب يعد أن ابيض شعره بزمن طويل . وفى بلاد الشرق الإسلام كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سببا فى ازدياد عدد الأمراء والكبراء الدين يناصرون الأداب ، وإلى تنافسهم فى هذا الميدان كما حدث فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر . وكان الفرس أغنى الأم الإسلامية بالشعراء ، فقد ظل الأنورى شاعر خراسان زمناً ما يتغنى بقصائده فى بلاط سنجر ، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه .

^(*) من المقامة الثانية عشرة الدمشقية ﴿ ﴿ المُّرْجُمِ ﴾

⁽ه.ه) أبو العباس التطيل . ويروى سافر عن بدر وهذه القافية تتفق مع الترجمة الإنجليزية . وقصته كما يرويها ابن خلدون في حديثه عن الموشحات الأفدلسية : وأن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية وكل واحد منهم اصطنع موشحة ، وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلي للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بالبيتين السابقين صرف ابن بني موشحته وتبعه الباقون » . (المترجم)

لى روخ ملهبة كالنار ، ولسان فياض كالماء ، وعقل قواه الذكاء وشعر مبرأ من العيوب ، ولكن ما أشد أسفى إذلا أجد نصيراً خليقا بمديمى وما أشد أسفى إذ لا أجد حبيباً جديراً بغزلى إ (٢٨)

ولايقل عنه ثقة بنفسه معاصره الحاقانى (١١٠٦ – ١١٨٥)، وقد أثار بغطرسته معلمه فقال فيه شعرا يطعن فى نسبه يقول فيه بالفارسية ما معناه: أى خاقانى ! مهما تكن مكانتك فى الشعر فإنى أسلنى إليك فصيحة لا أقتضيك علمها أجراً:

لاتهجون أسن منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدرى (*)

وأكثر ما يعرف الأوربيون من الشعر الفارسي هو شعر عمر الحيام ؛ وتضعه بلاد فارس بن علبائها الأعلام ، ولاترى في رباعياته إلالهوأ عارضاً. كان يلهو به و ربحل من آعظم علماء الرياضة في العصور الوسطى ١٠٣٨ ، ومعنى وقد ولد أبو الفتح عمر الحيام ابن إبراهيم في نيسابور عام ١٠٣٨ ، ومعنى لقبه صانع الحيام ، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة أبيه إبراهيم ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت في أيامه معانيا الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد Smith ، والحياط Taylor والحباز الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل الموقت الحاضر ، ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل أسماء الكثير من مؤلفاته ؛ منها كبتابه في الحمر الذي ترجم إلى الفرنسية في عام ١٨٥٧ ، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدى الحوارزي والعلماء اليونان . فقد وصل فيه إلى حل جزئي لمعادلات اللمرجة

 ^(*) ليس هذا البيت من ترجعتا بل إنه من شعر بهجو فيه بعضهم أبا العلاء صاعداً الآندلسي وهو ترجعة صادقة لقول أبي العلاء الآخر معلم الحاقاني .

^(**) وعندنا أيضاً . (المترجم)

الثالثة قبل إنه و ربما كان أعظم ما وصلت إليه العلوم الرياضية في العصور الوسطى ه (٢٦) ومنها كتاب آخر في الجبر (وهو كتاب مخطوط في مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعاريفه . وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء في عام ١٠٧٤ إصلاح التقويم الغارسي ، وكانت نتيجة عملهم تقويما لا يخطئ إلا في يوم واحد كل ٢٧٧٠ عاماً – أي أنه أدق قليلا من تقويمنا الحاضر الذي يخطئ بمقدار يوم كل ٢٣٣٠ عاما (٢٢٠) . وإنا لنترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التي تتلو حضارتنا هذه . غير أن الدين الإسلامي كان أعظم سلطانا على النفوس من العلوم الإسلامية ، ولهذا عجز تقويم الحيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجرى . ومما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكي من شهرة واسعة تلك القصة التي يرويها عنه نظاى عروضي الذي عرقه في نيسابور:

في شتاء سنة ٥٠٥ (في مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه في طلب صدر الدين محمد بن المظفر رحمه الله ، وكلفه أن يخبر الخيام – وكان ينزل ناره – أن السلطان يريد الخروج للصيد ، وأنه يطلب إلى عمر أن يختار له خسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج . وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره . ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر ، وهبت الرياح عواصف ، ونزل الثلج والبرد ، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : لا تشغل بالك فإن المطر سينقطع في هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الحمسة الأيام اللاحقة . وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأيام الحمسة الأيام اللحقة . وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأحمة الأيام اللاحقة .

والرباعيات في أصالها الفارسي قصيدة تتألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قافيتها آبا . وتعر كل منها عن فكرة كاملة في شعر جامع محكم . ولسنا

^(*) أو ١١١٤ – ١١١١م.

نعرف منشأ هذا البحر ، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الحيام موقت طويل . ولم يكن هذا الشعر في الأدب الفارسي جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذائها ، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها ، بل يرتبونها حسب قوافيها(٢٤) . وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية ، معظمها لا يعرف قائله ، ومنها ١٢٠٠ تعزى إلى عمر الحيام تفسه ، ولكن كثيراً منها يشك في أنها من قوله . ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسي لرباعيات الحيام (وهو المخطوط المحفوظ في المكتبة البدلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام ١٤٦٠ لا قبل ع ويحتوى على ١٥٨ من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أي عنها إلى أبي سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا(٢٧٧) . وإن من الحيام – بعضها إلى أبي سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا(٢٧٧) . وإن من الصعب ، إلا في حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التي تعزى الصعب ، إلا في حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التي تعزى إلى الحيام من أقواله حقاد ٢٨).

ولقد كان المستشرق الألماني فون هم Von Hammar نظر العالم الغربي إلى رباعيات الحيام في عام ١٨٥٨ ، ثم ترجم إداورد فترجرلد Edward Fitzgerald في عام ١٨٥٨ خساً وسبعين منها شعراً إنجليزيا رصيناً ممتازاً ، فريداً في نوعه . ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل ، لكن طبعات أخرى متنالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ ، وأفلحت في تعديل الصورة التي كانت في عقول الناس عن العالم من أكثر ما يقرأ من الشعر في العالم . ويرى العارفون بالأصل الذي ترجمه في ألعالم . ويرى العارفون بالأصل الذي ترجمه فترجر لد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التي ترجمها تسعا وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسي تعبيرا وأدبعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر صادقاً أمينا ، وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

وأن اثنتين « تنعكس فيهما روح القصيدة الأصلية بأبهمها » ، وأن ستا مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الحيام ، ولكنها في أغلب الظن ليست له ، وأن اثنتين بنطبع عليهما تأثر فترجر لد بما قرأه لحافظ ، وأن ثلاثة لا نجد لها أصلا في أى نص فنها لدينا من نصوص رباعيات الحيام ، وبيدو أنها من وضع فترجر لد نفسه ، وقد استبعدها هو في الطبعة الثانية (٣٧) ولمنا نجد في رباعيات الحيام ما يقابل المقطوعة الحادية والمانين من ترجمة فترجر لد (٤٠) وهي التي تقول :

إننى أدعوك يا من أنجا من خبيث الترب إنساناً نما وبفر دوس أدب الأرقما كيفا زل امرؤ أو أجرما فاحبه وأسأله غفران الأنام (*)

^(﴿) مَنْ تُرْجِعَةُ المُرْجُومُ مُحْمَدُ السَّيَاعِي .

الخفية ، ولكن الصوفى نجم الدين الرازى يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحدين في أيامه(١٤) .

وكا عمر الحيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام ، ويفخر بأنه سرق أبسطة الصلاة من المساجد ، ولعله قد تأثر في هذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية ، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبي العلاء المعرى (٢٤٠). وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين ؛ وإذ كان لا يأمل في حياة غير الحياة الدنيا ، فقد استولت عليه فلسفة متشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى في الدرس والحمر ؛ فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتي بعدها من المخطوط المحفوظ في المكتبة البدلية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية :

وحانة كنسها بشارب وعالمين وليا عن غاربى ما عادلى بالشراما حاق بي شأن ولا خيرهما إن ضاق بي ودعها يا قلب عند ضارب بأكرة يرسلها لضارب تجد أخاك نائما كشارب سكران من هذى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى لله ما أحلى وما أجملا أن تشرب العقل فلا يعقلا وأن يجوب المرء هذا الفلا واعقله من كل شيء سلا بين سماك نافر وهلا (المرد من برج الحوت إلى الهلال أي من أحد طرفي السهاء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون في مدح الغيبوبة أقوالا شبية بهذا القول ، حق لنا أن نتساءل أليست هذه الأقوال الحمرية مجرد صورة من صور الأدب ، ووقفة من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين ؟

⁽ ه) لم نجد هاتين المقطوعتين فيما هو مترجم من رباعيات الحيام ، وقد تفضل صديقنا الأستاذ دريي خشية مشكوراً فترجمهما شعرا . (المترجم)

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع في عقل القارئ صورة خاطئة لحياة الحيام ، وما من شك في أنها لم يكن لها إلا شأن قليل في الحمسة والثمانين عاما التي امتدت إليها حياته . ومن واجبنا أن نصوره ، لا في صورة السكير الذي يستلقي محمورا في الطرقات ، بل في صوة العالم المسن العاكف في هدوء على معادلاته التكعيبية ، وعلى طائفة قليلة من أبراج النجوم والحرائط الفلكية ، وعلى كأس من الحمر بين الفينة والفينة مع زملاته العلماء ، وهم منتشرون على الكلأ كالنجوم . ويبدو أنه كان عجب الأزهار كحب المحصورين في أرض جدباء ، وإذا أخذنا بقول النظامي العروضي فإنه قد نال بغيته في أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير . قال النظامي العروضي فإنه قد نال بغيته في أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير .

هبط عمر الحيام سنة ٥٠١ه (١١١٧ – ١٦٥) مدينة بلخ ونزل فى قصر الأمير أبي سعد ، وكنت فى خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول : سيكون قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه فى كل ربيع . وظننته يقول مستحيلا ولكننى كنت أعلم أنه لا يلتى القول جزافا .

تم هبطت نيسابور سنة ٣٠٠ ه (١٢٥٥م) فقيل لى بأن ذلك الرجل العظيم قد مات ؛ وكان له على حتى الأستاذ فرأيت من واجبى أن أزور قبره وصحبت من يدلنى عليه فأخرجنى إلى مقبرة الحبرة ، وهناك رأيت على يسار للزائر فى سفح سور حديقة موضع دفنه ، ورأيت أشجار الكثيرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة وثيرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار ؛ فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التى سمعتها منه فى بلخ ، وغشينى الجزن ، وغلبنى البكاء لأنى لم أكن أعرف له نداً بين للرجال ، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرما .

الفصل لخامس

عصر السعدى(*) ١١٥٠ – ١٢٩١

ولد بعد خس سنين من وفاة عمر الحيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر ، وكان مولده في المدينة المعروفة الآن بقير وزاباد بالقرب من تفليس . وكأن الأقدار قد شاءت أن تتخذ من إلياس أبي محمد الذي عرف بعدئذ باسم نظاى وسيلة لإظهار نزعة الحيام الأخلاقية في أبشع صورها فجعلته يستمسك في حياته بأسباب الصلاح الحق ، فيمتنع كل الامتناع عن شرب الحمر ، وجهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر . وقصته ليلي والمجنون شرب الخمر ، وجهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر الفارسي . وخلاصها أن قيس المجنون افتين بليلي ، ولكن أباها أرعمها على أن تتزوج برجل غيره ، وأثرت تلك الخيبة في قيس وأفقدته عقله ، فاعتزل المدينة إلى البادية ، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلي أمامه . ولما ترملت ليلي جاءت إليه ولكنها توفيت بعد قليل ؛ ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبر چولييت . وليس في مقدور أية ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفارسي من قوة في التعبير وجمال في النغم .

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب ، ولكنهم يوكدون لنا أشد المتأكيد أن العاطفة التي يعبرون عنها ليست إلا رمزاً لمحبة الله . وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف في عالم الأدب باسم فريد الدين العطار بالقرب من نيسابور (١١١٩) ، ولقب بالعطار لأنه كان يبيع العطر . ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

^(*) يعرف باسم سعدى الشير ازى . (المترجم)

^(🕬) نظم المرحوم أحمد شوقى هذه الرواية شمراً .

غادر حانوته والتحق بخلوة للصوفية . وتشتمل كتبه الأربعون على ماثتي ألف بيت من الشعر أشهرها كلها منطق الطير . وخلاصته أن ثلاثين طائراً ﴿ أَى صُوفِيا ﴾ يعتزمون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمرغ (الحق) . ويجتازون ستة وديان : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والتجرد (عن جميع الشهوات) ، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة) ، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردى) . و تصل ثلاثة من الطيور الوادى السابع وادى الفناء (فناء النفس) ، ويطرقون باب الملك المحتفى . ويعرض الحاجب على كل منهم سجل أغماله ، فيغلمهم الحياء ، ويستحيلون ترابا ؛ ولكنهم يبعثون من هذا التراب في صورة ضياء ، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيرًا ﴾ شيء واحد . ويفنون من هذا الرقت في سيمرغ كما تفني الظلال فى ضوء الشمس . ويعير العطار فى كتبه الأخرى عن عقيدته فى وحدة الوجود تعبيراً أكثر من هذا صراحة : فيقول إن العقل لا يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه ، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله ، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة في كل شيء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة ، وهو روح العالم وحياته . وليس في مقلور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفني وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة ، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحده الدين الحق ، وإفناء النفس فيه هو وحدة الحلود الصحيح (ه^{و)} . ويرفض أهل السنة هذا كله ويعلونه بدعة وضلالا ؛ وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيتُ العطار وأحرقوه عن آخره ، ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله ، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش ماثة عام وعشرة أعوام ، وإنه بارك بيده الطفل الذي نادى به فيما بعد معلماً له ، والذى فاقت شهرته شهرة معلمه .

كان جلال الدين الرومى (١٢٠١ ــ ١٢٧٣) من أهل بلخ ، ولكنه عاش معظم حياته فى قونية . وجاء إلى هذه المدينة صوفى عجيب هوشمس تبريرى ليخطب في أهلها ، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخلون قونية عاصمة لهم ، وأنشأ جلال الدين في حياته القصيرة نسبياً بضع مثات من القصائد . وقد جُمعت القصار منها في ديوانه ؛ وتمتاز بعمق الشعور ، والإخلاص وقوة الحيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة ، وبهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الديني من عهد المزامير . وكتابه المثنوى المأنوى عرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق في حجمها كل المأنوى عرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق في حجمها كل ما خلفه هوميروس ، وفها فقرات بارعة الحال ، ولكن الحال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقي متعة إلى أبد الدهر ، وموضوعه ، كموضوع كتاب معدمه ، هو وحدة الكون :

دق إنسان باب الحبيب ، فناداه صوت من الداخل:

من الطارق ؟ فأجابه « أنا » : فناداه الصوت : « إن هذه الدار لا تتسع لى ولك » ، وظل الباب مغلقاً . فسار المحب إلى الصحراء ، وداوم في حزلته على الصوم والصلاة ، ثم عاد بعد عام ودق الباب مرة أخرى ، وسأله الصوت كما سأله من قبل : « من الطارق ؟ » فأجاب الحب : « إنه أنت نفسك » ، ففتح له الباب (٢٠٠٠) .

. . .

ونظرت حولى أبحث عنه ، فلم أجده على الصليب ، وذهبت إلى هيكل الأوثان ، وإلى المعبد القديم ، فلم أشاهد فيهما أثراً . . . ثم وجهت بحثى نحو الكعبة ، ولكنى لم أجده في هذا المكان الذي يلجأ إليه الشيان والشيب ، وسألت ابن سينا عن مقامه ، ولكن ابن سينا لم يحط به . ثم تفقدت قلبى ، وفيه وجدته ، ولم يوجد في مكان سواه (٤٧) .

إن كل صورة تراها لها أصل مثلها في العالم اللامكاني ، فإذا انعدمت الصورة

فليس ذلك بذى خطر لأن أصلها باق مخلد . وما من شكل جميل رآيته ، او قول حكيم سمعته ــ فلا يحزنك أنه قد فنى لأنه فى واقع الأمرنم يفن ... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجرى منه . فاطر د الغم من قلبك ، وعب من هذا النهر ، ولا تظنن أن الماء سيفرغ فمعينه لا ينضب .

و لفد وضع أمامك من ساعة مجيئك إلى عالم الحلق سلم لتفرعليه منه . ولقد كنت في أول الأمر جمادا ، ثم استحلت بعدئد نباتا ، ثم صرت حيواتاً ، فكيف يخفى عليك هذا ؟ ثم جعلت بعدئد إنساناً ذا علم ، وعقل ، ودين ... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن ، أصبحت بلا ريب ملاكاً .

وانتقل مرة أخرى من طبقة الملائكة ؛ وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح نقطتك بحراً... دع عنك هذا « الابن » وقل : « الواحد ،على الدوام بكل قلبك (١٨٠٠).

ونذكر أخيراً السعدى ، ولاحاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقي أطول من هذا — فهو مشرف الدين بن مصلح الدين غبد الله . وكان أبوه يشغل منصباً في بلاط سعد بن زنجي أتابك شيراز ، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام الذي جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه . ويختلف العلماء في تاريخ مولده ووفاته ، فنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٨٣ (٢٩٩) ، وسهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٩١ (١٩٥) ، وسهم من يقول إنهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام . ويقول هونفسه إنه كن في صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين . . . تقياً إلى أبعد حدو د التقوى ، عفيفاً أشد العفة (٢٥) . وبعد أن أتم علومه في المدرسة النظامية ببغداد الشرقين الأدنى و الأوسط — الهند ، وبعلا الجيشة ، ومصر ، وشمالي إفريقية . الشرقين الأدنى و الأوسط — الهند ، و بلاد الحبشة ، ومصر ، وشمالي إفريقية . وقاسي فيها كل أنواع الصعاب ، وذاق مرارة الفقر و الحرمان ، وقد قال عن نفسه

إنه كان يشكو الحفاء حتى التنى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه (٥٢). وكشف و هو فى الهند عنجهاز فى صنّم قيل عنه إنه يأتى بالمعجز ات، وقتل الدعى البرهمى المختفى فيه والذى كان هو إله ذلك الجمهاز، و هو يوصى فى شعره المتأخر ألرح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين:

و فإذا اتفق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة ، فاقض من خورك على المحتال ، ولا تدعه يفلت منك ، بل عجل به ا لأنك إذا أبقيت على حياة هذا الوغد ، فلا تشك قط فى أنه لن يرحمك . . . ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجما بالحجارة ، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله ، لأن الموتى كما تعلم لا ينطقون (١٥٥) . .

وحارب الصليبين وأسره و الكفار» ، ثم افتدى ، فتزوج ابنة من افتداء فيعبر بذلك عن شكره لأبها ، ولكنه تبين بعدئد أنها سليطة لا تطاق ، وكتب عنها يقول و إن غدائر ذات الجمال قيد في قدى صاحب العقل » (٥٠٠) ثم طلقها ولكنه التي بغير ها من ذوات الغدائر ، وسلك نفسه في سلسلة أخرى ؛ ولماماتت زوجته الثانية ، آوى إلى صومعة في حديقة بشير از وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته .

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب ، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم ؛ ومن هذه الكتب البير ناما وهو كتاب فى الحكمة ، ودموائه وهو مجموعة من القصائد القصار ، معظمهما باللغة الفارسية وبعضها بالعربية ؛ بعضها يفيض بالتي ، وبعضها بالفحش ؛ ويشرح السعدى فى كتابه السمائه فلسفته العامة بالشعر التعليمي الفلسني ، تتخلله فى بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق .

لمأعرف في حياتي أحلى من هذه اللحظات. وقلت لحبيبي لما أن ضممهاإلى

صدرى فى تلك الليلة وتظرت إلى عيقيها بكاد يغلبهما النعاس: ﴿ أَى حبيبَى يَا غَصَنَ بَانَ لَقَدَ آنَ أُوانَ النوم . عَن يَا بَلْبَلِى ! وافتحى فاك كما تتفتح الوردة . اطردى النوم ، يا ملهبة قلبى ، ولتقدم لى شفتاك رحيق حبك » . ويظرت إلى حبيبتى وهمست بصوت خافت : ﴿ أَمْلُهُبَةٌ قَلْبُكُ ؟ ومع هذا توقظنى من نوى ؟ و .

... وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك . . . وكنت أنت تبتسم لأنك تعرف أنها كاذبة ، ولكن ماذا يهمك من هذا ؟ فهل شفتاها من أجله أقل حرارة وهما تحت شفتيك ؟ وهل كتفاها أقل نعومة وأنت تداعيما بيليك ؟ . . . يقولون إن نسم الربيع حلو جيل شبيه بشذى للورد وتغريد العندليب ، والمرج الأخضر ، والساء الزرقاء . ويحك يا جاهل ! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيتك (١٥) .

والجلستان وحديقة الورد (١٢٥٨) مجموعة من القصص التعليمية تتخالها . قضائلًا من الشعر المطرب الجميل :

سه لل ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين: وأى شيء أقضل من الصلاة ؟ فأجابه الولى بقوله : وأفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار . فلا توندى أحداً من خلق الله حي ذلك الوقت (٧٥) .

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد : ولكن ملكين لا تبسع لها ملكة بأكلها (١٩٥٠)

إذا كنت تسعى إلى الفنكى فلا تطلب الهناءة (٥٩٥) .

إن رجل الدين الذي يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالجدول الضحل(٢٠٠٠) .

لم يعترف قط إنسان بجهله إلا من كان في مجلس وأخذ غيره يتحدث ، وقبل أن يتم طديثه يبدأ هو بالسؤال(٢١١)

لو كان فيك خضيلة واحدة وسيعون دذيلة لما رأى من يحبك عير خضيلتك الوحيدة(٦٢) . لا تعجل . . . وتعلم الآناة . فإن الجواد العربى يعدو آشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه ؟ أما الجمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنبار حتى يصل إلى آخو سفره (٢٣٥) .

حصل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما . . . فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم علىفقده لأن علمه فى حد داته معن للثراء لا ينضب (١٤) إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب (١٥٠)

لو عيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول و أنا جاهل و(*)(٢٦) إن خفة البندقة لدليل على أنها فارغة (٢٧) .

وكان السعدى فيلسوفا ، ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب في وضوح ؛ وكانت فلسفته أصح وأسلم من فلسفة عمر الحيام ؛ فهى تفهم ما في الإيمان من سلوى ، وتعرف كيف تداوى جراح المعرفة بما في الحياة الجنونة من نعمة . ولقد قاسى السعدى كل ما في ملهاة الحياة البشرية من مآس ، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام . ولقد كان السعدى شاعراً كما كان فيلسوفا : كان مرهف الحس يكل أنواع الجهال الظاهر والمكنون ، الحسى منه والمعنوى ، من جسم المرأة الجميلة إلى النجم اللهى يستأتر لحظة بالسهاء وقت المساء ؛ وكان في وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز ، ورقة ، وظرف . ولم يكن يعجز في أية لحظة عن الإتيان بتشبيه نبر جميل ، أو عبارة بليغة فاتنة . ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجوز (١٨٠) وإنى كنت وصديتي كحبتين في قشرة لوزة هر (١٦٠) ، بقذف القبة بالجوز (١٨٠) و جُبّة هذا التاجر البخيل « لما رأى إنسان و لوأن قرص الشمس كان في جُبّة هذا التاجر البخيل « لما رأى إنسان

⁽ م) قارن هذا بالسطور الأولى من كتاب ديكارت المسمى و أحاديث عن الطريقة المسلم و أحاديث عن الطريقة O Discourses on Method وحيث يقول : وإن الإدراك السليم هو أكثر الأشياء كلهة توزيعاً بالقسطاس المستقيم بين الناس ، ذلك بأنه ما من أحد إلا يظن نفسه ذا حظ موفور منه ، وحتى الذين يصعب علينا أن ترضيم بحظهم في غيره من الأمور لا يرغبون عادة في أكثر عليه منه » .

ضوء النهار إلى يوم القيامة ه^(٧٠). وقد ظل السعدى شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ماكان بنطق به من حكمة. وكان يسلم حكمته راضياً مغتبطاً إلى عبودية الحب:

لقد قد ر على ألا أضم حبيبتي إلى صدرى

وألا أنسى بعدى الطويل في قبلة أطبعها على شفتها الحلوتين

وسأختلس منها ذلك الشراك الذي تقتنص به ضُحَاياها في طول البلاد وعرضها حتى أستطيع أن أغربها بالمحيء إلى جانبي

ولكنَّى لن أجسر على أن أمس شعرها بيد مسرفة في الجرأة

فكم فى هذا الشعرمن قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور فى الأقفاص أنا عبد لهذا القد المياس الذى يبدو فى نظرى كأنما قد فصلت عليه الرشاقة تفضيلا كما يفصل الخياط الثوب

يا شجرة السرو يا أطرافا من اللجين ، إن لونك ورائحتك قد فاقا رائحة الآس ونضرة الورد الىرى

احكمي بناظريك وضعي قدمك قوق كل حر وبحيل

وامشى فوق الياسمين والأزمار

ولا تعجبي إذا أيقظت في زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكي بينها الأزهار الصغيرة تبتسم ، وكل هذا يا حبيبي من أجلك

وإذا ما وطثت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين ، فلا عجب إذا سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه

لم يبق مكان للحيرة في بلدنا هذا أيام حكم مولانا المليك سوى أنني جننت بحبك وجن الناس بفنائي في حبك (٢١٦) ع

الفيرالتاس

علوم المسلمين ۱۲۰۸ -- ۱۲۰۸

قسم العلماء المسلمون الشعوب في العصور الوسطى طبقتين - طبقة الذين يعلمون وطبقة الأولى الهنود ، ووضعوا في الطبقة الأولى الهنود ، والفرس ، والبابليين ، والبهود ، واليونان ، والمصريين ، والعرب ، أولئك في اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله في العالم ؛ أما الطبقة الثانية - وخير من تشملهم الصينيون والأتراك - ، فهيي أشبه بالحيوان منها بالإنسان (٧٢) . وأكبر خطأ في هما التقسيم هو وضع الصينيين في الطبقة الثانية .

وحافظ المسلمون في العصر الذي نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع في العلوم ، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم في علم الرياضة في مراكش وأذربيجان ، ففهما نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقى عظم ، في مدينة مراكش نشر حسن المراكشي في عام ١٢٢٩ جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ، وجداول بجيوب التمام ، وجيوب الأقواس ، ومماسات الأقواس والأقواس المهاسة . وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسي أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلا بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة . وقد بني كتابه المسنى شكل القطاع لا ينافسه منافس في هذا الميدان حتى نشر رجيو منتانس Regiomontanus كتابه المثلثات اللذي ظهر ما من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذي ظهر علم من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذي ظهر عند الصينيين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر عربي النشاة (٧٣).

وأشهر ما ظهر من الكتب في العلوم الطبيعية في ذلك العهد هو كتاب ميران الحسكمة الذي ألفه في عام ١١٢٧ مولى يوناني من آسية الصغرى يدعى أبا الفتح. وفي هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة ، وقوانان الروافع أ وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الضلبة ، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شيء نحو مركز الأرض (١٤٠٠). وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقي التي كانت معروفة عند اليونان والرومان ، وشاهد الصليبيون هذه السواقي التي الماء من نهر العاصي فأدخلوها في ألمانيا(٥٠٠). وعلا شأن الكيميائيين ، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلبائة طريقة لتضليل الناس (٢٠٠): ويقال إن أحد هوالاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ويقال إن أحد هوالاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ينفقه في البحوث العلمية ثم اختني عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ينفقه في البحوث العلمية ثم اختني عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء الكيميائي إذا رجع مكان اسم تور الدين ، وببدو أن هذا المؤلف الظريف الكيميائي إذا رجع مكان اسم تور الدين ، وببدو أن هذا المؤلف الظريف لم يعسسه أذى (٧٧).

وفى عام ١٠٨١ صنع إبراهيم السهلى أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة فى التاريخ . وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها ٢٠٩ ملليمتر (٥ر٨١ بوصة) ؛ وحفر على سطحها ١٤١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها (٧٨٠) . وكانت خرلدة أشبيلة منارة ومرصداً فى وقت واحد ، وفيها قام جابر بأرصاده التى نشرها فى كتابه إصموع الجمسطى (١٧٤٠) . كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية فى مؤلفات كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية فى مؤلفات أبى اسمى البراجيوس المعروف عند علماء الغرب باسم البراجيوس التدوير واللوائر المختلفة المراكز وهى التى حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها .

وأنجب هذا العصر عالمين فى تقويم البلدان ظبقت شهرتهما العالم كاه فى العصور الوسطى ، ونعنى سهما الإدريسي وياقوت . فأما أبو عبد الله محمد الإدريسي فقد ولد في سبتة عام ١١٠٠ وتلتى العلم في قرطبة ٍ ، وكتب فى بلرم إجابة لطلب روجر الثانى ملك صقلية ، كتابه المسمى كتاب رومارى. وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ورمم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية ، وكانت هذه ألخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط في العصور الوسطى ، ولم ترسم قبلها خرائط أتم منها ، أو أدق ، أو أوسع وأعظم تفصيلاً . وكان الإدريسي يجزم كما تجزم الكثرة للغالبة من العلماء المسلمين بكرية الأرض، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها . ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية في العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩). وكان ياقوت بمولده يونانيا من سكان آسية الصغرى ، وأسرق الحرب وبيع في سوق الرقيق ، ولكن التاجر البغدادي الذي ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه ، ثم أعتقه . وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر الإعجاب ببلادها ، وسكانها المختلفي الأجناس ، وبلباسهم وأسالبِب حياتهم . وقد سره وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة في مرو تحتوى إحداها ، عِلَى ١٠٠٠ر ١٢ مجلد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها ماثني كتاب إلى حجرته دفعة واحدة . وما من شك في أن الذين يحبون الكتب ويرون أنها دم الحياة يجرى فى عروق عظاء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل . ثم انتقل ياقوت بعدئد إلى خيوة وبلخ، وهناك أوشك المغوّل أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب الفتاك ؛ ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب ، وهو محتفظ بمخطوطاته ، واجتازبلاد الفرس إلىالموصل . وأتم و هويعانى آلامالفاقة وشظف العيش أثناء عمله في نسخ الكتبكتابه الشهير معجم البلداله (١٢٢٨) - وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة في العصور الوسطى . ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله في هذه الموسوعة - من فلك ، وطبيعة ، وعلوم الآثار ، والجغرافية البشرية ، والتاريخ ؛ هذا إلى ما أثبته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض ، وأهميتها وحياة مشهورى أهلها وأعمالهم ، ولسنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظم .

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدى المسلمين في ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاوافر اسطوس ؛ فقد وضع الإدريسي كتابا في النياتات وصف فيه ثلثاثة وستين نوعا مختلفا منها ، ولم يقصر اهبامه بها على الناحية الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النياتية . وذاعت شهرة أبي العباس الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النياتية . وذاعت شهرة أبي العباس الإشبيلي (١٢١٦) لدراسته حياة أنواع الثبات المختلفة التي تنمو بين الحيط الأطلنطي والبحر الأحمر . وجمع أبو محمد بن البيطار المالتي (١١٩٠-١٢٤٨) كل ما عرفه المسلمون في علم النبات في موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت كل ما عرفه المسلمون في علم النبات في معلمور الوسطى (١٩٠٠) . ومن أهم مقام أعظم علماء النبات والصيادلة في العصور الوسطى (١٩٠٠) . ومن أهم موالفه ابن الأوان الإشبيلي أنواع التربة والسياد ، وطريقة زرع ٥٨٥ نوحا منأنواع النبات ، وخمسين نوعا من أشجارالفاكهة ، وشرح طرق التطعيم ، مرافع أمراض النبات وطرق علاجها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها . وكان كتابه هذا أكمل

وأنجب المسلمون في هذا العصر، كما أنجبوا في غير ممن العصور أعظم الأطباء في آسية ، وإفريقية ، وأوربا . وكان أهم مانبغوا فيه علم الرملا، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار في بلاد الشرق الأدنى ، فني هذه البلاد كان الناس بذلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها . وكان أطباء العيون يجرون

كثيراً من العمليات لإزالة إظلام العلصة (سادَّة العين أو الكبركتا). وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبي المحاسن الحلبي (١٢٥٦) بحدقه في هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور (٨١) . ووضع ابن البيطار في كتاب الجامع تاريخ الطب النباتى . فقد وصف في هذا الكتاب ألفا وأربعاثة من أنواع النبات والأغذية ، والعقاقر ، ثلثًاثة منها لم تكن معروفة من قبل ، وحلل تركيبها الكيميائى ، وخصائصها العلاجية ، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها في علاج الأمراض . ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (١٠٩١ – ١١٦٢) الأشبيلي المعروف في عالم الطب الغربي باسم أفنزور Avenzoar . وكان أبو مروان الثالث من ستة أجيال من أطباء ذائعي الصيت متصلي النسب ، كل مهم يحمل لواء الطب في أيامه ،، وقد ألف كتابه المسمى كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رشد (أعظم فلاسفة زمانه) الذي كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس . وكان أهم ما برع فيه ابن زهر . هو الوصف الإكلينيكي ؛ وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزومية ، والنهاب الثامور ، ودرن الأمعاء ، والشلل البلعومي ٢٨٣٠ . وكان للترجمتين العبرية واللاتينية لكتاب التيسيز أعظم الأثر في الطب الأوربي .

كذلك نزعم الإسلام العالم كله فى إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها . مثال ذلك أن البيارستان الذى أنشأه نور الدين فى دمشق عام ١١٦٠ ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجو ويمدهم بالدواء من غير ثمن ، ويقول المؤرخون إن نبر انه ظلت مشتعلة لاتنطقي ٧٦٧ سنة (٨٢) . ولما وفد ابن جبير إلى بغداد فى عام ١١٨٤ دهش أيما دهشة من بيارستانها العظم الذى كان يعلو كما تعلو القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة ، والذى كان يطعم المرضى و يمدهم

بالدواء من غير عمن (١٨٥٠). وفي القاهرة بدآ السلطان قلاون في عام ١٢٨٥ تشييد بيارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق ، فقد أقام في داخل فضاء واسع مسور مربع مبانى أربعة يتوسطها فناء يزدان بالبواكي ، وتلطف حرارته الفساقي والجداول . وكان يحتوى على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين ؛ ومعامل للتحليل ، وصيدئية ، وعيادات خارجية ، ومطابخ ، وحمامات ، ومكتبة ومسجد للصلاة ، وقاعة للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ، زودت بمناظر تسر العين . وكان المرضى يعالجون فيه من همر أجر رجالا كانوا أو نساء ، أغنياء أو فقراء ، أرقاء ، أوأحراراً ؛ وكان كل مريض يعطى عند خروجه منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لكسب قوته بعد خروجه منه مباشرة . وكان الدين ينتامهم الأرق يستمعون إلى موسيق خروجه منه مباشرة . وكان الدين ينتامهم الأرق يستمعون إلى موسيق هادئة ، وقصاصين محترفين ، ويعطون في بعض الأحيان كتباً تاريخية للقراءة (١٨٠٠) . وكان في جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين بالأمراض العقلية .

⁽ه) يقول ابن جبير في وصف هذا البيمارستان : و وهو على دجلة ويتفقده الأطباء كل. يوم اثنين وخميس ، ويطالمون أحوال المرضى به ، ويرتبون للم أخذ ما يحتاجون إليه ؛ وبين أيديهم قوم يتناولون طبخ الأدوية والأفلية ؛ وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميح مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » . (المترجم)

الفصلاليابع

الغزالى والنهضة الدينية

وبينا كانت العلوم تسر قدماً في طريق الرقى كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعامة وإبقائها إلى جانبه ؛ وأدى النزاع الذى قام بين الدين والعلم إلى تشكك الكثرين في عقائد الدين ، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر . وقد قسم الغزالى المفكرين المسلمين ثلاث طوائف: كلها في نظره كافرة وهي المؤلمة ، والربوبية (أو الطبيعية) ، والمادية . فأما المؤلمة فتومن بالله ، وبخلود الروح ولكها تنكر الحلق وبعث الأجسام ، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير ؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها ؛ وأما المادية فتر فض فكرة وجود الله إطلاقاً الله . وقامت حركة أخرى على شيء من النظام هي حركة الدهرية ، وهولاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشيء ؛ وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة . ومن متبعي هذا المدهب إصبان بن قرة الذى قال من أتباع هذه الحركة . ومن متبعي هذا المدهب إصبان بن قرة الذى قال في يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، في يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، في يوم من أيام ومضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، في يوم من أيام ومضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، في يوم من أيام ومضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، في يوم من أيام ومضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ،

وكان رد الفعل الذي نتج من هذه الحركة المتشككة هو ظهور أبي حامد الغزالى أعظم علماء الدين المسلمين ، الذي جمع بين الفلسفة والدين ، فكان بذلك عند المسلمين ، كماكان أو غسطين وكانت عند الأوربيين . ولد أبو حامد الغزالى في طوس عام ١٠٥٨ ، ومات أبوه في صغره فكفله صديق له متصوف. ودرس الغلام الشريعة ، وعلوم الدين ، والفلسفة . ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

^(*) لخص المؤلف هذا من المقدمة الثانية من كتاب تهافت الفلاسفة . (المترجم)

في المدرسة النظامية الكبرى ببغداد ؛ وسرعان ما أُعجب العالم الإسلامي يفصاحته ، وغزارة علمه ، وبراعته في الجدل . وبعد أن قضي في هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الآفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم ؛ وكان شلل لسانه يشوه منطقه فى بعض الأحيان ، ثم بدأت قواه العقلية تنهار. وشخصطبيب ماهر مرضه بأنه في الأصل مرض عقلي . ولقد أقرالغزالي في ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامي ، وأنه لم يكن يطيق ما في دروسه الدينية من نفاق . وغادر الرجل بغداد في عام١٠٩٤ يريد الحج إلى بيت الله في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة كان يريد اعتزال الناس ، وينشد الوحدة والصمت ، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل. ولما عجز عن أن يجد في العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعي ، انقلب من التفكير في العالم الحارجي إلى تأمل العالم الداخلي ؛ معتقداً أنه سيجد فى هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهى القاعدة الثابتة الأكيدة للإيمان بعالم الروح . وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات ـــ وهو عماد النزعة المادية وأساسها ؛ وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً عن الأرض ، وإلا لتعذرت رويتها من بعدها الشاسع ؛ واستخلص من هذا, المثال ومن مثات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثوقاً به موصلاً إلى الحقيقة . وأما العقل فهو في رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إلها عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى ، ولكنه هو الآخر يعتمد في النهاية على الحواس نفسها . فهل عند الإنسان نوع من المعرفة ، مهديه إلى الحقيقة ، أصدق من العقل وأوكد ؟ وأحس الغزالي بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة في تأمل الصوفية الباطني : فالصوف يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف ؛ وأرقى أنواع المعرفة هو التأمل في معجزة العقل حتى يظهر

الله للمتامل من داخل نفسه ، وحتى تختني النفس ذاتها في رؤية الواحد(٨٧).

وبهذه النزعة وهذا المزاج كتب الغزالى أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعنى به كتاب بهافت الفعرسفة واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل، فاستخدم الصوفى المسلم الجلمل الفلسنى الذى لايقل دقة عن جدل كانت لاهمله أن العقل يؤدى بالإنسان إلى التشكك فى كل شيء ، وإلى الإفلاس الذهنى ، والانحطاط الحلتى ، والتدهور الاجتماعى . وأنزل الغزالى العقل ـ قبل أن ينزله هيوم Hume يسبعة قرون ـ إلى مبدأ العلية ، وأنزل مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع أعلى اللوام ولا ندرك أن إهى علة ب. ومن أقواله أن الفلسفة ، والمنطق ، والعلوم لاتستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام والعلوم لاتستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام المباشر هو وحده الذي يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لاقيام بغيرهما لأي نظام أخلاق ، وهو النظام الذي لاقيام لأية حضارة إلا به (٨٨)

وعاد الغزالى فى آخر الامر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية السليمة جميعها ، وعاد إليه كل ماكان يساوره فى شبابه من مخاوف وآمال ، وجهر بأنه يحس بعينى إله قوى قاهر قريبتن من رأسه تتوعدانه وتنذرانه ، وأخد يندر الناس من جديد بأهوال الجحيم ويوكد أن دعوته هذه لا غنى عنها لتقويم أخلاق العامة (١٩٠٠) ، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء به القرآن والحديث ، وقد شرح فى كتابه إهياء عاوم الدين هذه العودة إلى عقائده الأولى ، ودافع عنها بكل ماكان له فى شبابه من قوة وحاسة أصبح بهما أقوى عدو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله عدواً أشد منه عنفاً . ولما توفى فى عام ١٩١١ كانت موجة الإلحاد قد ردت على أعقابها ، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين ، يل إن رجال الدين المسيحين أنفسهم قد أثلج صدورهم ما وجدوه فى كتبه ، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، من دفاع حار عن

الدين ، وعرض بليغ لقواعد التتى والصلاح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين . واختفت الفلسفة منذ أيامه ، بالرغم من ظهور ابن رشد ، في أقصى أركان العالم الإسلامي ، وضعفت البحوث العلمية ، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم موضع اهتمام العقول الإسلامية رشغلها الشاغل (*).

وكان اعتناق الغزالى لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية ، فأخد أهل السنة من بعده بالتصوف حى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين . نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا في عالم الدين والشريعة ، ولكن ميدان التفكير الديني استسلم لمشابخ الطرق وأولياء الله الصالحين . ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيس في المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك في العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الميلادي ، فقد أخد الزهاد المتصوفة مهجرون الحياة الغائلية ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش ، وثانيهما لفظ فارسي معناه السائل . وكان هولاء يسعون بطرق عتلفة إلى التسامي بأرواحهم لمر تفعوا مها إلى الفناء في روح هذا التسامي هي الصلاة والتأمل ، ومنهم من كانت سبيله إليها النشوة التي تعقب الأذكار العنيفة .

وقد صيغت نظريات الصوفية في المائة والحمسين من الكتب التي ألفها عبي الدين بن العربي (١٦٥٠ - ١٢٤٠) - وهم مسلم أندلسي أقام في دمشق . ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الحارجي لما هو في حقيقته الداخلية الله نفسه ، والحجيم مقام مؤقت ، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر ، والحب يخطئ إذا كان هو حب المظهر الحسمي الزائل ، لأن الله هو الذي يظهر في صورة

^(.) لا شك نى أن هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

المحبوب، والمحب الصادق يجد فى أية صورة حميلة باعث الجال كله ويعشقه . ولعل محيى الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام چيروم فأخذ يعلم الناس أن « من أحب وعف ثم مات مات شهيداً » ، ووصل إلى أسمى درجات الصلاح والورع . وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم يحبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم (٩٠٠) .

وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من العطايا ، ورضيت أن تستمتع بطيبات الحياة . وقد شكا من ذلك أحد شيوخ الشام حوالى عام ١٢٥٠ فقال إن الصوفية كانوا من قبل إخوة مختلفان فى الجسم ولكنهم متحدون فى الروح ، أما الآن فهم طائفة تكتسى أجسامها بالثياب الحسنة ولكن سرائرها ممزقة خلقة . وكان الناس يبتسمون لهو لاء الذين جمعوا بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم ، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء الخلصين الصادقين ، ويعزون إليهم قوى وأفعالا غير عادية ، ويحتفلون بموالدهم ، ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، ويزورون قبورهم . ذلك أن الإسلام كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر

ولما انتصرأهل السنة على هذا النحوضعفت روح التسامح الدينى ، وعادت. إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التى يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب. فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيامهم بخطوط صفراء ، وحرم عليهم أن يركبوا الخيل، وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال، ولم يسمح لم بإنشاء كنائس أومعابد

^(*) ليست العقائد الدينية الأساسية هي التي تتطور وتتبدل على مر الأيام بل الذي يتطور هو ما لا يمس صميم الدين كالتشريع وأمثاله . وهناك أفعال ليست من الدين في شيء وبعضها مخالف له وإن أتاها بعض المسلمين ومنها الحجج إلى مقابر الأولياء والتبرك بهم والتشفع بهم عند أقد وهو ما لا يقره اللين . (المترجم)

جديدة وإن أجر لم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح؛ ولم يكن يجوز لم أن يُظهروا الصليب في خارج الكنائس، أو يدقوا نواقيسها؛ ولم يكن أبناء غير المسلمين يقبلون في المدارس الإسلامية، ولكن كان في وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة بهم. كان هذا كله هو ما يجب اتباعه من الوجهة النظزية، ولكنه لم يكن ينفذ على الدوام. ولا تزال هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية وإن لم تكن هي المعمول بها على الدوام (٩٢)(*). ومع هذا فقد كان في بغداد وحدها في القرن العاشر ١٠٠٠ وكانت جنائز المسيحين تسير في الشوارع دون أن يتعرض مسيحي (٩٢)؛ وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحين واليهود في المناصب العليا؛ ولقد كان صلاح الدين، في سورة الحروب الصليبية وحدتها وما أوجدته في النفوس من أحقاد، كريماً رحياً بمن في دولته من المسيحيين.

⁽١) لا ندرى من أين جاء الكاتب بقوله إن هذه هى النصوص الحرفية الشريمة: الإسلامية ، فلسنا نعلم أن الشريمة تنص على هذا ؛ وثعل بعض هذه القيود قد وضمت على غير المسلمين فى بعض العهود ، وضمها بعض الملوك أو الأمراء ، ولكما لم تكن قاعدة متبعة ،. ولبست من الدين فى شيء . وحسبنا ما قاله المؤلف نفسه بعد هذا دليلا على تسامح المسلمين فى. أقرب العهود إلى نشأة الإسلام . (المتراجم)

الفصلالثامن

این رشسد

عاشت الفلسفة رقناً ما في أسيانيا الإسلامية بماكانت تبثه بحكمة وحذير من الآراء التي تنفق مع الدين بين محاولات النقد الهن غير العنيف ؛ وقد وجد الفكر شيئاً من الحربة المزعزعة في بلاط الأمراء الذين كانوا. يستمتعون سرًا بالبخوث التي يرونها ضارة بعامة الشعب. ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذي ولد في تلك المدينة حوالي عام ۱۱۰۶ لیکون وزیراً له . وکان ابن باجة ، أو أقمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد ، قد بلغ ، وهو لا يزال في شبايه ، مرتبة عليا غير عادية في العلوم الطبيعية ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقي ، ِ والشعر ؛ ويقول ابن خلدون إن الأمر أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب ؛ وخشى ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود اللهبية في كلاحذاءيه . ولما سقطت سرقسطة في أيدى المسيحين ، فر الوزير ــ العالم ــ الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معلماً بين مسلمين يتهمونه بالكفر، ومات ابن باجة في سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات . وتعذُّ رسالته في الموسيقي التي لم نقف لها على أثر خبر ماكتب في هذا الموضوع الدقيق في الآداب الإسلامية في الغرب . وأشهر موتفاته كلها كتاب مرشر الحراب الذي جدد فيه البحث في أحد الموضوعات الأساسية في الفلسفة الإسلامية . فقد قال ابن باجة إن العقل البشرى يتكون من جزأين : العقل المادى الذى يتصل بالجسم ويموت بموته ؛ والعقل الفعَّال أو العقل الكونى غير البشرى الذي يوجد في الناسكلهم ، وهووحده الذي لا بموت بموتهم . والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان ، وبالتفكير وحده ، لا بالنشوة الصوفية ، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله . ولكن التفكير مغامرة خطيرة ، إلا إذا كانت في صمت . والرجل العاقل يعيش في عزلة هادئة ، بعيداً عن الأطباء ، ورجال القانون ، والناس أجمين ؛ أو لعل عدداً قليلا من الفلاسفة يولفون فيا بينهم جماعة تسعى مجتمعة لطلب المعرفة في رفق وتسامح بعيدة عن صخب الشعب وجنونه (هه) .

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو باسر Abubacer عند الأوربيين) (١١٠٧ - ١١٨٥) أفكار ابن باجة ، وكاد يحقق مثله العليا . وكان هو الآخر عالما ، وشاعراً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ؛ وكان وزيراً وطبيباً المخليفة أبي يعقوب يوسف في مدينة مراكش عاصمة الموحدين . وقد استطاع أن يقضى معظم ساعات يقظته في المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشئون الحكم متسعاً من الوقت كتب فيه ، من بين الكتب الفنية العميقة ، أعظم قصة فلسفية في أدب العصور الوسطى . وقد أحد ابن طفيل عنوان قصته من ابن مينا ولعلها هي التي أوجت إلى دفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو مينا ولعلها هي التي أوجت إلى دفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو في عام ١٧٠٨) .

وخلاصة القصة أن حي بن يقظان ، الذي سميت القصة باسمه ألتي وهو طفل في جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عنزة ، وشب الفتي متوقد الذكاء عظيم المهارة ، فكان يصنع حذاءيه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرّح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل في هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعسلم الأحياء (٢٦٠) . ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ، وأثبت لنفسه وجود وخالق قادر على كل شيء ، ثم عاش معيشة الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللخم ، واستطاع أن يتصل اتصالا روحيا الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللخم ، واستطاع أن يتصل اتصالا روحيا

بالعقل الفعال (٩٧٠). وأصبح حى بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس ، وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال استطاع في سعيه إلى الوحدة أن يلتى بنفسه على الجزيرة ، فالتتى بحى ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بى الإنسان . وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر لحى بما في عقائله الناس الدينية في الأرض التى جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة ، وما أنفروا به عن عقاب النار . واعترم حى أن يغادر جزيرته ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة . فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم في السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس والمراسيم ، والعقاب والثواب الإلهيين . ثم ندم على إقحامه نفسه فيأ لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع أسال يرافتي الحيوانات الوديعة والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى المات .

وقدم ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف حوالي عام ١١٧٦ شاباً قاضياً وطساً يعرفه المسلمون باسم أبي الوليد محمد بن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨) ويعرفه الأوربيون في العصور الوسطى باسم أهروس (Averroés) ، أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً في العقول . ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود في بني الإنسان . وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة في قرطبة ، وقد هيأا له من التعليم كل ما تستطيع أن تهيئه له هذه العاصمة القديمة . ونقل إلينا أحد تلاميذه هسذه الفقرة التي يقولون إنها هي التي وصف بها ابن رشد نفسه أول لقاء له بالأمير فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلاابن طفيل ، وأخذ ابن

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح . . . وبدأ الأمبر حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه في السموات ، هل هي أزلية أو أن لها بداية ؟ فارتاع الفيلسوف الملك وأضطرب ، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة . وأدرك الأمر ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه فى الموضوع ، ويعيد على مسامعه آراء أفلاطون وأرسطو وغرهما من الفلاسفة ، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض ؛ لا يرجع في شيء من هذا إلا إلى ذاكرته مما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته . وطمأن الأمىر الفيلسوف وامتحن علمه ، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشيء من المال، وبجواد، وحلة غالية الثمن(٩٨). وعين ابن رشد في عام ١١٦٩ قاضيا للقضاة في إشبيلية وفي عام ١١٧٢ قاضياً للقضاة في قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنىن من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور . وفي عام ١١٩٤ نفي ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آراثه . ثم عني عنه وعاد إلى مراكش في عام ١١٩٨ ولكن المنية عاجلته في العام التالي ، ولا يزال قدره حتى الآن قائماً في تلك المدينة .

وكاد كتابه في الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة في الفلسفة ؛ ولكنه كان في الحقيقة من أعظم أطباء زمانه ، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال إن من يمرض بالجدرى يكتسب الحصانة من هذا الداء (٩٩٠ . وكانت موسوعته الطبية المسهاة كتاب السكليات في الطب بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار في الجامعات المسيحية . وأبدى الأمر أبو يعقوب في ذلك الوقت رغبته في أن يكتب له أحد العلماء شرحا واضحا لآراء أرسظو ، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد . ورحب الفيلسوف عبدا الاقتراخ ، لأنه كان يرى العمل أن الفلسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه أن الفلسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه الناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه الناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه الناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه الناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه العمل العمل المناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه الناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه المناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه المناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه الكليلية المناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلية المناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه المناسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلية المناسفة كلية المناسفة المناسف

لكى تصبح موائمة لكل زمان هو أن تشرح وتفسر (**). واعترم ابن رشد أن يعد لكل كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة في أول الأمر ، ثم شرحا لها موجزاً أيضاً ، ثم شرحا مطولا للطلبة المتقدمين في الدرس – وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة في الصعوبة مألوفة في الجامعات الإسلامية . ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية ، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعباد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو ؛ ولكن صبره ، وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته في أوربا كلها وأكسبته امم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بن فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه في المتزلة إلا ابن سينا العظيم .

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو فى المنطق ، والطبيعة ، وعلم النفس ، وما بعد الطبيعة ، والفقه ، والشريعة ، والفلك ، والنحو ، ورداً على بهافت الفعوسة للغزالى سماه تهافت النهافت . وهو يقول كما قال فرانسس بيكن من بعده إن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان إلى المروق من الدين ، ولكن الدرس الواسع يؤدى إلى الائتلاف بين الفلسغة والدين . ذلك أن الفيلسوف ، وإن كان لا يأخد تعالم القرآن ، والتوراة ، وغيرهما من الكتب المنزلة (١٠٠٠) بمعناها الحزق ، يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة والأخلاق السليمة فى عقول الناس ، الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفى لغه التفكير العارض ، السطحى ، الخطر فى مبادئ الأشياء وأواخرها . ومن التفكير العارض الدين (١٠١٠) ؛ التفكير العارض الدين (١٠١٠) ؛ ومن حق الفيلسوف فى مقابل هذا أن يترك حرا يسعى وراء الحقيقة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحصر مناقشاته فى دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعمد عليه مع ذلك أن يحصر مناقشاته فى دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعمد

⁽ ه) وأبدى سنتيانا Santavana في كتابه حياة الفقل The Life of Reason هذا الرأى نفسه .

إلى الدعاوة لآرائه بن العامة (١٠٠١). وهو يرى أن العقائد الدينية إذا فسرت تفسيراً رمزياً تتفق مع ما يكشف عنه العلم والفلسفة (١٠٠١). ولقد ظل هذا التفسير الرمزى للنصوص المقدسة المبنى على الاستعارة والتشبيه سنة متبعة حتى عند رجال الدين أنفسهم مثات السنين. وابن وشد لا يقول صراحة بالنظرية التي يعزوها إليه النقاد المسيحيون وهي أن قضية من القضايا قد تكون صادقة في الفلسفة (بين المتعلمين)، ولكنها قد تكون خاطئة (مضرة) في الدين (والأخلاق) (١٠٤٠)، وإن كانت تعاليمه تتضمن هذا الممنى. ومن أجل هذا وجب ألا يبحث عن آراء ابن رشد في رسائله الصغرى التي وضعها لجمهور الطلاب، بل في شروحه الأرسطوالي هي الصغرى التي وضعها لجمهور الطلاب، بل في شروحه الأرسطوالي هي أكثر عمقاً وأصعب فهماً من الرسائل السالفة الذكر.

وهو يفسر الفلسفة بأنها البحث فى معنى الوجود بقصد إصلاح شأن الإنسان (١٠٠) ويقول إن العالم أزلى ، وإن حركات الكواكب لا بداية لها ولانهاية ؛ وإن القول بالحلق خرافة ، فالقائلون بالحلق يدعون أن الله ينشى كائناً (جديداً) من غير أن يحتاج فى إنشائه إلى مادة موجودة من قبل . . . وهذا التصورهو الذى جعل علماء الأديان الثلاثة القائمة فى هذه الأيام يقولون إن الشيء قد ينشأ من لا شيء (١٠٠١) . . . والحركة أزلية ودائمة ؛ وكل حركة تنشأ من حركة أخرى قبلها . وبغير الحركة لا يكون زمن وليس فى وسعنا أن نتصور حركة ذات بداية أو نهاية (١٠٧٠) .

ولكنه مع هذا يقول إن الله هو خالق العالم ، ويعنى بهذا القول أن العالم موجود فى أى وقت من الأوقات بقوة الله الحافظة ، وإنه يمر فى كل لحظة بعملية خلق مستمرة بقدرة الله الفعالة (١٠٨٠) ؛ فالله هو نظام الكون ، وقوته وعقله .

ومن هذا النظام الأعلى والعقل الكلى بكون نظام الأفلاك والنجوم وعقلها المحرك , ومن عقل أدنى الأفلاك السهاوية (فلك القمر) يأتى العقل الفعال الذى يدخل فى جسم الإنسان المفرد وعقله . والعقل الإنسانى مكون من عنصرين

أحدهما العقل القابل أو المادى وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية ، وهذا العقل جزء من الحسم يفنى بفنائه (الجهاز العصبي؟) ، والثاني هو العقل الفعال ، المستمد من الله ، ، وهو الذي يبعث العقل القابل على التفكير الفعلى . وهذا العقل الفعال لا يختلف فى فرد عنه فى آخر ؛ بل هو سواء فى الناس كلهم ، وهو وحده الخالد الذي لا يفنى (١٠٩) . ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال في الفرد أوفى العقل القابل بتأثير الشمس التي يجعل ضووها كثيراً من الأجسام نيرة ، ولكنه يبقى في كل مكان ، ويظل على الدوام كما كان(١١٠) . ويسعى العقل الفردى للاتحاد مع العقل الفعال ، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق. ومهذا الاتصال يصبح العقل البشرى شبهاً بالله ، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة فى فكره ؛ والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا ، وليس له معنى ، إلا عن طريق العقل الذي يدركه (١١١) . وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذي يؤدي بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذي يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفساتى على الزهد أو بالنشوة التي تحدث بالأذكار. وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخُفية ، ويرىأن الجنة ليست إلاما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفوس(١١٢) .

وهذه هي النتيجة التي وصل إليها أرسطو نفسه ، ولاحاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nouspathetikos neus poietikos) مرجعها كتاب النبسي لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة) ، كما فسرها الإسكندر الأفروديسي ، وثامسطيوس الإسكندري ، وهي التي استحالت إلى نظرية الفيض emanation التي تقول بها الأفلاطونية الحديثة والتي انتقلت إلينا عن طريق الفاراني وابن سينا وابن باجة ، وأصبحت هذه الفلسفة العربية في نهايتها كما كانت في بدايتها هي فلسفة أرسطو استحالت إلى أفلاطونية جديثة ؛ ولكن

بينا كانت عقائد أرسطوقد عدلت وحورت على أيدى معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفى بخاجات الدين ، فإن العقائد الإسلامية قد أنقصت على يدى ابن رشد إلى أقل قدر حيى يوفق بينها وبين آراء أرسطو . ومن أجل هذا كان أثر ابن زشد في المسيحية أعظم منه في بلاد الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه من المسلمين ، ونسيه من جاء بعده منهم ، وتركوا معظيم كتبه تضيع أصولها العربية ؛ ولكن الهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية . وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة . أما فى العالم المسيخي فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلىٰ اللاتينيـة كانت من أكر البواعث على نزعة سيجر ده برابانت Siger de Brabant الإلحادية ، ونزعة مدرسة بدوا Padua العقلية ، وكانت خطراً يُهدد أساس العقيدة المسيحية . وأراد تومس أكويناس أن يرد هذا التيار الذي بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض ، ولكنه سار على الطريقة التي اتبعها ابن رشد في شروحه وفي كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو ، وفي قوله إن المادة هي منشأ الفروق بن الكائنات ، وفي تفسره الرمزى للنصوص الخاصة بالتجسيد في الكتاب المقدس، وفي قبوله الفُّكرة القائلة إن العالم قد يكون أزلياً ، وفي رفضه التصوف أساساً كافياً للدين ، وفى اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل ، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان(١١٣٦) . وقد وضع روچر بيكن ابن رشد في المرتبة الثانية بعد أرسطووابن سينا ، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التي هي من. خصائصه و تحظى فلسفة ابن رشد في هذه الأيام (حوَّالي عام ١٣٧٠) بقبول جميع العقلاء ۽(١١٤) ۽

و عام ١١٥٠ أمر الخليفة المستنجد فى بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية . وفي عام ١٩٤٤ أصدر الأمير أبويوسف يعقوب المنصور وكان وقتتك فى إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد إلاعدداً قليلا منا فى التاريخ الطبيعى ، وحرم على رعاياه دراسة الفلسفة ، وحبهم على أن يلقوا فى النار جميع كتبها أينا وجدت . . وبادر العامة إلى تنفيذ هذه الأوامر ، وكان يسووهم ويحز فى نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذى كان عند بعضهم أعز سلوى لهم فى حياتهم المغينية النكدة . وفى هذا الوقت بالذات أعدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة (١٩٠٥) ، وأعرض الإسلام بعد عام ١٢٠٠ عن كل تفكير نظرى . ولما أن ضعفت القوة العباسية فى العالم الإسلام ، أعذت تتجه أنجاها مئز ايدا أن ضعفت القوة العباسية فى العالم الإسلام ، أعذت تتجه أنجاها مئز ايدا أن ضعفت القوة العباسية فى العالم الإسلام ، أهل السنة . وأمدها هوالاء بما محتاجه من هذه القوة ، نظير بحبها للتفكير الحر المستقل . ومع هذا كله فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة . فني أسيانيا كان المسيحيون يتقلمون من بلد إلى بلد ، حتى لم المضمحلة . فني أسيانيا كان المسيحيون يتقلمون من بلد إلى بلد ، حتى لم المشلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت للمسلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المسلمين الإغرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المسلمين الا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المسلمين الا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المسلمين الا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى العمرة المروها تدمر المروا

الف<mark>ض</mark>ر للسامع غارة المغسول ۱۲۱۹ – ۱۲۵۸

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغرى الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة (*) . وكان السلاجقة قد بعثوا فى بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة ، ولكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعيم ، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين مستقلتين ذواتى حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية . وكان التعصب الدينى والعداء العنصرى قد قسما الشعب أقساما شديدة التباغض والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصايبين .

وفى هذه الأثناء كان المغول الضاربون فى شمالى آسية الغربى يزداد عديدهم لقوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعابه . وكانوا بعيشون فى الحيام أو فى العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراع جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها . وكان أولئك الهون الجدد ، كما كان بنو جنسهم منذ تمانية قرون ، بارعين فى استعال الخناجر ، والسيوف ، والسهام يطلقونها من فوق جيادهم الى تسابق الربح . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم چيوڤنى ده بيانو كرپينى Cfovanni de Piano Carpini المبشر المسيحى ، فإن هولاء الأقوام كانوا و يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى المسيحى ، فإن هولاء الأقوام كانوا و يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه هران ، ولم يكونوا يشمئزون من أكل الفئران ، والقطط ، والكلاب ، ودم الآدمين ، أكثر من اشمئزاز أعظم الناس ثقافة فى هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية . ونظم چنكيز خان ـ أى الملك.

^(*) انظر مقدمة ابن علدون في هذا المني . (المترجم)

العظيم – أو لئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ مهم قوة عظيمة البأس ، وقادهم لفتح أواسطآسية الممتدة من ثهر الفلجا إلى سور الصين العظيم . وبيناكان چنكيز خان غائباً عن حاضرة ملكه في كركورم خرج عليه زعيم مغولى ، وعقد حلقا مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة . وقمع چنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله ، ولكن نائبه في أترار Otrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرين من المغول فيا وراء بهر جيحون ، وطلب چنكيز خان أن يسلم إليه الوالى من المغول فيا وراء بهر جيحون ، وطلب چنكيز خان أن يسلم إليه الوالى أعضائها محلوق اللحى ، فلم يكن من چنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ أعضائها محلوق اللحى ، فلم يكن من چنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بدلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (١٢١٩) .

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجي ابن الخان جيش محمد البالغ أريعائة ألف جندى عند جند ، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك ، ١٩٠٠ من رجاله قتلى في ساحة الوغي . وتقدم جيش مغولى الخر بقيادة چجتاى ابن الحان نحو أترار واستولى عليها وسبها ، وسار جيش ثالث بقيادة الحان نفسه إلى مجارى وحرقها عن آخرها ، وسبي آلافاً من نسائها ، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها . واستسلمت له سمرقند وبلخ حين وصل إلى أبوابهما ولكنهما لم تنجوا من اللهب والمذابح العامة ؛ وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت ووصفها بأن أكثر ها لا يزال خراثب ينعق فها البوم ، وزحف تولوى بن چنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى يه خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى خلفهم . وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت في اللهب مكتبها خلفهم . وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت في اللهب مكتبها التي كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبواها يحملون غرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلائه فرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلائه

عشر يوما هلك فيها ٥٠٠٠ ١٣٠٠ سمة (١١٧١) وقاومت نيسابور الغزاة بيسالة زمناً طويلا ، فلما استسلمت آخر الأمر (١٢٢١) قتل كل من فيها من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ما عدا أربعائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت روثوس القتلى فى كومة مروعة ، وخربت كذلك مدينة الرى الجميلة ومشاجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف ، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين المسلمين (١١٨). وجمع ابن الشاه محمد جيشاً جديداً من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ، من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب فى قلوبهم ، ونجحت وارهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا فى الحروج عليهم . ونجحت هذه الخطة .

وعاد چنكيزخان بعدئذ إلى بلاده ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسائة ، ومات في فراشه . وسير ابنه وخليةته أجتاى جيشا من ٠٠٠ ر ٣٠٠٨ للقبض على جلال الدين ، وكان قد جيش جيشا جليداً في ديار بكر . وهزم جلال الدين وقتل ، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا فساداً في أذربيجان ، وبلاد النهرين ، والكرج ، وأرمينية (١٢٣٤) . وسمع المغول أن فتنة قامت في إيران بقيادة الحشاشين ، فزحف هولاكو حفيد چنكيرخان بجيش مغولي اخترق به سمرقند ، وبلخ ، ودمر حصن الحشاشين في ألموت وولي وجهه شطر بغداد .

وكان المستعصم بالله آخر الحلفاء العباسيين في المشرق من جلة العلماء ، وكبار الخطاطين ، وكان مثال الرقة ودماثة الأخلاق ، شديد الاهمام بأمور الدبن ، وبالكتب ، والصدقات : وكل هذ هأمور لا تتفق مع ذوق هولاكو . والهم المغول الحليفة بأنه يتستر على العصاة ، ويمنع ماوعد به من المساعدة على الحشاشين ، وطلب إلى الحليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع . ورفض المتعصم هذه الطلبات بإياء وكرياء ، وحاصر المغول بغداد ، وأرسل الحليفة إلى هولاكو بعد شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح ؛ وخدع بما وعد به منالرحمة فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول ، ودخل هولاكو وجنوده بغداد فى الثالث عشر من فبراير عام ١٢٥٨ ، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوما كاملة ، فتكوا فيها بثانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض المؤرخين ، وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب ، والعلماء ، والشعراء ، ونهبت أو دمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي أنفقت في جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من الحلدات طعمة المنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن محاني ثرواتهم ، المنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن محاني ثرواتهم ، المنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن محاني ثرواتهم ، المنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن محاني ثرواتهم ،

ثم عاد هولاكو إلى منغوليا ، وبتى جيشه وراءه ، يتقدم لفتح الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التتى عند عين جالوت بجيش مصرى يقوده قطز وبيبرس من أمراء الماليك (١٢٦٠) . وزفت البشرى إلى كل مكان في بلاد الإسلام وفي أوربا نفسها ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبم ، فقد حل الطلسم وذهب الروع ، ذلك أن معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣ وكانت عاقبتها أن هزم المغول ، ونجت بلاد الشام للماليك ، ولعلها أيضا احتفظت للمسيحية بأوربا .

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات فى التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائى ما عانته الحضارة الإسلامية على أيدى المغول. لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان ، وكان فى استطاعة بلاد الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتى بعدها ، وكان الفاتحون الجرمان يكنون فى قلومهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التى يعملون على تدميرها ، ومنهم من حاول المحافظة عليها . أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا فى

أربعين عاما لا أكثر ؛ ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا ، وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا . ولما ارتد تيار فتوحهم الدموى خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً ، وقنوات للرى مطمورة ، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تذروه الرياح ، وحكومات منقسمة على نفسها ، معدمة ، ضعيفة ، لاتقوى على حكم البلاد ، وسكاناً هلك نصفهم ، وتحطمت نفوسهم . واجتمع الانغاس الأبيقورى في الملذات ، والهزال الجسمى والعقلى ، وخور العزيمة والعجز الحربي ، والانقسام الديني والالتجاء إلى المراسم الغامضة الحفية ، والفساد السياسي والفوضي الشاملة ، اجتمعت هذه العوامل كلها واثتلفت لتحطيم كل شيء في الدولة قبل الغزو الحارجي . لقد كان هذا كله واثتلفت لتحطيم كل شيء في الدولة قبل الغزو الحارجي . لقد كان هذا كله مدقعاً ، وخورابا شاملا . وأحل على مئات المدن العامرة المثقفة في الشام ، مؤرض الجزيرة ، وفارس ، والقفقاس ، والتركستان ما تعانيه في الوقت الحاضر من فقر ، ومرض ، وركود (**) .

⁽ و) لقد أخذت ثلك البلاد تنفض عن كاهلها ما كانت تعانيه من الفقر والمرض والركود ، وشرعت تعمل بجد وعزيمة لاستعادة مجدها الفابرالذي أراد هؤلاء الفزاة المتوحشون أن يقفدوا عليه . وقى بلاد آسية الغربية فى الوقت الحاضر نهضة قوية مباركة فى جميع المرافق الحيوية تبشر بأن هذه البلاد ستستعيد عما قريب ماكان لها من مئز لة سامية فى ثلك الأيام الحالية . ولقد استطاعت فى وقت قصير أن تحقق الشيء الكثير من أسباب الرقى وأن ترفع عن كاهلها ماكان يطوقها به الاستعار البنيض من قيود ، ويقيننا أنه لولا هذا الاستعار لكانت خطاها فى هذه السيل أوسع وأثبت . (المترجم)

الفصلالعاشير

الإسلام والعالم المسيحي

إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهوالكرى في التاريح. لقد ظل الإسلام خسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفي ارتفاع مستوى الحياة ، وفي التشريع الإنساني الرحيم ، والتسامح الديبي ، والآداب ، والبحث العلسي ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة . وفي العارة أسلم مكانته الأولى في القرن الثاني عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية ، ولم يجد فن النحت القوطي منافساً له في بلاد الإسلام التي كانت محرم صنع التماثيل . المندى ووحدة الطراز المملة ، ولكنه في داخل هذا النطاق الذي فرضه على المدى ووحدة الطراز المملة ، ولكنه في داخل هذا النطاق الذي فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه . وكان الفن والثقافة في بلاد الإسلام أعم فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين ، وتجاراً ، وكانوا كالأطباء ، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة .

ويغاب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية في خلال تلك القرون ، وإن لم يكن في كليهما حظ لمختار عمر أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الاقتصار على زوجة واحدة في البلاد المسيحية ، مهما بلغ من عدم التقيد مهده العادة من الناحية العملية ، فقد أبتى الغريزة الجنسية في نطاق محدود ، ورفع منز لة المرأة رفعاً بطيئاً ، في حين أن الإسلام قد أخنى وجه المرأة بالحجاب والقناع . (ولقد أفلحت الكنيسة في تقييد الطلاق ، ويبدو أن اللواط لم يبلغ في البلاد المسيحية ، ومنها إيطاليا في عهد النهضة ، ما بلغه من الحرية

والانتشار — حاشاً أن نقول في الإسلام ، بل نقول في حياة المسلمين . غير أن المسلمين ، كما يلوح ، كانوا رجالا أكمل من المسيحين ؛ فقد كانوا أحفظ مهم للعهد ، وأكثر مهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عند ما استولوا على بيت المقلس في عام ١٠٩٩ . ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلمي بالقتال أو الماء ، أو النار ، في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنبرون . واحتفظ الدين الإسلامي ، وهو أقل غموضاً في عقائده من الدين المسيحي ، بشعائره أبسط ، وأنقى ، وأقل اعهاداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحي ، بشعائره وأقل منه قبولا لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك . وهو شبيه بالمذهب البروتستني في احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لها من عنان ، (ولكنه يستسلم المنزعة الجنسية في تصويره الجنة) في ولكنه قبد العقل في الوقت الذي كانت فيه المسيحية مقبلة على الكهنوتية ، ولكنه قبد العقل في الوقت الذي كانت فيه المسيحية مقبلة على أحصب عصور الفلسفة الكاثوليكية ،

ويكاد تأثير العالم المسيحي في الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب. فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامي من نماذج مسيحية ، ومن الرهبنة ، وعبادة القديسين . ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسي وشخصيته وظهرت في الشعر والفن الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير (١٢٠) :

أما العالم الإسلامي فقد كان له في العالم المسيحي أثر بالغ مختلف الأنواع . لقد تلقت أوربا من بلاد الإسلام الطعام ، والشراب ، والعقاقس ، والأدوية ،

⁽م) لقد قال المؤلف من قبل ، فقلا عن بعض الفلاسفة ، إن ما ورد في وصف الجئة من متم جسمية يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل على أنه تقريب للمتع الروحية من أذهان الناس . (المترجم).

والأسلحة . وشارات الدروع ونقوشها ، والدوافع الفنية ، والتحف ، والمسنوعات ، والتشريعات والمسنوعات ، والتشريعات والأساليب البحرية ؛ وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها :

Orange, lemon, sugar, syrup, sherbet julep, elixir, jar azure, arabesque, mattress, sofa muslin, salin, fustian, bazaar, caravan, check mate, Tariff, tarffic, douane, magazine, Fisk, tloop barge, cable, admiral-

ويقابل هذه في العربية : البرتقال ، والليمون ، والسكر ، والشراب ، والشربات ، والجلاَّب ، والإكسر ، والإبريق ، والأزرق ، والنقش العربي ، والحشية (واللفظ الإنجلىزى مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ الإنجلنزي مشتق من الصُّفة) ، والموصلين ، والساتان ، والفستان ، والسوق . والقافلة ، والشاه مات . والتعريفة ، وحركة المرور ، والديوان ، والخزن ، والخطر ، والفارب بنوعيه ، والحبل ، وأُمِير البحار (وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية مثل Bazzar وبعضها الآخر عن العربية) . وفد جاءت لعبة الشطرنج إلى أوربا من الهند عن طريق بلاد الفرس ، واتخذب لها في طريقها أسماء فارسية وعربية ؛ فلفظ Ckeck mate مثلا مأخوذ من عبارة الشاه مات . وُبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة على أصولها السامية ﴾ ومن هذه الألهاظ lute من العود ، و rebeck من الريابة ، و guitar من القيثارة ، و tambourine من الطنبور . وقد انتقل شعر شعراء الفروسية الغزلين troubadour وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى هروڤانس فى فرنسا ، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا . ولعل الأوصافالعربية للرجلات إلى الحنة والحجم كان لها نصيب في السلاة الإلهية The Divine Comedy لدانتي. وقد دخلت القصص الحرافية ، والأعداد الهندية إلى أوربا فى زيها العربى أو صورتها العربية . والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك والطب ، وارتقوا بها ، ونقلوا هذا التراث اليوناني بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوربا . ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية ، ونذكر منها على سبيل المثال Algebra للجبر ، Zero و Zero للصفر ، Azimuth السموت و Alembic للأنبيق ، و Azimuth للسمت ، وظل أطباء العرب و عملون لواء الطب في العالم خسمائة عام كاملة ، وفلاسفة العرب هم اللدين احتفظوا لأوربا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات . وكان ابن سيناء وابن رشد نجمن لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسين الذين كانوا ينقلون علمما ، ويعتمدون على كتبما ، ويثقون بها ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهم بالنصوص اليونانية .

والقباب المضلعة أقدم فى بلاد المسلمين منها فى أوربا(١٢١) ، وإن لم يكن فى مقدورنا أن نتتبع الطريق الذى وصلت منه إلى الفن القوطى ؛ وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة ؛ وأبراج نواقيسها مدينة بالشيء الكثير إلى مآذن المساجد(١٢٢) ، ولعل زخارف النوافذ القوطية المقطعة المصنوحة من الحجارة قد أوحت بها بوائك برج الحرلدة ذات الأقواس المقتر نة(١٢٦). ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع فى إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين فى القرن الثانى عشر إلى هذين البلدين ، وإلى زيارة صناعه الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية(١٢٤) . ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج فى البندقية ، ومجلدو الكتب فى إيطاليا ، وصانعو الدروع والسلاح في أسپانيا ، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناع المسلمين(١٢٥) ، وكان النساجون فى جميع أنحاء أوربا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخلوا منها النماذج والرسوم ، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية .

وسنشرح فيا بعد بالتفصيل السبل التي جاء منها هذا التأثير الإسلامي إلى بلاد الغرب، عنر أننا نقول هنا بإيجاز إنه جاء عن طريق التجارة ، والحروب الصليبية ؛ وعن آلاف الكتب التي ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية ؛ وعن الزيارات التي قام بها العلماء أمثال جربرت Gerbert ، وميخائيل السكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث الهل الأندلس الإسلامية ؛ ومن الشبان المسيحين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليتربوا فيها ويتعلموا الفروسية (١٢٦٠ - ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون و فرسانا وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين هر(١٢٧) ؛ ومن الانصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين في بلاد المشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسپانيا . وكان كل تقدم للمسيحيين في أسپانيا الشام ، ومصر ، وفنونهم تنتقل المسلمين ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة في عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية ، وأبتى على الاعتقاد بكرية الأرض (١٢٨)

لكن نار الحقد لم تطبئ لظاها هذه الاستدانة العلمية . ذلك أن لا شيء بعد الخبر أعز على بني الإنسان من عقائدهم الدينية ، لأن الإنسان لا يحيا بالخبر وحده ، بل يحيا معه بالإيمان الذي يبعث في قلبه الأمل . ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظا على من يهدده في قدوته أو عقيدته ، ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدو نزحف المسلمين ، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحي في إثر قطر ، ويمتصون شعباً مسيحياً بعد شعب ؛ وكانوا يحسون بأيدى المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية ، ويستمعون إليهم وهم يسمون المسيحيين كفرة (*) ، وأمست المعركة المرتقبة في آخر الأمر معركة حقيقية ؛ المسيحيين كفرة (*) ، وأمست المعركة المرتقبة في آخر الأمر معركة حقيقية ؛ فاصطدمت الحضارتان في الحروب الصليبية ، وقتيل خبر ما في الشرق أو الغرب

^(*) إن الدين الإسلامى لا يقول قط بأن المسيحيين كفرة بل يعتبرهم من اللميين أهل الكتاب . (المترجم)

خيرً ما في الغرب أو الشرق ، وكان هذا العداء المتبادل عاملا فعالا في تاريخ العصور الوسطى كله ، مضفاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودى قائما بين الطائفتين المحتربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كلتهما . وخسر الغرب الحروب الصليبية ، ولكنه ربح معركة الأديان ؛ فقد طرد كل مسيحى محارب من الأرض المقلسة ؛ ولكن المسلمين ، وقد استزف النصر البطىء دماءهم ، وخرب المغول بلادهم ، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر ، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضجه ما بدل من جهود ، فنسى هزائمه ، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرق . فأقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يحوب ميادين العقل ، وحوّل فاقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحوّل فاقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحوّل فعاته الفجة الحديدة إلى أساليب دانتي وتشوسر Chaucer وقيون Villon ،

وبعد فإن القارئ العادى ستعتريه الدهشة من طول هذه الإلمامة بحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من إيجاز ضر خليق بها : و عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هي التي أنجب فيها المجتمع ، في مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيبهم في الحكم ، والتعليم ، والآداب ، واللغة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والفلسفة ، والطب ، كما أنجب الإسلام في الأربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذا النشاظ المتلألي مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة في الحكم ، والشعر ، والفن كان نشاطا مبتكراً لا تقدر قيمته . ولقد كانت هذه الذروة من بهضة الإسلام من بعض نواحيا تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية ، ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيمينية فحسب ، بل امتدت كذلك إلى بلاد البود وبلاد سليان ، وإلى أشور بلاد أشور بانيبال ، وإلى بابل حموراني ، وأكاد سرجون ، وسنومر بلد الملوك بانيبال ، وإلى بابل حموراني ، وأكاد سرجون ، وسنومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم ، وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ الذين لا تعرف أسماؤهم ، وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ الذين لا تعرف أسماؤهم ، وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ الذين لا تعرف أسماؤهم ، وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ الذين لا تعرف أسماؤهم ، وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ الذين لا تعرف أسماؤهم ، وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ

بعضها ببعض ؛ ذلك أن الأسس الجوهرية في الحضارة لا تضيع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجدب ، وهجرات مدمرة ، وحروب غربة مهلكة . بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هده الأسس فتنتشلها من هذا اللهب ، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكات ، ثم بالحلق والابتكار ، حتى ينبعث في الشعب الناشيء شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء في مجتمع ، والأجيال لحظات في تسلسل الأسر ، فإن الحضارات وحدات في كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ؛ فهي مراحل في حياة الإنسانية . إن الحضارة متعددة الأصول ، وهي نتاج تعاوني لكثير من الشعوب ، والطبقات ، والأدبان ؛ وليس في وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فإن العاليم وإن كان مواطئ في بلده يحبه لما يزبطه به من صلات وثبقة ، يحس أيضاً بأنه مواطن في بلد العقل ، الذي لا يعرف عداوات ولا حدوداً . وهو لا يكاد يكون خليقاً باسمه إذا ما حمل معه في أثناء دراسته أهواء سياسية ، أو نزحات عنصرية ، أو عداوات دينية ؛ وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغني تراثها شكره وإجلاله :

المراجسع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع مجملة في الجزء الأولى ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم الحجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل. أو الآية في القرآن . أو الكتاب المقدس .

CHAPTER VIII

- 1. Burton, Sir R., ed., Thousand
 Nights and a Night, I, vii
- Hell, J., The Arab Civilization,
 Dawson, Christopher, The Making of Europe, 136.
- 8. Encyclopaedia Britannica, II, 184
- 4. Doughty, Chas., Travels in Arabia Deserta, I, xx.
- 6 Margoliouth, D. S. Mohammed and the Rise of Islam, 29; Nodek, Shelethes, 7.
- Burton, R.F., Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinal and Meccak, II, 98.
- 7. Blunt, Lady A. and Sir W. S., The Seven Golden Odes of Pagan Arabia, 43.
- 8. Ibid.
- tr. and ed. Pickthall, The Meaning of the Glorious Koran. Pickthall's numbering of the verses differs occasionally from that of other translations.
- 10. Sale, G., in Wherry, E.M. Commentary on the Qur an, with Sale's tr., 1, 43.
- 11. Herodotus, ili, 8.
- الطيرى -- المقدمة 120

Margoliouth, Mohammed, 59,

Muir, Sir W., Life of Mohammed 512.

- 13. Browne, E. G, Literary History of Persia, I, 261.
- الطبرى الجزء الثالثُ الفصل السادس 14. والأربعون ص ۲۰۲
- 15. Pickthall, p. 2.
- 16. Browne, Literary History, I, 247.
- 17. Tiedall, W. S., Original Sources of the Karan, 264, Poole, S., Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed' xxiv.
- Nicholson, R. A., Translations of Eastern Peetry and Prose, 38-40. Cl. Koran, xcvi.
- 19. Muir, Life, 51.
- القرآن الكريم 20.
- 21.· II, 91.
- 22. Lxxxvii, 6.
- Ali, Maulana Muhammad, The Religion of Islam, 174.
- 24. Macdonald, D. B., Rilegious Attitude and Life in Isim, 42.
- 25. Margoliouth, Mahammed, 45.
- 96. Dozy, R., Spanish Islam, 15.
- Hell, 19.
 Saie in Wherry, I, 80.
- البلاذري .29
- 80. Ameer Ali, Sayed, Spirit ofisiam. 54.
- · 81, Muir, Life, 214, 234,

23. lbid., 286.

33. Ibid., 238, quoting traditions.

34. Ibid.

85. Andrae, Tor, Mohammed, 206; Muir, 2451, quoting Ibn Hisham and al-Tabari.

36. Ameer Ali, Spirit of Islam, 58f. £7. Muir. 252f.

البلاذري 88.

المبدر مينه 39.

40. Amer Ali, 94.

41. Andrae, 288.

49. Macdonald, D. B., Development of Muslim Theology, Juris - prudence, and Constitutional Theory 691

القرآن 43.

القرآن 44.

45. Andrea, 267.

القرآن .46

47. Muir, 77, 244.

القرآن 48٠

49. Muir. 201.

50. Bukhsh, S. K., Studies, Indian and Islamic, 6.

51. Muir, 511.

52. Lane - Pool, Speeches, xxx.

53. Ameer Ali, Spirit of Islam 110.

54. Bukhah, Studies, 6.

55. Irving, W. Life of Mahomet, 238

56. Margoliouth, 105: Irving, 231.

القر آن .57

الحلستان للسمدي .88

69. Margoliouth, 458.

60, Gibbon, V, 254.

61. Margololouth, 466.

CHAPTER IX

سورة الرحمن 1.

2. Lane - Poole, Speeckes, 180.

القرآن الكريم 3.

الالرآن الكريم 🌯

القرآن الكريم 5٠

القرآن الكريم 6٠

7. Margoliouth, 69.

8. القرآن الكري Lane-Poole, 157

9. lbid. 158.

10. Ali, Maulana M., Religion of Islam, 587.

11. Lane-Poole, 161, 163.

12. Ibid., 162.

13. Ibid.

14. Ali, Manlana, 890.

القرآن 15.

16. Ali, Manlana, 655.

القرآن .17

18. Ali, 602.

القرآن الكريم 19.

القرآن الكريم .20

21. Pickthall, p. 594 n.

22: Lane-Poale, 161.

القرآن الكريم .23

24. Ameer All, 183.

52. Lane-Poole, 167.

26. Quoted in Muir, Life; 520.

27. Lane-Poole, 159.

28, Ibid.

29. Sale in Wherry, I, 122.

E.g., Deut. xviii, 15-18; Hag. ii,
 Songa, ii, 8, xxi, John xvi,
 12-13.

81, Talmud, Pirk Aboth il, 18.

82. Nöldeke, Sketches, 44.

القرآن . Talmud, Sanh., ii, with Ber., i, 9, and Nöldeke, 31.

34. Lane-Poole, xi.

35. Bevan, E. R., Legacy of Israel, 147, Hitti, P. K., History of the Arabs. 125.

- 36. Baron, S.W. Social and Religious History of the Jews, 1, 835-7.
- 37. Hurgronje. C. S., Mohammeda nism. 65.

CHAPTER X

- 1. Cambridge Medieval History, II, 331.
- 2 Burton, Personal Narrative, 1,149.
- 3. Finaly, O., Greece under the Remans, 867.
- 4. Muir, Sir W., The Caliphate, 56.
- 5. Ibid., 57,
- 6. Ibid., 189.
- 7. Hitti, 176.
- 8. Gibbon, V, 296.
- 9. Macdonald. Development of Musim Theology, 23.
- 10. Hittl, 197.
- 11. Sykes, Sir P., Eistory of Persia, I, 538,
- 12. Hell, J., 59 60.
- 18. Meir, Caliphate, 376; Hittl, 929.
- 14. Dozy, 161. Hitti, 227.
- 15. Muir. Callphale, 428-37, Hitti,285
- 16. Nöldeke, 132.
- الماستان 17.
- 18. Burton, Sir R.F., The Thousand Nights and a Night 1, 186.
- 19. Palmer, E.H., The Caliph Haroun Alraschid, 80, 78,
- Arnoid, Sir T. W., Painting in Islam, 16.
- 21. Abboit, Nabla, Two Queens of Baghdad, 183.
- 22. Muir, Caliphate, 482.
- 28. Palmar, 221.
- 24. Ibid., 85, Abbott, 118.
- الرامكة .Palmer, 81f
- ابن خلنون المقسة .26
- 7. Hitti, 300.

- Eginhard, Life of Charlemagne^c xvi, 3.
- الرامكة Palmer, 121.
- 30. Nicholson, R.A., Translation of Eastern Poetry and Prose, 64.
- العتبى : الكتاب الهيني 31.
- 32. Saladin, H., et Migeon, G., Manuel d'art musulman, I, 441.
 - CHAPTER XI
- Lestrage, O., Palestime under the Moslems, quoting Masudi, ii,48.8
- 2. Hitti, 851,
- 3. Milman, H. H., History of Lain Christiainty, III, 65n.
- 4. Lane, E. W., Arabian Society in the Middle Ages, 117.
- 5. Usher, A. P., History of Mechanical Inventions, 178-9.
- De Vaux, Baron Carre, Les Penseurs d'Islam, I, 8.
- 7. Barnes, H. E., Economic History of the Western World, Ill.
- 8. Renard, G., Life and Work in Prehistoric Times, 118.
- 9. Hitti, 344.
- 10. Thompson, J. W., Economic and Social History of the Middle Ages, 873.
- أبن خلمون المقدمة 11.
- 12. Hitti. 348.,
- 18. Muir Caliphate, 601.
- 14. Hitti, 344.
- 15. Hurgronje, 128.
- 16. Browne, E.G., Literary History
- 17. Ibid., 318.
- 19. Browne, I, 223; Muir Caliphate, 510.
- 20. Nöldeke, 146-75.
- 21. Arnold, Painting in Islam, 104.
- 29. Guillaume, A., The Traditions of Islam, 13.
- 23. Ibid., 134-8; Becker, C. H., Christanity and Islam, 62.

- 24. Guillaume, 47-52, 77.
- 25. Margoliouth, Mohammed, 80.
- 26. Guillaume, 80.
- 27. Sykes, I, 521.
- 28. Andrae, 101.
- 29. Sale in Wherry, I. 172.
- 80. Ali, Maulana, 780.
- 3:. Philby, H., A Pligrim in Arabia
- 82. Doughty, I, 59.
- 33. Burton, Pilgrimage, I, 325,
- 34. Ali Maulana, 529.
- 35. Burton, Pilgrimage, il, 68; Sale in Wherry, I, 185.
- 86. Graetz, H., History of the Jews, Ill, 87; Hitti, 284.
- 37. Lestrange, Palestine, 212; Arnold, Sir T. and Guillaume. A., The Legacy of Islam 81.
- 38. Baron, S, W., History, I. 819.
- 39. Quillaume, 132...
- 40. Catholic Encylopedia, VIII, 459.
- 41. Becker, 32,
- 42. Hittl, 685; Sarton, O., Introdution to the History of Science. Vol. 11, Part 1, 80.
- 48. Westermarck E., Origin and Development of the Moval Ideas, II, 476.
- 44. Kromer. A. von, Kulturgesezichte des Orients unter den Khallfen, 52.
- 45. Abbott, 68.
- 46. Lane, E. W., Arabian Society, 219-20.
- 47. Bukhsh, S. K., Sindies, 83.
- 48. Hitti, 239.
- 49, All, Maulana, 890.
- 50. Lane-Poole, S., Saladin, 247.
- 5i. Macdonald, D. B. Aspects of [slam, 294; Ameer Ali, Spirit of Islam, 262.
- 59. Müller-Lyer, F., Evolution of Modern Marriage, 42.
- 53. Lane-Poole, Saladia, 217.
- 54. Ibld., 251; Sumner, W. G. Folkways. 253.
- 55. Lane E. W. Arabian Society,221

- 56. Ibid., 223,
- 57. Hitti, 342.
- 58. Bukhah, Studies, 88.
- 59. Abbott, 187, 149.
- 60. Bukhsh, 84.
- الغرالي ، كيمياء السعادة 61.
- 69. Himes, N. E. Medical History of Contraception, 136.
- 68. Lane-Poole, Saladia, 415.
- 64. Quillaume. Traditions, 115,
- 65. Westermarck, Moral Ideas, I,94.
- 66. Sale in Wherry, I, 168.
- 67. Hitt. 388.
- 68. De Vaux, II, 272 f; Chardin, Sir J. Travels in Perias, 198.
- 69. Muir, Caliphaie, 374.
- 70. Ibid., 519.
- 71. Lane, Saladin. 285.
- 8L. Bury, J. B., History of the Eastern Roman Empire. 826.
- 78. Hintgrouje, 98.
- 74. Macdonaid, Muslim Theology, 84 Guillaume, 69; Burton. Personal Narrative, I, 148, 167,
- Arnold and Guillaume Legacy. 305.
- 76. Macdonald. Theology, 305.
- 77, Muit, Caliphate, 170.
- 78. Lestrange, Palestine, 24.
- 79. Hitti, 236 f.
- 80. In Lostrange, 120.
- 81. Ibid., 842.
- 82. Ibid 361.
- 83. Ibid., 295-201, 212, 348, 853, 361 277.
- 84, Ibid., 965.
- 85, Ibid., 287.
- 86. Creswell, K. A. C., Early Musslim Architecture, 1,187; Rivoiria O. T., Moelem Architecture 110.
- 87. Yaqub, ii, 587, in Lestrange,
- 88. Lane, Saladin, 184.
- 89. Ameer Ali, Spirit of Islanm, 389.
- 90. Baron, I, 320.

أبوالفدا في 10.

The Troubadours and the Courts of Love, Rowbotham, J.E.: 16n.

- 92. Lestrange, G., Baghdad during the Abbasid Caliphate, 253.
- 93. Lane, E. W., Arabiam Society, 203.
- 94. Lane Poole, S. Studies in a Mosque, 185.

CHAPTER XII

- 1. In Ameer. All, Spire of Islam, 331.
- 2. Lane, Saladin 85.
- 3. Lane-Poole, S., Cairo, 188.
- 4. Hitti, 409.
- 5. Macdonald, Aspects of Islam,
- 6. Bakhah, Studia 195.
- 7. Carter, T. F. The Invention of Printing in China, introduction and p. 85; Thompson, Sir E. M., Introduction to Greek and Latin Palaeography, 34; Barnes,
- 8. Bukhsh. 49.50.
- 9. Ibid., 197.
- 10. Gibbon, V, 411.
- 11. Browne, Literary History, 1,275.
- 12. Pope, Mosterpices of Persion Art. 151.
- 13. Sarton, I, 662.
- 14. Cibbon. V, 298.
- تاريخ الطبري ج ١ .15
- المصدر عينه 16
- المصادر عيته 17.
- 18. Sarton, I, 637.
- 19. De Vaux, I' 78.
- ابن خلفون الحزء الأول 20.
- 21. Sarton, I. 530.
- 22. Arnold and Gullfaume, Legocy 385.
- 23. Sarton, I. 602.
- 24. Bukhsh, 168.
- 25. De Vaux, II, 76.
- 26. Ibid., 78. :
- البيروني ٧٨ .97

- البيروثى 28.
- 29. In Boer, T. J. de, History of Philosophy in Islam. 146.
- 30. De Vaux, II, 217; Arnold and Guillaume, 895.
- البيرونى ء31
- 32. Bukuh, 181.
- 33. Sarton, I, 707.
- 34, Ibid., 693.
- 35. Lane, Arabian Society, 54 n.
- اين خلدون الجزء الثانى .36
- 37. Thompson. J. W., Economic and Social History, 358.
- 38. Grunebaum, G. von, Medivai Islam, 381.
- 39. Ameer All, Spirit of Islam, 392.
- 40. Kellogg. J. H. Rational Hydrotherapy 1928, 24.
- 41. Ibid.
- 42. Lane, Arabian Society, 56.
- 43. Garrison, F., History of Medicine, 1929 137.
- 44. Arnold and Onillaume, 336,
- 45. Bukhsh, 197.
- 46. Hitti, 364.
- 47. Ibid.
- 48. Campbell, D., Arabian Medicine
- 49. Sarton, I 609.
- وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول .50

صن ١٤٠

- المرجع عينه ص 51. \$\$
- in Draper. J. W., History of the Intellectual Development of Europe, 1, 411.
- 53, John. J. 1-8.
- 54. Bukhsh, 59.
- 55. Boer, 101; Amold and Guiliaume, 255.
- 56. Arisotle De Anina, iii, 5,
- 57. Macdonald, Muslim Theology, 150
- 58. Barhebraeus in Granebaum, 182;

Hitti, 958 ; Muir Caliphate, 521.

59, in Ameer Ali, Spirit of Islam, 408.

60. Dawson, 155.

ابن خلدون 🏎 6:

69. G'Leary DeL., Arabic Thought and Its Place in History, 153,

68. Ueberweg, F., History of Philosophy, I, 412.

64. De Vaux, IV, 12-18.

65, Boer 128.

66. Ibid., 81f.

67. Husik, I., History of Medieval Jewieh Philosophy, xxxix.

68. Salibu, D., Etude sur la metaphysique d'Avicenne, 21.

 Ibid., 106, 114, 121, 151; Hastings Encycloped of Religion and Ethics, XI, 275-6; Boer, 186.

70. Saifbu, 170; Gruner, O. C. Tpeatise on the Canon of Medieine of Avicenna, introd., p. 9.

71. Beer, 188 - 42.

72. Salibu, 208.

78, ln Ameer All, 895.

74. Boer, 144.

75. رسم البلافرى ج السر Bocon, Roger, Opus Maius, tr. R. B. Burke, Vol. I, p. 15.

76. Salibu, 27.

77. Arnold and Guillaume, 811.

قانون ابن سینا ص ۱۱۸ ، 78.

79. In Nichoison, R. A., Mystics of Islam, 7.

ابن خلدون ،80

81. Browne, Literary, 1, 426.

82 Hitti, 435.

83. Nicholson, R. A., Studies in Mysicism, 4-5.

84. Macdonald, Religious Attitude, 169-21.

Nicholson, Studies in Mysticism, 78.

85. Ibid., 25.

86. Arnold and Quillaume, 219.

87. Hitti, 438.

88. Browne, II, 265.

89. Nicholson, Studies in Mysticism, 6-21.

90. Id., Translations of Eastern 98-100.

91. In Browne, II, 265.

92. Nicholson, Mysticism, 28-81, 38.

93. Browne, I, 404; Dawson, 158.

94, Hitti. 443.

مروج الذهب للمسعودى الترجمة الفرنسية .96 ج 4 ص ٨٩

97. Lane-Poole, Cairo, 154.

98. Nicholson, Studies in Islamic Poetry, 48,

99, Id., Translations. 38.

100. Nicholson, R. A: Literary History of the Arabs, 295;

ابن خلکان ج ۱ ص ۳۹۳

101. De Vaux, IV. 252.

102. Browne, I, 869.

103. Nicholson, Islamic Poetry, 183-7

104. Rihani, A: F., The Quatrains of Abu'l Ala (al-Ma'airi), vii.

105. Nicholsan, Literary, 319.

106. Id., Islamic Postry, 148.

107. Ibid 102, 145, Rihani, 120.

108. Nicholson, Islamic Poetry, 108.

109. Ibid., 191-2.

110. Ibid., 121.

111. Id., Translations, 102.

112. Id., Islamic Poetry, 150.

113. Ibid., 160.

114. Ibid., 161-5.

115. Id., Translations, 102.

116. Id., Islamic Postry, 119.

117. Ibid., 127.

118. Id., Translations, 102.

- 119. Id., Islamic History, 140
- 120. ln Browne, II, 120.
- للفردوس الحديثامة 121.
 - الفرادوسي الشاهنامة 122.
 - نفس المرجع ترجمة اتكنسن وقد 123. ترجمه ماثيو آرنله في سهراب ورسم
 - 124. In Pope, Survey of Persian Art, II, 975.
 - 125. Cf. ^dThe Nazarene Broker's Story" in Burton, *Thousand Nights and o Night*, 1, 270.
 - 126, Pope, Survey, II, 1439,
 - 127. Lane-Poole, Saladin, 29,
 - 128. Lane Arabin Society, 54-61.
 - 129. Pope, II, 927; Heli, 109.
 - 130. Creswell, 1' 239.
 - 131. in Lane, Arabian Society, 58.
 - 182. Pope, II, 975.
- 183. Pope, IV 317-28.
- . 184. Pope, Arthur U., Introduction to Persian Art, 200.
 - 135, Arnold and Guilaume, 117,
 - 136. Pope, II, 1447.
 - 137, Fenoliosa, F. F., Epochs of Chinese and Jupanese Art, I,21; Pope, Survey I, 2.
 - 188, Pope, II, 1468.
 - 189. Guillaume, 128.
 - 140. Encylopeadia Britannica, XV, 654.
 - 141. ibid .; Hitti, 420.
 - 142. Arnold, Painting in Islam, 85.
 - 148. Ibld., 21.
 - 144. Lane, Arabian Society, 117-
 - 145. Ibid. 15.
 - 146. Hitti, 274.
 - 147. Farmer, H. C., in Arnold and Guiliaume. 358.
 - إلحلستان 148.
 - 149; In Arnold and Guillaume, 859.
 - 150. Farmer in Arould and Guillaume, 867.
 - 15]: Ibid., 372.

- 152. Ibid., 861; Farmer, H.O., History of Arabian Music, 154.
- 153. Farmer in Arnold and G., 359.
- 154, Hitti, 214.
- 155. Farmer, 31,
- 156, lbid., 112.
- 157. Ibid., 60-4; Lane-Poole, Calro,
- 158. Farmer, 120.
- 159. Ibid., 124.
- 160. Lane, Arabian Society, 172-6,.
 CHAPTER XIII
 - 1, Gibbon, V, 344.
 - 2. Sarton, I, 466; II (ii). 599.
 - 3. Ueberweg, I, 409.
 - 4. Tarn W.W., Hellenistic Civillization, 217 Sarton, 1, 466.
 - 5, Gibbon, V, 346,
 - 6. Munro, D. C., and Sellery, G., Medieval Civilization, 170.
 - 7. Lane-Poole, Cairo, 65.
 - 8. Browne, II, 228.
 - 9. Hitti, 625,
 - Browne, II, 223, Margoliouth,
 D.S., Cairo, Jerusaiem, and
 Damascus, 46.
 - 11. Nöldeke, 8.
 - 12: Hitti, 626. .
 - 13. Arnold and Gullillaune, 168.
 - Pope, Arther U., Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture, 287.
 - 15. Lane, Arabian Society. 541.
 - 16. Laze-Poole, Cairo, 44. 60.
 - 17. Pope, II, 1488.
 - 18. Arnold and Gullaume, 116.
 - Dimand, M. S., Handbook of Muhammadan Art, 255; Arnold, Paining in Islam, 127.
 - 20. Margoliouth, Cairo, '69.
 - 21: Arnold and Onillaume, 333.
 - 22. Arnold, Sir T.W., The Preaching of Islam, 103.

- 23. Pirenne, Henri, Mohsmmed and Charlemagne, 160f.
- 24. Hitti, 606.
- 25. Waern, Cecilia, Medieval Cicity,
- 26. Arnold and Guillaume, 241.
- 27. Waern, 25,
- 28. Calvert, A.F., Moorish Remains in Spain, 239.
- المقرى في نفح الطيب 29 ا
- المسادر عبنه 30٠
- المصدر عينه 31.
- 32. Dozy, 458 65.
- المقرى .83
- 84. Dozy, 516.
- 35. Ibid., 522; Calvert, A.F., Seville 11
- 87. Lane Poole, S., Story of the Moors in Spain, 34.
- 88. Dozy, 688, 689:
- المقرى .39
- 40. Dozy, 284.
- 41, Gibbon, V, 876.
- 42. Chapman.C.,F., History of Spain, 53.
- 43. Ibid., 41; Dozy, 236; Laue-Poole, *Moors*, 50.
- 44. Chapman, 41.
- 45. Clapham. J. H., Power, E., Cambridge Economic History, of Europe, 136; Barnes, Economic Bisory, 114.
- -46, Clapham, 354-5, Thompson, J.W., Economic and Social History, 547.
- 49. Cambridge Medeival History, III, 482.
- 49. Pirenne, Jacques, Les grands
 Courants de l'histoire universelle,
 Il. 117.
- 50. Ibid , 19.
- 51. Arnold. Preaching, 184; Dozy, 235.
- 52. Chapman, 49, 58.

- 53. Dozy, 268.
- 54. Ibid.
- 55. Arnold, Preaching, 144.
- 56. Dozy, 285, Lane-Poele, Moors, 47
- 57, Rivoira Moslem Architecture, 240.
- 58. Dozy, 278.
- 59. Ibid., 286.
- 60. Aronld, Preaching, 141.
- 61. Dozy 584.
- المقى ع. 62.
- 63. Thompson. J.W., Economic and Social History, 549.
- المقرى -64
- المصدر عينه 65.
- 66. Calvert, Moorish Remains, 189.
- 67. Calvert, A.F., Cordova, 107.
- المقرى -68
- 69. Dozy, 4g5; Chapman, 50,
- 70. Pirenne, J., II, 20,
- المقرى 71.
- 72. In Dozy, 576.
- 78. Sarion, I, 713.
- 74. Dozy, 281.
- المقرى .75
- 76. Arnold and Guillaume, 186.
 - 77. Dozy, 326.
 - 78. Ibid.
- 79. Tr. by Dulcie Smith in Van Doren, Mark, Anthologyof World Poetry, 99.

CHAPTER XIV

- 1. Browne, II. 176,
- 2. Ibid., 177; Gibbon, V, 17.
- Browne, II, 190.
- 4. Marco Polo, Trovels, i, 24.
- 5. Ameer Aly, Spirit of Islam, 813.
- 6. Hittl, 446.
- 7. Thompsom, J.W., Economic and Social History, 391; Arnold, Preaching, 96.

- 8. William of Tripoli inLane-Poole, Cairo, 84.
- 9. Hftti, 679.
- 10. Adams, Brooks, Law of Civilization and Decay, 128,
- 11. In Lane-Poole, Cairo, 27.
- 12. Irving. W., The Alhambra, 44.
- 13. Lane-Poole, Moors, 225.
- 14. Pope, Introduction, 30; Pope, Survey, II, 1048,
- 15, Cf. Migeon, O., Les aris musulmans, II, 11.
- 16. Fry. Roger, in Persian Art:
 Souvenir of the exhibition of
 Persian Art at Burlington Bonse
 xix.
- 17. Dillon. E., Glass, 165.
- 18. Lane, Arabian Society, 200.
- 19. Pope, Masterpleces, 65.
- 20. Dimand, Handbook, 280.
- 21. Time Magazine, Ian. 23, 1989.
- 22, Arnold, Painting, 127.
- 23. N. Y. Times Book Review, May 19, 1940, p. 2.
- 24. Bukhsh, 96.
- 25. Nicholson, Translations, 116.
- ابن خلدون 26.
- المصدر عينه 27.
- 28. Browne, II, 875.
- 29. Ibid., 392.
- 30. Sarton, I, 759.
- 31. Ibid., II (1), 8.
- 82. Ibid., I, 760.
- 33. Browne, II, 246.
- 34. Nicholson, Islamic Poetry, 4-5.
- 85. Weir, T.H., Omar Khayyam the [Post. 21.
- 26. Nicholson, Islamic Mysticism, 1.
- 37. Browne, II, 108.
- 38. Ibid , 256.
- 89. Heron-Allen, Edw., in Houstma,

- M., ed., Encyclopepia of Islam, III, (ii), 988.
- 40. Weir, 16; Nicholson, Islamic-Poetry,5.
- 41. Browne, II, 249.
- Quatrain cxv of the Bodleian-MS. in Weir, 36.
- 43. Weir, 71,
- 44. In Browne, II, 247.
- 45. Smith.Margaret,ed., The Persion-Mystics: Attar, 20-7.
- جلال الدین الرومی ، مختار ات من دیوان .40. شمسی تبریزی
- المصدر عينه ٧١ م. 47.
- المصدر عينه ٧ ٤ . 48.
- 49. Sarton, II (ii), 872.
- 50. Browne; II, 521.
- ألسمني .51
- السعدى في الحلستان . 52
- المصدرعيته .68
- 54. In Browne, II, 580.
- الحلستان .55
- 56. Bustam in Crousset, R., The Civilizations of the East, Vol. 1: The Near and Midple East, 272.
- الحلستان ۱۲ .57
- 58. W Y
- 59. YV Y
- 60. 2 · Y
- 61. Y- 1
- 62. 0 0
- 63. 4 0
- 64. Y. Y
- --- ,

£ -- Y

65.

- 66. YI Ņ
- 67. Th h
- 68. £ 1
- 69. A Y
- 70. 4.- 4

71. Browne. II, 534.

72. Grumebrum, 39,

78. Sartone, Il (i), 12.

74. Ibid., 216.

75. Ibid., 27; II (ii), 632.

76. Ibid., II (i), 31.

77. Margoliourth, Cairo, 220.

78. Sarton, II, (II), 1014.

79. lbid., II (i), 51; II (ii), 668.

80. Ibid, II (i), 424.

81. Hitti, 686.

82. Sarton, II (i), 282.

83. Carrison, 136.

84. Lestrange, Baghdad, 104.

 Carrison, 136; Hell, 117; Lane-Poole, Cairo, 34, Margollouth, Cairo, 124-9, Hitti, 677.

86. Baron, S., ed., Essays on Maimonides, 112

الغز إلى 87.

الغزالي (التمانت) 88.

89. Macdonald, Muslim, Theology, 230.

90. Asin y Palacios, Mihuel, Islam, and the Divine Comedy, 273-5.

السعدى - الحلستان . 91.

92. Muir Galiphate, 146.

· 93. Arnold, Painting, 54.

94, Becker, 31.

 Boer, 175; Duhem, P., Le systèmedu monde, IV, 522, 528;
 Macdonald, Muslim Theology, 250.

أبو بكر بن طفيل - حي بن يقظان 96.

الممدرعينه 97.

97. In Renan, E., Averroes et l'averrolisme, 16.

99. Sarton, II (i), 305.

این رشد .100

المصدرعيته 201.

102. اين رشد Gilson, E., Reason and

Revelation in the Middle Ages, 40f.

ابن رشد .103

104. Sarton, II (1), 358.

ابن رشد .105

106. Commentary on Aristotle's Melaphysics, xii, in Renan, 108.

Commentary on Aristotle's Physics, viii, in Renan, 112; Duhem,
 IV. 549.

108. De Vaux, IV, 70.

109. Commentary on Aristotle's De Anima, bk. ili, fin Renan, 122; Duhem, IV, 573.

in Renan, 187n. التبانت

111. In Renau, 143.

112. Ibid., 146.

118. Arnold and Gullaume, 277 - 9; Tornay, S. C., Averroës' Doctrine of the Mind, Philosophical Review, May, 1943, 282n.; De Vaux, IV, 71; Duhem, IV, 566.

114. Racon, R., Opus malus, i, 6; De Vaux, IV 87.

115. Renau, 32.

116. In Browne, II, 440.

117. Ibid., 489.

118, Pops, Survey, II, 1649.

119. Lestrange, Baghdad, 850; Browne, II; 460,

120. Cf. Arnold, Painting, 99.

121. Pope, Survey, II, 1044.

122. Burton, Personal, Narrative, 90-2

128. Arnold and Gullaume, 166.

124. Encyolopaedia Britannica, XVIII, 389.

125. Arnold and Guillaume, 121; Pope, Introduction, 241; Eucyclopaedia Britannica, XV, 657.

126. Dennis, Oco., Cities and Cometeries of Etruria, I, 37.

127. Brone, II, 432.

128. Arnoid and Guillaume, 98.

حقوق الطبع محفوظة

وَلَارُلْ فِي سَلَى : من، ب، ١٣٤٧ ـ ت: ١٦٦١٥٨ ـ ت : ١٦٠٤٦ ـ تكسن، ١٣٤٣ ـ المعنوان البرقي : دل مهالم سبب - بيدست - لبناست

الفهيرس

الكتاب الثاني ــ الحضارة الإسلامية

ā-dadi	الموضوع المش					
ھة ,,, ئ ي	١ - مقدمة التر					
ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية						
الباب الثامن : محمد (صلى الله عليه وسلم)						
جزيرة العرب	الفصل الثانى : الفصل الثالث :					
الباب التاسع : القرآن (الكريم)						
شكله شكله						
المقائد ۳ ۳ المقائد الخلاق ٩ ٥	_					
القرآن والدين والدولة المرآن والدين والدولة	_					
الباب العاشر: سيف الإسلام						
ألحلفاء الراشدون ٧٠ ١٠٠ الحلفاء الراشدون	*					
الخلافة الأموية ٨١						
الخلاقة العباسية ٨٨	الفصل الثالث:					
۱۰ هزون الرشيه ۱۰۰ ۰۰۰ ۰۰۰ ۰۰۰ ۰۰۰ ۰۰۰ ۰۰۰						
أربينية ١٠٤٠	الفصل الرابع :					

العبقسة	الموضوع							
الباب الحادى عشر : أحوال البلاد الإسلامية								
الاقتصادية ١٠٠٠	النسل الأول : الحال							
	القصل الثانى : الإيماد							
178	القصل الثالث : الشعب							
180								
107	الفصل الخامس : المدن							
الباب الثانى عشر: الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية								
137	الفصل الأول : التمليم							
144	الدمسل الثائى : الملوم							
TAA								
11V	~							
ف والإلحاد بي ٢١٤	القصل الحامس : التصو							
YYY								
Y71								
767	الفصل الثامن : الموس							
الباب الثالث عشر : الإسلام في الغرب								
إفريقية المريقية	الفصل الأول : فتح							
رة الإسلامية في إفريقية أ و و ٢٦٩	القصل الثانى : الحضا							
م في اليحر المتوسط د ب ٢٧٧	الفصل الثالث : الإسلا							
م في أسهاليا من من من من من الم	الفصل الرابع ۽ الإسلا							
الخلفاة والأمراء								
الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية ٢٩٢								
الباب الرابع عشر : عظمة المسلمين واضمحلالهم								
٥ الإسلامي	القصيل الأول : الشرة							
رن في النرب ۲۲۳								
•	•							

المغمة					الموضوع										
444	•••	•••	•••	•••	•••	•••	لامي	الإسا	، الفن	الحلفة في	ت خا	نظر اء	:	الثالث	القصل
444		•••	•••	•••		•••	•••	•••	•••	لخيام	عر ا	غصر	:	الر ابع	الفصل
414	•••			•••	•••	•••	•••	•••	•••	دی	السعا	عصر	:	الخامس	القعدل
707	•••	•••	•••	•••	***	•••		•••	•••	مين	المد	علوم	;	السادس	القصال
777	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	لديئية	يضة ال	، وال	الغزالم	:	السابع	الغصال
411				•••	•••	•••	***	•••	•••	•••	ر شد	أين	:	الثامن	القصل
441	•••	•••	•••	•••	•••	•••		•••	•••		المغول	غارة	:	التاسع	القصل
444	•••	•••	•••	•••	•••		•••	•••	سيععى	مالم الم	ېم و ال	الإسلا	:	الماشر	الغصل
444		***	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	***	•••	•••	•••	•••	المراجع

فهرس الصور والخرائط

رتم الصفحة			مدلولها	رتم الصورة أو الحريطة		
الكتاب	أول	ن	قبة الصخرة	١	الشكل	
108	ص	أمام	منهر المسجد الأقصى	*		
١٠٨	n	n	المسجد الأموى بدمشق	٣	1)	
١٠٨	19	ŋ	نقش بارز على الصخر. ببلاد الشام	٤		
٧٧٠	ŋ	n	معن الجامع الأزهر بالقاهرة	6	,	
4.5	n	1)	داخل مسجد قرطبة	*	•	
			بهو السباع في قصر الحمراء بفرياطة	Y		

مقدمة الترجمة

ب إندار من الرحم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله (وبعد) فهذا هو الجزء الخاص بالحضارة الإسلامية من المجلد الرابع من قصة الحضارة ، وهو المجلد السمى و عصر الإيمان » ، وقد عانينا في ترجمته من الصعاب ما لم نعانه في سائر ما ترجمناه حتى الآن من أجزاء الكتاب البالغ عددها نحو عشرين جزءاً ما طبع مها وما لم يطبع . ذلك أن المؤلف قد نقل الشيء الكثير عن المؤرخين ، والأدباء والشعراء ، والعلماء ، ورجال الدين ، والفلاسفة ، والمتصوفة ، والحكماء . فليس في الكتاب صفحة تخلو من نص منقول عن واحد من هؤلاء ، وقد يكون في الصفحة الواحدة ما لا يقل عن عشرة نصوص . هذا إلى ما ورد فيه من أسماء هؤلاء جميعاً وأسماء موالفاتهم ، والمدانهم ، وأصدقائهم ، والملوك ، والسلاطين ، والأمراء ، والوزراء الذي اتصلوا بهم ؛ وكان لابد لنا أن نرجع في هذا كله إلى المصادر العربية وترجمها الأجنبية التي نقل عها المؤلف وأشار إلى بعضها ولم يشر إلى البعض الآخر ، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء المصادر أولا يشر إلى البعض الآخر ، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء المصادر أولا .

على أن هذا ليسهو كل شيء ، فقد كانت أسماء من نقل عنهم ترد أحياناً عرفة تحريفا يتطلب تصحيحه الكثير من الجهد . وكم من نص نسب إلى غير قائله لخطأ في المراجع التي نقل عنها المؤلف ، كالأبيات التي يعزوها نقلا عن أمن الريحاني لأبي العلاء المعرى وليست هي له بل من أقوال محيي الدين بن عربي ، والتي كان علينا أن نتصل من أجلها بنيورك لنبحث فيها عن نسخة عربي ، والتي كان علينا أن نتصل من أجلها بنيورك لنبحث فيها عن نسخة .

من كتاب و رباحيات أنى العلاء » ، لأمن الريحاني لأنا لم نجده في مصر . وأكثر من هذا أن المؤلف ينقل في كثير من الأحيان عن تراجم المستشرقين للكتب العربية ، وهؤلاء قد يطلقون عليها أسماء غير أسمائها العربية أو يترجمونها ترجمة يصعب معها الاهتداء إليها كتسمية الجزء الأول من كتاب نفح الطيب للمقرى باسم « تاريخ الأسر الإسلامية بالأغدلس » ، وكتاب و اليميني » أو « السيرة اليمينية » باسم « تاريخ الأمير سبكتجن و محمود الغزنوى » الذي لا توجد منه إلا نسخة مخطوطة في دار الكتب ، تتطلب قراءتها والبحث فها كثيراً من الجهد ، وترجمة « تذكرة الكحالين » باسم « رسالة في الرمد » الخ .

وقد وفقنا بحمد الله إلى تذليل هذه الصعاب فصححنا ما حرف أوكتب خِطأً من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب ، والهتدينا إلى النصوص من مصادرها ، وصححنا بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤلف كخلطه بين الكندى الفيلسوف وعبد المسيح بن إسماق الكندى الذي كتب رسالة في الدفاع عن المسيحية عزاها المؤلف إلى الكندى الفيلسوف . وقد عاوننا في ذلك غير قليل من العلماء والأصـــدقاء نذكرهم هنا اعترفا بفضلهم السيد الحاخام الأكبر الذي ساعدنا في تحقيق كثير من الأسماء والنصوص العبرية في هذا الجزء والجزء الذي يليه والذي اغترفنا من بحر علمه ما ورى غلتنا في هذا الميدان ، ومنهم صديقنا الأديب الأستاذ كامل كيلاني الحجة في أبي العلاء الذي هدانا إلى كثير من النصوص المنقولة عنه وعن غيره من الشعراء ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور يحيى الخشاب اللذان أعانانا على تحقيق بعض الأسماء الفارسية ، والأستاذ دريني خشبة الذي ترجم لنا شعرا رباعيتين لعمر الخيام لم تجدهما فى التراجم المطبوعة فضلا عما استخرجه لنا من النصوص الأدبية الأخرى ، والاستاذ أمن الشريف الذي وفر عليناً كثيراً من المشقة بالبحث عن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وأصدقاونا في دار الكتب ، ومكتبة وزارة التربية الدين يسروا لنت

سبيل الحصول على المراجع أعظم تيسر. فلهؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر عن نفسي وعن القراء. وإذا كان قد فاتنا شيء من هذه الناحية فإنا نعتلر عنه مقدماً ونتقبل شاكرين ما بهدينا إليه القراء لنتداركه في الطبعة الثانية إن شاء الله ، وعذرنا أننا بدلناكل ما نستطيع من جهد للوصول إلى الحقيقة كاملة ، ونقول كما يقول ابن خلكان ، والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال: وفن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه ، فإني توخيت فيه الصحة حسبا ظهر لى ، مع أنه كما يقال: أني الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل ، وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلاما تصل قدرته إليه ، وفوق كل ذي علم علم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافي ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته والغير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » .

هذا وسرى القارى أن المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالد فى حضارة أوربا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة ، ثم هو يعتلر فى آخر هذا الجزء عن تقصيره فى هذه الناحية . وكان لا بد له أن يمهد لوصفه تلك الحضارة بفصول عن باعثها عايه الصلاة والسلام وعن القرآن والدين ، ولم تفته الإشادة بمحاسنه وفضائله . على أننا لم نشأ أن نترك هذه الفصول كما هى لما عساه أن يكون فها من أخطاء أو سوء فهم أو نستقل برأينا فيها ، فعر ضنا الأمر على الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية فعهدت إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف موسى أن يعلق على هذه الفصول فكتب التعليق القيم الوارد فى هوامشها والذى ذيل باسمه (ى) . وقد أضفنا نحن من عندنا تعليقات أخرى على هذه الأجزاء وعلى سائر فصول الكتاب ذيلناها بلفظ (المترجم) .

وكان هذا أيضاً هو رأى إخواننا أعضاء مجلس إدارة لجنة التأليف ، ونرجو أن نكون قد سلكنا في هذا الطريق الصحيح :

ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة قبل أن نقدم جزيل الشكر مرة أخرى للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية صاحبة المشروع وأكبر عون فيه ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر ناشرة الكتاب ، والقراء الكرام في مصر والبلاد العربية الذين شجعونا بإقبالهم على الأجزاء السابقة على مواصلة الجهد في هذا العمل الشاق ، وفقنا الله وإياهم إلى الحير ، وهدانا الصراط المستقيم .

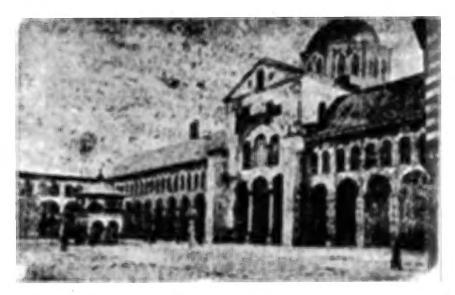
محد پدرالہ



(شكل ١) قبة الصخرة في المسجد الأقصى



شكل ٢) منبر المسجد الأقصى ببيت المقدس مصنوع من المشب



(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق



(شكل ؛) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام



(شكل ه) صحن الجامع الأزهر بالقاهره



(شکل ۲) داخل مسجد قرطبة



(شكل ٧) بهو السباع في قصر الحمراء نغرباطه